فيدل كاسترو

الأب الروحي للثورة

ومحرر أميركا اللاتينية

أسرار ٦٠٠ محاولة أميركية فاشلة لاغتياله

مقدمة بقلم: جابريل جارسيا ماركيز

وثائق وشهادات وصور

عادل الجوجري



فيدل كاسترو

الأب الروحي للثورة

ومحرر أميركا اللاتينية

أسرار ٦٠٠ محاولة أميركية فاشلة لاغتياله

اسم الكتاب: فيدل كاسترو

اسم المؤلف: عادل الجوجري

المراجعة اللغوية والتدقيق: محسن حسين

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٥٠٣٤-٢٠٠٧

الترقيم الدولى: I.S.B.N.977-376-288-2

التنفيذ الفنى: أحمد وليد ناصيف

الإشراف الفنى: محمد وليد ناصيف

الإشراف العام: أ. أسعد بكري كوسا

تصميم الغلاف: كامل جرافيك

تطلب كافة منشوراتنا:

حلب: دار الكتاب العربى - الجميلية أمام مسرح نقابة الفنانين ت: ٢٢٥٦٨٦٠

دمشق: مكتبة رياض العلبى - خلف البريد - ت: ٢٢٣٦٧٢٨

مكتبة النورى - أمام البريد - ت: ٢٢١٠٣١٤

مكتبة عالم المعرفة - جسر فيكتوريا - ت: ٢٢٢٨٢٢٢

مكتبة الفتال - فرع أول - ت: ٢٤٥٦٧٨٦

فرع ثاني - ت : ٢٢٢٢٣٧٣

الطبعة الأولى
٢٠٠٧



دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

سوريا - دمشق - الحجاز - شارع مسلم البارودى هاتف: ٢٢٢٥٤٠١ - ص.ب ٢٤٨٢٥ - فاكس: ٢٢٤٧٢٩٧
مصر - القاهرة - ٥٢ شارع عبد الخالق ثروت - شقة ١١ تلفاكس: ٢٩١٦١٢٢
لبنان - تلفاكس: ٠٥/٤٣٤١٨٦ - تليفون: ٠٣/٦٥٢٢٤١ - ص.ب. ٣٠٤٢ الشويفات
E-mail:darkitab2003@yahoo.com

إهداء

إلى أبنائي خالد ومروان و دنيا

إلى جيل لم يولد بعْد

أو ولد بالأمس القريب

التاريخ يصنعه رجال

والرجال مهنة التاريخ وحرفته

أقدم لكم رجلا في التاريخ

وتاريخا في رجل

المقدمة

كاسترو كما يراه ماركيز *

كتب ماركيز الكثير عن الشخصيات التي قابلها، من رؤساء وملوك وكتاب وفنانين، كان قلمه الرهيف يرصد أدق ملامحهم وينفذ ببساطة إلى داخل ذواتهم الخفية وهذا مافعله مع الزعيم الكوبي فيدل كاسترو.

قال فيدل كاسترو في معرض الحديث عن زائر أجنبي كان قد اصطحبه في جولة في أرجاء كوبا استغرقت اسبوعاً: (ما أعظم قدرة هذا الرجل على الحديث. إنه يفوقني في ذلك).

يكفي للمرء أن يكون على معرفة بسيطة فحسب بفيدل كاسترو لكي يدرك أن هذا القول يتضمن مبالغة، مبالغة كبرى، لأنه من المستحيل العثور على أي شخص أكثر إدماناً منه على عادة مد جسور الحديث.

يكاد إخلاص كاسترو للكلمة أن يكون سحرياً، ففي بداية الثورة، ولم يكن قد انقضى إلا بالكاد أسبوع على دخوله المظفر إلى هافانا، حتى تحدث عبر التلفزيون على امتداد سبع ساعات بلا توقف. ولابد أن ذلك كان تسجيلاً لرقم قياسي عالمي. وخلال الساعات القليلة الأولى جلس أبناء هافانا، الذين لم يكونوا قد ألفوا بعد قوة صوته الموحية بتأثير التنويم المغناطيسي، ليصغوا إليه بالطريقة التقليدية. ولكنهم مع مرور الوقت عادوا إلى روتينهم

اليومي، مانحين أذناً لشؤونهم وأخرى للخطاب.

فيدل كاسترو: هو ابن أحد ملاك مزارع قصب السكر الكوبيين. حاول، من دون أن يكلل بالنجاح، الإطاحة بحكم الجنرال فولجنسيو باتيستا في ٢٦ يوليو ١٩٥٣، الأمر الذي أسفر عن إيداعه السجن لمدة عامين. ولدى إطلاق سراحه توجه إلى المكسيك للتخطيط للقيام بغزو كوبا، وفي ٢ ديسمبر ١٩٥٦ بدأ حملة حرب عصابات أسقطت حكم باتيستا بالفعل.

شغل منصبيْ رئيس كوبا ورئيس وزرائها منذ ١٩٥٩ . لفت أمران نظر من استمعوا لفيدل كاسترو للمرة الأولى، الأمر الأول هو قدرته الرهيبة على استقطاب مستمعيه، والآخر هو هشاشة صوته، فهو صوت مبحوح، ينحسر في بعض الأوقات، ليغدو همساً لاهثاً. وقد خلص أحد الأطباء، لدى سماعه ذلك الصوت المبحوح، إلى أنه حتى من دون الخطب الماراثونية، التي بدا أنها تتدفق ممتدة مثل نهر الأمازون، فإن من المقدر لفيدل كاسترو أن يفقد صوته في غضون خمس سنوات.

وعقب فترة قصيرة، وعلى وجه التحديد في أغسطس ١٩٦٢، بدا أن هذا التشخيص قد تلقى أول تأكيد مثير للانزعاج له عندما احتبس صوته بعد إلقائه لخطاب أعلن فيه تأميم الشركات الأمريكية. لكن تلك كانت نكسة مؤقتة لم تتكرر. وقد انقضى ستة وعشرون عاماً منذ ذلك الحين. وتجاوز فيدل كاسترو عامه الستين، ولايزال صوته يتردد كعهده بين القوة والضعف، ولكنه يظل أداته الأكثر نفعاً واستعصاء على المقاومة في المهنة الدقيقة المتمثلة في الكلمة المنطوقة..

قال كاسترو منذ وقت طويل: (تعلم الراحة أمر مهم تماماً كتعلم العمل). ولكن طرقه في نيل قسط من الراحة تبدو أصيلة للغاية،وهي فيما يبدو لا تستبعد الحوار. فذات مرة ترك جلسة عمل محتدمة قرابة منتصف الليل، بمؤشرات ظاهرة للعيان دالة على الإنهاك،وعاد في ساعات ما قبل الفجر مستعيداً نشاطه تماماً بعد السباحة لمدة ساعتين.

لا تتفق الحفلات الخاصة مع شخصيته،حيث إنه واحد من الكوبيين النادرين الذين لا يغنون ولا يرقصون،والحفلات القليلة للغاية التي يشهدها تتغير طبيعتها لحظة وصوله إليها. وربما لا يدرك جلية الأمر،قد لا يعي القوة التي يفرضها حضوره،وهو حضور يبدو بصورة فورية أنه يملأ المجال كله، وذلك على الرغم من أنه ليس طويل القامة ولا ممتلئاً على نحو ما يبدو من النظرة الأولى. ولقد رأيت أكثر الناس ثقة بأنفسهم يفقدون رباطة جأشهم وهم بصحبته،وذلك من خلال استنباطهم الوسائل للظهور بمظهر مُتماسك أو اتخاذ مظهر مبالغ فيه يوحي بالثقة،من دون أن يتصوروا أنه على القدر نفسه من الخشية مثلهم تماما،وأنه مضطر لبذل الجهد الأولي حتى لا يلحظ أحد ذلك. وقد اعتقدت دائماً أن صيغة الجمع التي يستخدمها غالباً لدى الحديث عن أعماله ليست موحية بالتفخيم على نحو مَا تبدو،وإنما هي بالأحرى وسيلة شعرية يستخدمها لإخفاء حيائه وخجله.

من المحتم أن تتم مقاطعة الرقص،وأن تتوقف الموسيقى،ويؤجل العشاء، ويلتف الجمع حوله للمشاركة في الحوار الذي يبدأ في التو،وبمقدوره أن يظل على ذلك النحو على امتداد أي وقت يخطر على البال،واقفاً من دون أن يشرب

شيئاً أو يتناول أي طعام. وفي بعض الأحيان، قبل أن يأوي إلى فراشه، يطرق باب صديق مقرب، في وقت متأخر للغاية، حيث يطل من دون سابق إخطار، ويقول إنه سيمكث خمس دقائق فحسب. يقول ذلك بإخلاص بالغ بحيث إنه لا يجلس، وشيئاً فشيئاً يثيره الحوار الجديد، وبعد فترة يتهالك على مقعد مثير، ويمد ساقيه قائلاً: (إنني أحس بأنني إنسان جديد).

هكذا يمضي الأمر، فحينما يصيبه الإنهاك من الحديث يرتاح من خلال الحديث..

يمكن لهذا أن يفسر ثقته المطلقة بالاتصال المباشر، فحتى أكثر الخطب صعوبة يمكن أن تبدو كالأحاديث العابرة، كتلك الأحاديث التي أجراها مع الطلاب في أفنية الجامعة في بداية الثورة. وفي حقيقة الأمر، وبصفة خاصة خارج هافانا، ليس من غير المألوف أن يخاطبه أحدهم رافعاً عقيرته من قلب الجمع في اجتماع عام، ويبدأ حوار عبر الهتاف بصوت عال. ولديه أسلوب لكل مناسبة، وصيغة مختلفة للإقناع اعتماداً على محاوريه المختلفين، سواء أكانوا عمالاً، مزارعين، طلاباً، علماء، سياسيين، كتاباً أو زواراً أجانب. وبمقدوره الوصول إلى كل منهم ومخاطبته على مستواه بمعلومات غزيرة ومنوعة تتيح له التحرك في سهولة عبر أي وسيلة للخطاب. ولكن شخصيته من التركيب والاستعصاء على التنبؤ بحيث إن أي شخص من محاوريه يمكنه تكوين انطباع عنه مختلف عن غيره خلال اللقاء ذاته.

ثمة أمر واحد مؤكد، وهو أنه حيثما كان فيدل كاسترو، وعلى أي نحو كان، ومع أي شخص كان، فإنه هناك لكي ينعقد له لواء الفوز. ولست أحسب أن

هناك أي شخص في هذا العالم يمكن أن يكون خاسراً أسوأ منه. فموقفه في مواجهة الهزيمة، حتى في أبسط وقائع الحياة اليومية، يبدو متمثلاً في إطاعة منطق خاص، وهذا المنطق قوامه أنه لن يسمح أبداً بالهزيمة، ولن يقر له قرار إلا بعد أن يقلب الأوضاع ويحوّل الهزيمة إلى انتصار، ولكن أياً كان الأمر، وحيثما كان، فإن كل شيء يقع في نطاق حديث لا ينفد.

يمكن لموضوع الحديث أن يكون أي شيء، بحسب اهتمام الجمهور، ولكن غالباً ما يحدث العكس، عندما يكون هو المبادر بطرح حديث واحد على جمهوره كله. ويميل هذا إلى الحدوث خلال الفترات التي يستكشف فيها آفاق فكرة تؤرقه، وما من أحد يمكن أن يكون أكثر استحواذاً وإصراراً منه عندما ينطلق نحو الوصول إلى غور شيء ما. وليس هناك مشروع لا يأخذه على عاتقه، مهما كان هائلاً أو متواضعاً، بحرص عارم خاصة إذا كان يواجه معارضة أو خصومة. هو لا يبدو في أي وقت آخر أفضل مما يبدو عليه في مثل هذه الأوقات، حيث يبدو في حالة مزاجية طيبة، وبروح معنوية عالية. وقد عقّب شخص يعتقد أنه يعرفه ذات مرة بقوله: (لابد أن الأمور تجري على نحو سيئ للغاية لأنك تبدو متألقاً).

قارئ نهم

هناك مصدر آخر مهم للمعلومات. وهو. بالطبع. الكتب. وربما كان الجانب الأقل اتساقاً في شخصية فيدل كاسترو مع الصورة التي يرسمها له خصومه هو كونه قارئاً شديد الشغف بالكتب حتى ليلتهمها التهاماً. وما من أحد

بمقـدوره أن يوضح الكيـفـيـة التي يمكنه بهـا أن يجـد الوقت أو أي سـبل يستخدمها ليقرأ كثيراً على هذا النحو أو بمثل هذه السرعة،على الرغم من أنه يشدِّد على أنه ليس هناك شيء مميـز فـيـمـا يـتـعلق بهـذا الجـانب. في سياراته، ابتداء من الأولدزموبيل العتيقة للغاية،وصولاً إلى سيارات (الزيل) السوفييتية المتتابعة، حتى سيارات المرسيدس الحالية، هناك على الدوام ضوء للقراءة ليلاً. وعديدة هي المرات التي أخذ فيها كتاباً في ساعات ما قبل الفجر وعقَّب عليه في صباح اليوم التالي. وهو يقرأ بالإنجليزية، لكنه لا يتحدثها. وعلى أي حال فإنه يفضل القراءة بالإسبانية،وهو على أهبة الاستعداد في أي ساعة لقراءة قطعة من الورق تضم حروفاً قد تقع بين يديه. وعندما يحتاج إلى كتاب حديث جداً لم يترجم بعد،فإنه يأمر بترجمته. وقد بعث إليه طبيب من أصدقائه،على سبيل المجاملة،بأطروحته في تجبير الأعضاء وتقويمها، التي كانت قد نشرت لتوها،من دون أي مطالبة،بالطبع،بأن يقرأها،ولكن بعد أسبوع تلقى منه رسالة تضم قائمة طويلة من الملاحظات. وهو قارىء معتاد على قراءة الموضوعات الاقتصادية والتاريخية.

وعندما قرأ مذكرات لي أياكوكا اكتشف العديد من الأخطاء التي لا تصدق بحيث إنه بعث إلى نيويورك يطلب الحصول على النسخة الإنجليزية من الكتاب لمقارنتها بنظيرتها الإسبانية. وكان المترجم حقاً قد خلط بين المعنى المراد في اللغتين برقم البليون. وهو قارىء جيد للأدب ويتابعه عن كثب،ويثقل على ضميري أنني مهدت السبل أمامه إلى إدمان الاستهلاك السريع للكتب التي تضمها قوائم أفضل الكتب مبيعاً ومتابعته

بما يستجد منها كجرعة مقاومة للوثائق الرسمية.

الدمية الروسية

مع ذلك فإن مصدر كاسترو المباشر والأكثر عطاء للمعلومات يظل الحديث، ولديه عادة القيام باستجوابات سريعة تشبه (ماتروشكا)، تلك الدمية الروسية، التي تخرج من داخلها دمية أصغر، ومن هذه الأخيرة دمية أصغر إلى أن تبقى أصغر الدمى في نهاية المطاف. وهو يطرح أسئلة متتابعة، في انطلاقات فورية، إلى أن يكتشف السبب الكامن وراء لماذا الخاصة بلماذا النهائية. ومن الصعب على من يحاوره ألا يشعر بأنه قد تم إخضاعه لتمحيص بالغ الدقة. عديدة هي المرات التي رأيته فيها يصل إلى داري في وقت متأخر جداً من الليل، وهو لايزال مصطحباً معه البقايا الأخيرة من يوم بلا انتهاء. وسألته مرات كثيرة عن الكيفية التي تمضي بها الأمور. ورد عليَّ أكثر من مرة قائلاً: (على نحو طيب للغاية، فكل المستودعات لدينا مليئة). ورأيته يفتح الثلاجة ليتناول قطعة من الجبن، ربما كانت أول شيء يتناوله منذ طعام الإفطار، وشاهدته يحادث عبر الهاتف صديقته في المكسيك ليطلب منها وصفة، إعداد طبق يحبه، ورأيته ينسخ الوصفة، مستنداً إلى النضد وسط قدور ومقَالٍ (جمع مقلاة) استخدمت في إعداد العشاء، ولم تغسل بعد، بينما أحدهم يغني في التلفاز أغنية قديمة: (الحياة قطار سريع يقطع ألوف الفراسخ.) وسمعته في لحظات حنينه القليلة يستحضر ساعات الفجر الرعوية المنتمية إلى طفولته الريفية، حبيبة ميعة

صباه التي هجرته،الأمور التي كان بمقدوره اكتسابها من الحياة. وذات ليلة، بينما كان يأكل آيس كريم الفانيلا في تؤده بملعقة صغيرة،رأيته مثقلاً للغاية بوقر مصائر العديد من الناس، وقد نأى كثيراً عن ذاته،إلى حد أنه بدا للحظة مختلفاً عن الإنسان الذي كانه دوماً. عندئذ سألته عن أكثر شيء في العالم يحب القيام به،فرد على الفور قائلاً: (أريد أن أتسكع عند ركن أحد الشوارع فحسب).

*** عن مجلة العربي- الكويتية مايو ٢٠٠٦**

ترجمة: كامل يوسف حسين

الفصل الأول

أميركا اللاتينية الكنز المنهوب

« ٢٠ جمهورية و٥٣٥ انقلابا »

تعرضت قارة أميركا اللاتينية -ولاتزال- إلى عملية نهب استعمارية متعددة الألوان والثقافات،وهي تنافس قارة أفريقيا التي لم تسلم من عمليات النهب الاستعمارية منذ الكشوف الجغرافية التي وإن كانت وبالا على القارتين فإنها فتحتهما أمام العلم الحديث وطهرتهما إلى حد بعيد من الخرافة والأسطورة وانغلاق العقل.

عشرون جمهورية تمتد على طوال ١٥ ألف كيلومتر، وتحتل ١٥٪من الكرة الأرضية ، وقعت لمدة ثلاثة قرون تحت السيطرة الاستعمارية وشهدت ٥٣٥ انقلابا وأكثر من ألف حركة تمرد عسكرية خلال ١٥٠ سنة من الاستقلال، إذ نالت دول أميركا اللاتينية استقلالها السياسي بين١٨١٠و١٨٣٠، وانتظرت كوبا وحدها حتى القرن التاسع عشر لتحصل على الاستقلال.

لم تدخر الولايات المتحدة جهدا للتدخل في شؤون أميركا اللاتينية وقد خططت ودبرت٢٥ انقلابا ناجحا لمصلحتها عدا مئات المرات حاولت اغتيال قيادات وطنية وإسقاط نظم مناهضة لها ،وبلغ عدد سكانها حوالي ٦٠٠ مليون إنسان في نهاية القرن . نصف سكان أميركا اللاتينية لا يصل دخلهم السنوي إلى ١٠٠٠ دولار . وهناك ١٧٠ مليون انسان يعملون

في أسوأ الظروف بسبب سوء التغذية فضلا عن ١٠٠ مليون أمي لم تتوفر لهم أي فرص للتعليم الأساسي.

هكذا تبدو القارة اللاتينية في مطلع القرن الحادي والعشرين فهل أميركا اللاتينية فقيرة لأن الموارد الطبيعية تنقصها ؟

- لا ، أبدا .

لا يمكن مقارنة أي قارة أخرى بأميركا اللاتينية ، من حيث نسبة الأراضي الخصبة والصالحة للزراعة ، ومن حيث الثروات والإمكانيات الطبيعية .

- فنزويلا تعوم فوق بحيرة من النفط المتدفق من آبارها.
- بوليفيا مليئة بمناجم القصدير والغاز الطبيعي.
- تشيلي غنية جدا بالنحاس.
- البرازيل والباراجواي ممتلئتان بالحديد.
- كوبا تمتلك أجود أنواع السكر وتصدره إلى أماكن عديدة في العالم

ما هي إذن أسباب تخلف أميركا اللاتينية؟

لأن الفارق بين ما تنتجه وما تستهلكه لا يستثمر بطريقة تغني المجموع تدريجيا.

الموارد الأساسية لدول أميركا اللاتينية هي الزراعة . لكن الزراعة تتقاسمها فئتان:

- الفئة الأولى ، فئة الأغلبية الساحقة التي تشكل الفلاحين الصغار .
- الفئة الثانية ، فئة المالكين الكبار الذين يشكلون ١,٥ ٪ من السكان ، ويحتكرون أكثر من ٥٠٪ من الأراضي .

الفلاحون الصغار يزرعون حقولا متواضعة ويجهلون مختلف أنواع التقدم الفني والتكنولوجي والزراعي . إنتاجهم ضئيل ، ويستدينون من المالكين الكبار ومن المرابين بفوائد مرتفعة جدا ، تؤدي بهم اغلب الأحيان لان يرهنوا محاصيلهم لفترة ٢٠ سنة .وكان الرأسماليون الأميركيون يقدمون القروض قصيرة الأجل لمزارعي قصب السكر في كوبا قبل الثورة الأمر الذي أدى إلى إفلاس عدد كبير من الفلاحين وتنازلهم عن أراضيهم للمرابي الأميركي.

المالكون الكبار كانوا يميلون إلى زراعة الأنواع التي تخدم صادراتهم بغض النظر عن حاجة المجتمع، أنواع زراعة مثل: قصب السكر ، البن والقطن . هذه الأصناف ، هي للتصدير الخارجي لا لتغذية الأسواق المحلية الداخلية. والفائض المالي الضخم للمالكين الكبار ، ينتهي على شكل أرصدة كبيرة في المصارف الأجنبية ولا تدخل في العملية الإنتاجية من جديد.

والمراقب لأحوال وأوضاع أميركا اللاتينية يكتشف أنه ليس هناك نزاعات مصالح أو تناقضات جوهرية أساسية بين كبار الملاك والرأسماليين، فالملاك الكبار يستثمرون جزءا" كبيرا من أموالهم في المدينة ، والتجار والصناعيون وأصحاب المصارف يشترون الأراضي .البورجوازية في أميركا اللاتينية .

- والنتيجة؟

تحالف سياسي اجتماعي يوصد الأبواب أمام التقدم الاقتصادي،

ويعيش في رعب دائم من نقمة شعبية جماهيرية مترتبة على تزايد معدلات الجوعى والمرضى والعاطلين عن العمل خاصة في القطاع الزراعي. من يضمن قوة هذا التحالف السياسي الاجتماعي واستمراره ؟

- الجيش.

الجيش يبتلع ٤٠ أو ٥٠ ٪ من معظم موازنات دول أميركا اللاتينية .

ولكن ، هل يكفي التضامن مع الجيش ؟

- لا .

يجب التحالف مع قوة خارجية جبارة تضمن " الاستقلال والحرية " لهذا التحالف .

ووجدت غالبية دول أميركا اللاتينية ، أن التعاون الوثيق مع الولايات المتحدة ، إلى حد رهن الاستقلال الوطني معها ، هو أفضل طريق للاستمرار.

وهكذا، نرى أن الشركات الأميركية الكبرى هي التي تسيطر على معظم اقتصاد دول أمريكا اللاتينية . وهذه الشركات هي :

- ستاندرت أويل ، شل ، جولف ، سوكوني ، وهي تسيطر على نفط فنزويلا .

- ايرون مينيج واوربنكو ، وهما فرعان من شركة " يونايتد ستايتز ستيل "

و"بتيليم ستيل" ، تسيطران على حديد فنزويلا والبرازيل .

- أندرسون كلايتون تسيطر على قطن البيرو والمكسيك .

- يونايتد فروت كومباني، تسيطر في أميركا الوسطى على اقتصاد جواتيمالا ونيكاراجوا وهندوراس.

هذه الشركات الضخمة وأمثالها، تصدر القسم الأكبر من الأرباح إلى الولايات المتحدة ، بدلا من استثمارها في مشاريع داخل دول أميركا اللاتينية .

الصورة واضحة : لا يكفي أن تمتلك أميركا اللاتينية الثورات الوطنية الضخمة لتصبح غنية ويعيش أهلها برخاء ، بل يجب استغلال هذه الثروات بطريقة عادلة ومنطقية .ولا يتحقق ذلك إلا في وجود نظم ثورية تطيح بتحالف الإقطاع والرأسمال لمصلحة الجماهير.

طبقة الفلاحين تستيقظ بعنف

ثمة مشكلة تواجهها النظم الجمهورية في أميركا اللاتينية لا ترتبط باستقلالها السياسي . وقد مضى على ذلك فترة طويلة ، بل عدم الاستقلال الاقتصادي الذي يوفر مناخا لتحقيق التنمية الذاتية

ولا يمكن ممارسة السلطة السياسية دون السلطة الاقتصادية . وهكذا هو جوهر الصراع الدائم بين الأنظمة والطبقات الحاكمة من جهة والثوار المتمردين من جهة أخرى.

والواقع أن جميع الحركات الثورية في أميركا اللاتينية ، وهي المشهورة بأنها منبع وأرض الانقلابات والديكتاتوريات والاضطرابات المستمرة ،

كانت تقوم بها حتى السنوات الأخيرة ، قوى من الطبقة المتوسطة تعمل لمصلحة سكان المدن والطبقات المتوسطة والعمال ، وتحتقر أو تتجاهل مشاكل الفلاحين .

وهذا الاحتقار المستمر للفلاحين المتروكين تحت سيطرة زعمائهم التقليديين ، هو من أخطر وأبرز آثار التململ السياسي والاجتماعي والعسكري في أميركا اللاتينية . وطبقة الفلاحين التي عاشت هذه السنوات الطويلة في الانزواء والاحتقار والتجاهل من قبل بورجوازيي المدن ، تحاول اليوم أن تستيقظ بعنف من سباتها العميق ، وتحتل مكانها.

لقد اكتشف الثوار منذ نهضة حركة التحرر في الخمسينيات من القرن العشرين أن شعوب أميركا اللاتينية لن تنمو بشكل متناسق ومتطور إلا حين تسيطر بنفسها على كل اقتصادها وتوظيف الفائض المالي بطريقة تتيح استثمار هذا الفائض في الزراعة المنتجة وفي المصانع وفي تنمية القدرات البشرية من خلال نهضة تعليمية تتمثل في بناء المعاهد العليا والجامعات ودخول عصر الحداثة .

وهذا يعني القضاء على النظم الإقطاعية و تقليص موازنات أجهزة الأمن والجيوش لمصلحة القطاعات الصحية والتعليمية ومراقبة دور المؤسسات الأجنبية لاسيما العاملة في مجال البنوك والتأمينات حتى لايتسرب النقد الأجنبي إلى الخارج.

وهنا يبرز التناقض المأساوي :

مشكلة دول أميركا اللاتينية هي النمو الاقتصادي . ولكن مشكلة

الولايات المتحدة ، هي الحفاظ على مصالحها الاقتصادية وضمان المحافظة على الأنظمة الموالية لها التي تعتبر جسرا متينا يربط دول أميركا اللاتينية بالولايات المتحدة ، والمحافظة على الأمن يعني أيضا بالنسبة للولايات المتحدة مواجهة الأفكار الراديكالية والدفاع عن أفكار العالم الحر .

هذا الوضع دفع الولايات المتحدة لتقوية تحالفها مع الطبقات الرأسمالية والإقطاعية والعسكرية لتشكيل جبهة اجتماعية تحول دون وصول أنظمة مناهضة لها في القارة التي تمثل حديقتها الخلفية وبوابتها الجنوبية.

- ولتحقيق هذا الهدف قامت بتمويل منظمات سرية وميلشيات لمواجهة الثوار أو قتل قادة المعارضة وفرق الموت ويحفل تاريخها بسجل أسود في عدة دول مثل بنما التي أقامت فيها مراكز لتدريب الجنود على محاربة الثوار ورجال العصابات ، وتعليمهم جميع الأساليب والوسائل الكفيلة بالقضاء على محاولات الثوار في قلب أنظمة الحكم ، ويتخرج من مركز بنما سنويا أكثر من ٣ آلاف ضابط من جيوش أميركا اللاتينية، يلتحقون بعد تخرجهم بجيوشهم الأصلية، ويشكلون الكادرات الرئيسية فيها .

وساهمت أميركا في الخمسينيات في تأسيس وحدات خاصة في الجيش البرازيلي ،في شمال شرقي البرازيل معسكرات لتدريب الفلاحين الشبان، الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة عشرة والخمسة والعشرين، على أصول مكافحة حرب العصابات.

وفي الولايات المتحدة نفسها ، هناك معهد " فورت براك " المتخصص في تخريج عدد كبير من الخبراء في التجسس والتخريب والحرب النفسية ، والذين يتم تكليفهم بمهام خاصة ضد زعماء الثورة.

وأميركا اللاتينية هي ، بالإضافة إلى هذا الوجه الثوري،هي القارة الولادة التي أنجبت عشرات الثوار الذين احتلوا الضمير العالمي، وهي قارة رومانسية فيها تراث من الشجن ،وهي حزينة تعيش في أصداف وعمقها الكلمات أكثر مما تعيش على سطح هذه الكلمات . وابرز الثوار الذين ساهموا في تحرير واستقلال دول أميركا اللاتينية هم من العاطفيين والشعراء والكتاب.

ولن ينسى العالم رمز الثورة، رافع شعار التحرر : تشي جيفارا الذي وهب حياته من أجل قيمة عليا هي الحرية.

الفصل الثاني

من الاستعمار الاسباني

إلى الأميركي

"حقل قصب السكر المعتم

يكشف

عن صف أسنانه

ليشعر الكوكب في أبعاد السماء

بالبرد والجوع

ويرتفع سوط السيدات والسادة: إنه سوط يجرح ويمزق الظهور

أيها الشاعر

اذهب، وعلى الحان قيثارتك

خَبِّر الوردة بما تسمع

وحدثها أيضا

عن ضياء الشمس التي تطلع

كي تصفق الزهرة

ويهتف الريح"

لأنها الأرض الخضراء المثمرة في الفصول الأربعة، لايزورها القحط ولا الجليد، كانت كوبا - ولاتزال- مطمعاً لأنظار المستعمرين منذ قديم الزمان.

كان كريستوفر كولومبس هو أول أجنبي وطئت قدماه أرض كوبا الجميلة

في ٢٧ اكتوبر ١٤٩٢ حيث خطفته أو بهرته أشجارها ومياهها وخيراتها الزراعية الوفيرة، وجمال الطبيعة الساحر فيها وقال "هذه أجمل ارض يمكن أن تراها العين".

وبعد أن رجع إلى أوروبا، حدث ملك أسبانيا عنها، وشرح له أهمية موقع هذه الجزيرة التي اكتشفها، وبين له خيراتها وكنوزها، وأقنعه بضرورة احتلالها، والاستفادة من ثرواتها، فأخذ في سرية تامة يعد لغزو كوبا وتوظيف خيراتها للمساهمة في إعادة بناء اسبانيا التي طحنتها الحروب الأهلية..

وفي عام ١٥٣٩ أرسلت الحكومة الأسبانية أسطولاً بحرياً بقيادة كورتيز مجهزاً بصورة جيدة، استطاع أن يستعمر كوبا، ويسيطر عليها بعد مقاومة وطنية عنيفة من قبل الأهالي الذين كانوا يفتقرون إلى مهارات وأدوات القتال الحديثة.ولم يصدقوا أن جزيرتهم التي حباها الله كل هذا الجمال يمكن آن تكون مستعمرة اسبانية.

ومساحة كوبا تعادل مساحة هولندا والدنمرك وبلجيكا مجتمعة، ومناخها صالح لكل المحاصيل، فالمرتفعات لزراعة البن، وحيث ترتفع نسبة الرطوبة تجري زراعة الدخان ومنه يصنع السيجار الكوبي- أفخم سيجار في العالم-ونصف السهول مزروعة بالقصب.

ولم يدخر المستعمرون الأسبان وسيلة في نهب خيرات الشعب الكوبي، خاصة المعادن النفيسة كالذهب الذي جمعوه من الأسواق ومن البيوت بصورة وحشية، وقد نشروا جواً من الإرهاب البربري في البلاد، وجعلوا

الشعب يحيا بين أنياب الجوع والفقر والحرمان ليحولوا دمه وعرقه ذهبا لتمويل مشروع إعادة بناء اسبانيا، لكن الشعب الكوبي، ككل شعب أبي، ظل يقاوم بكل مايملك، ويحقق انتصارات وإخفاقات من دون أن يستسلم.

وقام الحكم الأسباني بتقسيم البلاد إلى عدة إدارات محلية، واستلمها ضباط لفرض الأمن وهيبة الاحتلال ، وأقاموا ثكنات عسكرية للحاميات ، وشيدوا قلاعا محصنة لحماية جنود الإمبراطورية لكن الشعب الكوبي انتفض عدة مرات وركزوا هجماتهم ضد الثكنات العسكرية ما أوقع خسائر بشرية واسعة في صفوف الاحتلال.

ولم يحدث في تاريخ الاستعمار أن أفني جيش يغزو شعبا في أرضه مثلما حدث لأهل كوبا ، فبعد ٣٠ عاما من اكتشاف كولومبس لكوبا بقي ١٥الاف مواطن فقط من أصل ٢٠٠ ألفا كانوا في الجزيرة وقد قتل أو شرد باقي أبناء الجزيرة بسبب العمليات الإرهابية التي مارسها الاحتلال..

ويسجل التاريخ الكوبي بحروف من نور حقيقة هامة هي أن عدد الثورات والهبات التي قام بها شعب كوبا ضد الاحتلال حتى قيام ثورة كاسترو يفوق مجموع الثورات التي شهدتها أوروبا في تلك الفترة

وأشهر الثورات هي الانتقاضة التي جرت في ٢٢ ديسمبر١٨٤٨، حيث خرج أهالي مدينة مانزاتيلو لاستقبال بطل المقاومة الشعبية ضد الاحتلال الأسباني(جيروس مينيدز).

وعندما وصل حملته الجماهير المحتشدة على الأعناق، وظلت تهتف ضد الاحتلال الأسباني ومن أجل الحرية والاستقلال عبثا حاول الجنود

تفـريق التظاهـرة ،وجـرت اشـتـباكـات عنيـفـة سـقـط فـيـهـا ٢٠٤ مـجـروح في صفوف المواطنين.

وظل الاحـتـلال يـتـربص بـالقـائـد مـيـنـيـذر يريدون قـتـلـه حـتى وجـدوا ضالتهم في عميل مأجور باع شرفه وشعبه سبيل وطنه وهو كاسيلاس رئيس مـجلس النواب المزيف، الـذي ارتكب جـريمـة بشـعـة، إذ أطلق الرصـاص على مينيذر ثم اختفى بين الجماهير.

وباشـرت سلطة الاحـتـلال اعـتـقـال الثـوار والتنكيل بهـم بحـرق مـزارعـهم وبيوتهـم وماشيـتهـم بكل وحـشيـة، وارتفعت وتيرة النهب لثروات الشعب ،كما يقول الشاعر الكوبي جويلين :

"يقتلونني إذا لم اشتغل... ويقتلونني أيضاً إذا اشتغلت".

ومع أن الانتفاضة الوطنية قد فشلت، واستشهد قائدها الوطني جيروس مـينيدز واعـتقل آلاف المواطنين الفقـراء وتعـرضوا لأبشـع ألوان التعـذيب في السـجون التي تم افـتـتـاحـهـا في مـعظم المدن والقـرى،لكن الشـعب الكوبي لم يستسلم، بل بدات عملية التنظيم للمواطنين عن طريق بعض الشباب.

وكـانـت الجـمـاهيـر في كل مـناسـبـة وطنيـة واجـتـمـاعـيـة تتظاهر مطالبـة بالحرية والاستقلال وبجلاء الأسبان عن" كوبا الخضراء".

ولم تخـمـد الشـعلـة التي أوقـدهـا مـيـنيـدز ، بل حملهـا وطنيـون آخـرون من أبناء الشعب الكوبي على رأسهم الزعيم الوطني " جوزي مـارتي" الذي أعلن الثورة على الاسـتـعـمـار الإسـبـاني في أوائل عـام ١٨٩٨ ونجح. في حـشـد آلاف المواطنين في هبات لطرد الاحـتلال الإسـبـاني الذي كـان يعـاني أزمـة خـانقـة

في جميع مستعمراته اللاتينية في ذلك العهد، وكاد الشعب ينتزع استقلاله وحريته بعد معارك دامية، سقط فيها ما يقرب من ١٧ ألف قتيل وجريح، وتقديرا لاسم هذا البطل سيطلق كاسترو اسمه على الوحدة التي كان يقودها خلال الثورة الناجحة والتي طردت باتيستا من كوبا.

وكاد الاحتلال الأسباني أن يرحل من الأراضي الكوبية.تحت ضغط الانتفاضات الجماهيرية، واستجابت الحكومة الجديدة لبعض مطالب الشعب الملحة، و أن ترد بعض الأراضي التي نهبها ضباط وجنود الاحتلال لولا دور الولايات المتحدة الخبيث في كوبا.

من هو خوزيه مارتي؟

.وماذا يعني مارتي بالنسبة للكوبيين؟

يرد كاسترو في خطاب جماهيري يشرح قصة هذا البطل الكوبي العظيم قائلا:

حين لم يكن قد بلغ بعد الثمانية عشرة من العمر، أكد مارتيه في وثيقة تسمى "السجن السياسي في كوبا"، بعد تعرضه لسجن قاس وهو في السادسة عشرة، مقيداً بأغلال حديدية تكبّل قدميه: "غير أن الله موجود في فكرة الخير، التي تسهر على ولادة كل كائن، وتترك دمعة طاهرة في الروح التي يجسدها، الخير هو الله،. والدمعة هي مصدر الشعور الأبدي".

إن مارتي بالنسبة لنا نحن الكوبيون، هو فكرة الخير التي وصفها هو.

نحن الذين استأنفنا في السادس والعشرين من يوليو ١٩٥٣ الكفاح من أجل الاستقلال، وهو كفاح بدأ في العاشر من أكتوبر ١٨٦٨، في الموعد الذي

حلت فيه بالذات الذكرى المئوية لولادة مارتي، كنّا قد استقينا منه هو، قبل أي شيء، المبادئ الأخلاقية والمعنوية التي لا يمكن بدونها ولا حتى التفكير بثورة.، ومنه تلقينا كذلك الحسّ الوطني المُلهم وما لا يمكن لأحد في العالم أن يعلّمنا إياه، وهو مفهوم بالغ السموّ للشرف والكرامة الإنسانية.

كان رجلاً ما فوق العادي واستثنائياً بالفعل، تحوّل مارتي، وهو ابن رجل عسكري، وولد في عائلة أبواها إسبانيَّين، إلى نبيّ وصانع لاستقلال الأرض التي شهدت ولادته؛ مثقف وشاعر، ورغم أنه كان فتياً عندما بدأت الحرب الأولى، تمكن في وقت لاحق من كسب ودّ واحترام قادة عسكريين قدماء ومجرّبين ملأتهم تلك الحرب مجداً وعزة، كما كسب انضمامهم وطواعيتهم.

ومارتي، العاشق المتحمّس للسلام والوحدة والتآلف بين أبناء البشر، لم يتردد في تنظيم وبدء الحرب العادلة والضرورية ضد الاستعمار والعبودية والظلم،كان دمه أول دم يسيل وروحه أوّل روح توهَب كرمز لا يمحى للغيرية والعطاء الشخصي.، بعدما كان منسياً وغير معروف خلال سنوات كثيرة من قبل جزء كبير من الشعب الذي ناضل هو من أجل استقلاله، انبعثت من رماده، كطائر الفينيق، أفكارٌ خالدة جعلت شعباً برمته يخوض، بعد مرور حوالي قرن من الزمن على مصرعه، كفاحاً جباراً في مواجهة أكثر الخصوم جبروتاً عرفه بلد كبير أو صغير أبدا.

عدا عن كوبا، ماذا تلقى العالم منه؟

يقول كاسترو: أنه مثال استثنائي كمبدع وكإنسان يستحق تذكّره على

مدار القرون.

أن يتذكّره مَنْ؟ ولماذا؟

نفس الذين يكافحون اليوم ،والذين سيكافحون في الغد من أجل ذات الأحلام والآمال بإنقاذ العالم، ولأن القدر شاء بأن ترى البشرية اليوم وتعي المخاطر التي أدركها هو وحذّر منها بنظرته الثاقبة وموهبته العبقرية.

يوم لقي مصرعه، في التاسع عشر من أيار/مايو ١٨٩٥، إنما كان مارتي يقدم قرباناً لحق جميع سكان الأرض بالحياة.

من بين الأفكار الكثيرة واللامعة التي كتبها مارتي، يأتي شيء يبعث من الإعجاب قدراً يحوجني تكراره رغم خشيتي من بعث الملل: "إن حرب استقلال كوبا ،هي حدث ذو بعد إنساني كبير، وخدمة في وقتها تقدّمها البطولة الحكيمة لجزر الأنتيل لصمود الأمم الأمريكية ولمعاملتها العادلة، وكذلك للتوازن العالمي الذي ما زال مترنّحاً".

كم كان مبكّراً في كتابة هذه العبارة الأخيرة، التي تحوّلت إلى الموضوع الرئيسي لهذا العالم ،ليس هناك من أمر أكثر ضرورة وأهمية من هذا التوازن البعيد والخيالي على ما يبدو.

بعد مرور مائة وست سنوات وأربعة أشهر ويومين على كلمات خوزيه مارتي ذكر رئيس الولايات المتحدة في خطاب ألقاه في العشرين من سبتمبر ٢٠٠١ أمام كونجرس ذلك البلد العبارات التالية:

"سوف نستخدم أي سلاح حربي يستدعي الأمر استخدامه".

"لا ينبغي على البلاد أن تتوقع معركة واحدة، وإنما حملة مطوّلة، حملة لا توازيها حملة في تاريخنا".

"على كل بلد، أينما كان، أن يتخذ قراره الآن: إما هو معنا أو أنه مع الإرهاب".

"لقد طلبت من القوات المسلحة أن تكون على أهبة الاستعداد، وهناك سبب لذلك: يقترب حلول موعد تحركنا، وأنتم سوف تشعرون بالفخر".

"إن هذا الصراع هو صراع الحضارة".

"إن إنجازات عصرنا وأمل جميع العصور يعتمدان علينا".

"لا نعرف أي طريق سيسلكه هذا النزاع، ولكننا نعرف ما ستكون عليه نهايته....، نعرف أن الله ليس محايداً".

وكاد الاحتلال الأسباني أن يرحل من الأراضي الكوبية.تحت ضغط الانتفاضات الجماهيرية، واستجابت الحكومة الجديدة لبعض مطالب الشعب الملحة، و أن ترد بعض الأراضي التي نهبها ضباط وجنود الاحتلال لولا دور الولايات المتحدة الخبيث في كوبا.

المؤامرة الأميركية

فعندما اندلعت الانتفاضات، تظاهرت الولايات المتحدة بأنها تؤيد كفاح الشعب الكوبي من أجل استقلاله وحريته، أما في الحقيقة فقد كان ذلك التأييد ستاراً اتخذته الولايات المتحدة الأميركية لتحل مكان المستعمرين الأسبان.

كانت الرأسمالية الأميركية في مطلع القرن العشرين في ذروة " مجدها"

بعد تطورها إلى احتكارات كبيرة، تملك ثروات هائلة، وراحت تبحث عن بلاد جديدة لتستعمرها وتستغل رؤوس أموالها فيها.

وانطلاقاً من هذه القاعدة، قررت الولايات المتحدة الأميركية السيطرة على بلدان أميركا اللاتينية التي كانت تنتفض، وتنفجر في وجه الاستعمار الأسباني، بلداً بعد الآخر.

ولم يكن مبدأ "مونرو" القائل بأن "أميركا للأميركيين" إلا ستاراً للسيطرة على كوبا وأخواتها من الدول الواقعة تحت الاحتلال الاسباني وقد بدأت الشركات الأميركية تروج لفكرة أن كوبا تحتاج إلى تطوير فنون الزراعة بإدخال الميكنة الحديثة وتحديث الموانئ وإنشاء مصانع لتكرير السكر الذي اشتهرت به كوبا. باسم هذا الشعارات، أخذت تنسج خيوط مؤامراتها ضد كوبا، وتتحين الفرص لتنفيذها.

كيف نفذت الرأسمالية الأميركية خطتها ؟

ماشبه الليلة بالبارحة ، وكما خططت الرأسمالية الأميركية احتلال العراق ومن قبله أفغانستان، بان استغلت أحداث تفجير مركز التجارة العالمي ٢٠٠١ على يد عناصر من تنظيم القاعدة لغزو دولتين بدون أي شرعية دولية، وبدعوى امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل التي تهدد الأمن الأميركي ، فقد استغلت واشنطن حادثة وقعت في ميناء كوبي في أحد أيام عام ١٨٩٨، وعندما كان القتال لا يزال دائراً في بعض المناطق

بين الشعب الكوبي وفلول القوات الأسبانية ، حدث انفجار شديد في أحد مرافئ كوبا، دمر عدة سفن من بينها السفينة الأميركية "مان" أي " الرجل"، وربما كان هذا الانفجار مدبراً، فالتاريخ حافل بمثل هذه الأعمال. فكثيراً ما تضحي دولة مثل أميركا أو الكيان الصهيوني الذي دمر سفينة التجسس الأميركية" ليبرتي" في البحر المتوسط أثناء العدوان على مصر ١٩٦٧ ، حتى لاتكشف أساليب العدوان الإسرائيلي على مصر حيث بادرت إسرائيل بالعدوان وخالفت الوعود بأنها لن تكون البادئة بإشعال فتيل الحرب.

وقد وصف كاسترو هذه المعركة بعد سبعين سنة من وقوعها قائلا:" استولى الأميركيون على بلدنا دون أن يسمعوا رأينا،واعتبرونا متفرجين لا اختصاص لنا في معركة بينهم وبين اسبانيا".

واتخذت أميركا من حادث نسف الباخرة " مان" حجة للسيطرة على كوبا، متهمة فلول الأسبان المتبقية في كوبا والمنسحبة بتدبير حادث نسف الباخرة، وجهزت لذلك جيشاً قوياً، أرسلته إلى كوبا " لينتقم من أولئك الأسبان"!!

وبدعوى أنه "يساعد" الشعب الكوبي على طرد ما تبقى منهم.

وأطلقت على جيشها اسم "جيش التحرير".

ولم تتحرج الحكومة الأميركية ان تعلن أن "جيش تحريرها" قد ذهب لكوبا "للمحافظة" على استقلالها، وأن تصرح بأنها ضد غزو الدول الأوروبية لها، ولاتطمع في استثمار أي شبر من العالم.بل هي المدافع الأول عن حريات الشعوب ضد الاستعمار القديم، لكن واقع الحال هو أن

الرأسمالية الأميركية كانت تتحين الفرصة لدخول كوبا ، وإنشاء طبقة موالية لها، تشكل الأرضية التي يمكن عليها بناء قاعدة مصالح مرتبطة بالحبل السري في الولايات المتحدة، ولكي تحقق ذلك جاء افتعال قصة السفينة"مان" واستغلالها لغزو كوبا والمكوث عدة سنوات يتم خلالها تمهيد الأرض لاستقبال الاستعمار الجديد القادم في ورق بنكنوت ومصانع وآلات زراعية.

وهكذا دخل الجيش الأميركي كوبا لمهمة محددة ورفض مغادرتها حتى عام ١٩٠٢ حيث انسحب تحت ضغط الشعب ،بعد أن ثبتت الاحتكارات الأميركية أقدامها فسيطرت على اقتصاد كوبا، الذي خرج من نير الاحتلال بدون أي مقومات ولا مؤسسات تستطيع ملء الفراغ المترتب على انسحاب الاحتلال الاسباني.

وصارت الشركات الأميركية المهيمن على جميع مقدرات الشعب وثروات بلاده، فغدت كوبا شبه مستعمرة، ومع هذا ظلت الولايات المتحدة تعلن اعترافها باستقلال كوبا بينما تم إلحاق اقتصاد كوبا بالاقتصاد الأميركي، واستثمر رأس المال الأميركي في كوبا على نطاق واسع وقفز من ٦٠ مليون دولار في ١٩٠٦ إلى ١٤٥٠ مليونا عام ١٩٢٧ وتجاوزت الاستثمارات مليارى دولار عام ١٩٥٠غير أن اكبر مكاسب حققها الأميركيون كان في الحربين العالميين عندما احتاجت أوروبا إلى السكر الكوبي الذي احتكرته الشركات الأميركية.

وكما حصل في العراق التي كانت تشكل البوابة الشرقية للوطن العربي،

وجزءا من منظومة الأمن العربي في مواجهة الكيان الصهيوني على يد الاحتلال الأميركي الذي رتب الأوضاع كلها لاحتلال -أو بالأحرى ارتباط - طويل الأمد،فان كوبا كانت البداية للمنهج الأميركي الاستعماري الذي له قفازات حريرية.

كيف؟

لإحكام سيطرتها على البلاد قامت السلطات الأميركية في كوبا بالضغط على الجمعية التشريعية "البرلمان"، وأرغمت أعضاءها بالوعيد والتهديد على تعديل الدستور بشكل يحد من سيادة كوبا في جميع الميادين الهامة، كما يمنح أميركا الحق في إبقاء قواتها المسلحة في كوبا " لحماية حرية واستقلال البلاد". حسب زعمهم، لان شعب كوبا لم يطلب الحماية من أحد، ولم يكن يتعرض للتهديد من أحد، ولكن بنفس المنطق الحالي في احتلال الدول وتهديد دول أخرى فان أميركا قالت أن جيشها موجود في كوبا بناء على طلبها.

مبدأ مونرو

كما قالت الثائرة الفرنسية جان دارك " أيتها الحرية كم من الجرائم ترتكب باسمك" ثمة جرائم ارتكبت باسم مبدأ مونرو

فما هو هذا المبدأ؟

هو عبارة عن بيان أصدره الرئيس الأميركي مونرو١٨٣٣، ،حدد فيه مبادئ سياسة الولايات المتحدة الخارجية.

وأهم المبادئ التي تضمنها هذا البيان هو أنه ليس للدول الأوربية الحق في أن تتدخل في شؤون القارة الأميركية، كما تتعهد الولايات المتحدة الأميركية بالا تتدخل في شؤون القارة الأوروبية.

ومن الواضح أن البيان صدر حين كانت الولايات المتحدة الأميركية ، تعمل لتوطيد استقلالها والحصول على حريتها، وبالتالي كانت تناصر كل شعب يطمح إلى التحرر، لأن حرية الشعوب في ذلك الحين كانت تمثل ضمانة لها ضد أعتداء الأوروبيين في ذلك الحين وهم بريطانيا وفرنسا وأسبانيا والبرتغال.. وغيرها من الدول الأوروبية التي كانت تمثل الاستعمار العالمي في ذلك الحين.

هذا البيان كان قمة التقدمية في حينه، ومونرو لم يضعه لأغراض استعمارية ،ولكن ما أن تطورت أو تقدمت الولايات المتحدة، حتى تحولت إلى دولة تسيطر على سياستها الاحتكارات الرأسمالية حتى قلبت هذا المبدأ راساً على عقب.

وكان لافتا أن بعض المنظرين فسروا شعار " أميركا للأمريكيين" بمعنى أن "أميركا اللاتينية أيضا ملك للولايات المتحدة"، وقد عبر عن هذا المفهوم الخاطئ " لمبدأ مونرو" أولني، ناظر خارجية الولايات المتحدة في عام١٨٩٥الذي اعتبر أن كل أميركا ملكا للأميركيين، كما أعلن الرئيس الأميركي تيود روزفلت في عام ١٩٤٤ " يحق للولايات المتحدة الأميركية أن تتدخل في الشؤون الداخلية لبلدان أميركا اللاتينية" وأضاف" إن الحفاظ على امن أميركا قد يستلزم التدخل بقواتنا في بعض دول القارة اللاتينية"

وفي ضوء هذه التصريحات، قامت الإدارة بالتدخل في شؤون بعض دول أميركا اللاتينية:كوبا، المكسيك، وهاييتي، و بنما، والدومينيكان، ونيكارجوا، وبنما.. وغيرها.

وبذلك انقلب مبدأ مونرو رأسا على عقب، وصار عنوانا للنهب والاستعمار بدلا من كونه راية للحرية، الأمر الذي دفع.كاسترو إلى القول :

" أن تمسك أميركا بإعلان مبدأ " مونرو " في الوقت الحاضر يشكل إهانة لشعوب أميركا اللاتينية، وأننا نعلن أن مبدأنا الحرية لشعوب أميركا اللاتينية جميعها".

أهداف السيطرة الأميركية على كوبا

"حسنا

في مقهى المرفأ

بحار أميركي

تجرأ ورفع على يده، ولكنه لذلك لاقى الموت

البحار الأميركي

الذي في مقهى المرفأ

تجرأ ورفع على يده

حسنا"

هذه أبيات للشاعر جويلين يوضح فيها وقاحة البحار الأميركي الذي تعود إهانة الشعوب مع أنه على الأرض غاصب، ولعل السؤال هنا هو : لماذا الإصرار الأميركي على احتلال كوبا أو محاصرتها قبل الثورة وبعدها، إذ

يخطئ من يظن أن الأطماع الأميركية في كوبا حديثة العهد أو ارتبطت بالنظام الثوري لفيدل كاسترو ، الأمر أبعد من ذلك بكثير.

لموقعها الاستراتيجي سيطر الأميركيون على كوبا حتى يمكن استعمالها نقطة انطلاق للسيطرة على سائر بلدان أميركا اللاتينية التي كانت خاضعة للاحتلال الاسباني، واستبدال الاستعمار القديم بآخر حديث يعتمد على التغلغل الاقتصادي وليس الوجود الاستيطاني،وكذلك الاستفادة من:

(١) خصوبة الأرض الزراعية الكوبية التي لم تستهلك في الزراعة من قبل وتتوفر فيها مصادر مياه طبيعية إضافة إلى الإمكانات السياحية الساحرة، والتي قلما توجد في أي بلد آخر ويعزز ذلك توفر الأيد عاملة رخيصة الأجور.

(٢) توظيف الثروات المعدنية الموجودة في باطن الأراضي الكوبية، والتي لم يستثمرها أحد وأهمها: الحديد، والذهب، والمانجنيز، النحاس، النيكل، الزئبق، والأوبالت وغيرها.

(٣) الأرباح الهائلة التي يمكن أن يجنوها من قصب السكر والتبغ والفواكه الأخرى،لاسيما مع ندرة المصانع الكوبية فقد حرص الاستعمار الاسباني على بقاء كوبا سوقا لمنتجاته وهو ما حرص عليه الأميركيون الذين ظنوا أنفسهم ورثة للاستعمار الاسباني ، من هنا عمل الاستعمار الجديد على قمع أي صوت يكشف مخططاتهم، لأنه ليس من مصلحة أميركا وجود دولة مستقلة كوبية في القارة اللاتينية حيث ستكون حافزاً

وسنداً لجميع شعوب أميركا اللاتينية في نظامها ضد الاستعمار وفي بناء دولة حرة سياسيا واقتصاديا.

وقد حدث صدام بين الرأسمالية الوطنية و الاحتكارات الأميركية على اقتصاد كوبا، حيث سعت الرأسمالية الوطنية الكوبية لإقامة نظام اقتصادي متحرر من الإقطاعية ومزاحم للاقتصاد الأجنبي، وذلك بإنشاء صناعة وطنية تكفي حاجة البلاد وتقضي على التخلف الاقتصادي في كوبا.

ولكن جميع محاولاتها باءت بالفشل، لأن نفوذ الاحتكارات كان طاغياً،إذ كانت تحقق أهدافها عن طريق التهديد بعدم شراء السكر الكوبي واستعمال مختلف أساليب الضغط لإشاعة الفرقة بين رموز الرأسمالية الكوبية.

وقد احتكرت الشركات الأميركية الكبرى محصول قصب السكر من الكوبيين عندما وقعت عقودا مع المزارعين الكبار، وقسمتها إلى إقطاعيات كبيرة، تضم كل مزرعة مئات الأفدنة، وذلك ليسهل عليها إداراتها.

وتقدر مساحة الأراضي التي سيطرت عليها هذه الشركات بمليون فدان.

وبذل أصحاب المصالح الأميركية كل جهودهم من أجل إبقاء كوبا مجرد مزرعة لقصب السكر، لأنهم يشترونه بأسعار زهيدة، وفي الوقت ذاته. يصدرون المواد المصنعة إلى كوبا بأسعار باهظة.

وكان الكو بيون يقبضون ملايين الدولارات من أميركا ثمن قصب السكر، ولكن هذه الملايين ترجع بسرعة إلى أميركا نفسها، ويبقى الشعب الكوبي في فقر شديد. وكانت الشركات الأميركية تغري الفلاحين الكوبيين لكي

يقترضوا مبالغ بضمان الأرض، وظلت الديون تتراكم على الفلاحين والمزارعين وسكان المدن، حتى اضطروا إلى التنازل تدريجيا عن الأرض التي كانوا يملكون بل أن الدولة الكوبية نفسها لم تنج من هذا المصير.

وضمانا لاستمرار سيطرة الشركات الأميركية الكبرى على المزارع الكوبية، قضت أميركا على ابسط الحريات الديمقراطية، فاضطهدت مجموع الشعب، وأقامت حكماً بوليسيّاً رهيباً.

وألغت الحكومة الأميركية كل المنظمات الديمقراطية والأحزاب، وحتى الجمعيات الخيرية والاجتماعية لأنها لا تريد أي تهديد لمصالح الشركات الاحتكارية الأميركية.

وفي قصيدة يصف فيها الشاعر والمناضل الكوبي جويلين، كيف أن حياة الشعب لم تتغير، فقد استبدل بالاستعمار الأسباني سيطرة أميركية أشد قسوة واستغلالا، فيقول :

الأرض التي أعطيت لنا
البارحة
كانت أسبانية
واليوم هي أرض اليانكي
الأرض التي أعطيت لنا
البائس الكوبي وجدها في كل مرة
أسبانية البارحة
واليوم هي أرض اليانكي

انتفاضة الزنوج

بدأ استيراد الزنوج وترحيلهم إلى كوبا قبل استيرادهم إلى أميركا الشمالية، وقد أعطى شارل الخامس في عام ١٥١٧ للتجار حق شحن الأفارقة إلى جزر الانتيل -وكوبا هي كبرى جزر الانتيل في البحر الكاريبي- واستقبلت كوبا اكبر عدد من زنوج أفريقيا الذين ساهموا في اعمارها بعد أن قتل وشرد الاستعمار أهلها ، والزنوج هم من قطع الأشجار لتمهيد وتعبيد الطرق وهم من زرعوا قصب السكر، وبنوا المدن الحديثة ومدوا خطوط السكك الحديدية،وأصبحت هافانا مركز التجارة في العالم الجديد حيث فضة المكسيك وذهب هندوراس كما اصبحت اكبر سوق لتجارة الرقيق في العالم ، واكتشف البريطانيون والفرنسيون أن الكعكة الدولية موجودة في كوبا ، فشنوا الغزوة تلو الأخرى في محاولة لخطفها من فم الذئب الاسباني ،وقد هاجمها الفرنسيون بأسطول بحري ١٥٤٤ لكن الهجوم فشل ، وجاء البريطانيون لكن الحملة فشلت ، وتكررت الحملات العسكرية البريطانية وكان أخطرها عام١٧٦٢حيث نجح البريطانيون في احتلال كوبا لمدة عام عادت بعدها السيطرة الاسبانية .

كان صعبا استمرار الأوضاع في كوبا، فقد ازدادت أحوال الزنوج الفلاحين تدهورا وارتفعت أسعار السلع، ولم يعد الفلاحون قادرين على مواصلة رحلة الحياة المرهقة ، وتوالت الانتفاضات الفلاحية وكان في طليعتها انتفاضة الزنوج في كوبا عا م١٨١٢، و كان قائدها خوسيه انطونيو ابونتي الذي طالب

بدستور يساوي بين السادة والعبيد ويدعو إلى عقاب ملاك العبيد وتجار الرقيق غير أن الثورة فشلت وتم شنق جميع قادتها.

وسوف يبرز في تاريخ النضال الكوبي عدة قيادات سجلت بحروف من نور اسمها، منهم كارلوس مانويل وهو محام قاد في ١٨٦٨ حركة مدهشة إذ أعلن تحرير العبيد الذين يملكهم في مصنع سكر، وأعلن طلب الاستقلال عن اسبانيا أو الموت على طريقة" الاستقلال التام أو الموت الزؤام"،واستمر كارلوس يدافع عن فكرته ويحشد حولها الناس لمدة عشرة أعوام لكن الإقطاعيين شكلوا ميلشيات لقمع حركته وقد انتفض معه طلاب الجامعة ووقعت مواجهات مع جنود الاحتلال أسفرت عن مصرع ثمانية طلاب في كلية طب هافانا ، وأقيم لهم نصبا تذكاريا يشهد على تلاحم الطلاب مع الحركة الوطنية.

وإذا كانت حركة كارلوس لم تحقق نهاية الاحتلال فإنها حققت نهاية للعبودية ونظام الرق وفتحت المجال أمام الفقراء الذين هبوا في سلسلة تظاهرات ضد الحكومة المتعاونة مع الشركات الأميركية جبارة ولكنها انتفاضات عفوية افتقرت إلى التنظيم، لذلك استطاعت الحكومة الرجعية الكوبية أن تقمعها بشدة، كما اتخذت منها ذريعة لفرض إجراءات جديدة لقمع أي تحركات شعبية.

خوزيه مارتي أبو الثوار

احتل المناضل خوزيه مارتي مرتبة مهمة في تاريخ الثوار ليس في كوبا

وحدها وإنما في القارة كلها،حتى لقبه المؤرخون بابي الثوار ، وهو من مواليد هافانا العاصمة، ١٨٥٣وهو أول من تنبأ بالأطماع الأميركية التي تجسدها الاحتكارات ،وقد حكم عليه بالأشغال الشاقة وهو في السابعة عشرة من عمره، وفي السجن بدا أكثر خطورة لان أفكاره انتشرت بين المساجين والزوار، واهم ميزاته انه ربط بين طرد الاحتلال والحرية الاقتصادية للشعب، وقد نفاه الاحتلال فإذا به يؤسس حزبا ثوريا في المنفى ويضم اثنين من المناضلين الأشاوس هما انطونيو ماسيو ومونكادا زعيم الفلاحين الذين أطلقوا اسمه على إحدى القلاع ، ووقع اشتباك بين الثوار وجيش الاحتلال المدجج بالسلاح انتهى باستشهاد جوزيه مارتي الذي تحولت دماؤه إلى بساط احمر للثورات القادمة التي استلهمت سيرة ومسيرة هذا البطل.

واستجمعت القوى في كوبا قواها، و نظمت انتفاضة بقيادة تحالف وطني واسع يمثل مختلف تيارات و فئات وطبقات الشعب السياسية والاجتماعية وحققت نتائج متميزة، حيث استولى الثوار فيها على قسم كبير من البلاد، واختفت القوات الحكومية، وهرب عدد من كبار الرأسماليين المحليين والأجانب ،فاستنجدت جميع القوى المعادية للثورة بالحكومة الأميركية التي أرسلت جيشاً مزودا بأحدث الأسلحة، بقيادة الجنرال كرودر، الذي تمكن من القضاء على الحركة الثورية بعد قتال مرير استعملت فيه القوات الأميركية سلاح المدفعية في حين أبدى الثوار مقاومة بطولية.

ومثلما فعل الجنرال بريمر الذي عينته واشنطن حاكما عسكريا على

العراق بعد الغزو ٢٠٠٣ فقد نصبت واشنطن كرودر دكتاتوراً عسكريا على كوبا مدة خمس سنوات فرض خلالها الأحكام العرفية ووضع قوانينا مقيدة للحريات واعتقل مالايقل عن ٢٠الفا من عامة الشعب بدعوى مناهضة الحكومة لكنه اجبر في نهاية المطاف إلى سحب قواته ومغادرة كوبا ،لكن ذلك لم يكن نهاية المطاف،فقد دعمت الإدارة الأميركية حاكما كوبيا متعاونا معها،ومنحته المال وأساليب التجسس على المعارضة وخصصت له المستشارين فأقام ما يعرف في تاريخ كوبا ."بدكتاتورية ماخادو"وذلك في عام ١٩٢٥ ، فقد شن روجيرو ماخادوالحاكم الجديد حملة إرهاب واسعة النطاق ضد المعارضة والقوى الحديثة في كوبا وتمتع هذا النظام بلقب" أشرس دكتاتورية في أميركا اللاتينية " حيث مارس ماخادو عمليات تصفية جسدية عبر فرق الموت ضد مختلف العناصر الوطنية، وخاصة ضد قادة الأحزاب الوطنية والنقابات العمالية والمهنية واتحادات الطلاب وجماهير العمال والفلاحين، واكتظت السجون في عهده بالوطنيين في حين كانت الاحتكارات الأميركية تنهب ثروات المعادن وخيرات الحقول وتحول عائداتها إلى الولايات المتحدة.

عصابات المافيا

في الوقت الذي كانت عصابات المافيا الأميركية تسيطر على مدن نيويورك وشيكاغو وتتحرك في الساحة الأوروبية،وتجني ملايين الدولارات قامت بنقل نشاطها إلى كوبا ومعها كل الامراض الاجتماعية من خلال

صالات القمار الى بيوت الليل وتجارة الرقيق الأبيض وإنشاء مصنع لإنتاج الخمور في الوقت الذي منعت فيه الحكومة الأميركية إنشاءه، وقد ربحت المافيا ملايين الدولارات جراء تهريب الخمور إلى الشواطئ الأميركية.

وفي المنطقة الشرقية التي هي موطن الثورات كان ربع مليون فلاح يعملون في أراض تملكها شركتان أميركيتان هما شركة الهند الغربية وشركة الفواكه المتحدة ولا يملك فلاح كوبي أي ارض في هذه المقاطعة التي يتحكم فيها بشكل قاطع أصحاب الاحتكارات الأميركية الذين يصدرون السكر من كوبا ويستوردون الفواكه من كاليفورنيا رغم أن الفواكه الكوبية أفضل لكن الاحتكارات منعت الكوبيين من زراعة الفاكهة حتى تظل الفواكه الأميركية هي الموجودة في الأسواق.

و انتفض الشعب الكوبي من جديد في عام ١٩٣٣ وكانت انتفاضة مسلحة وقد بدا واضحا أن الثوار استفادوا من أخطائهم السابقة في التعامل مع قوات الدكتاتور ماخادو، ولذلك نجحوا في الإطاحة بالنظام ورجاله ،ولكن شلال المال الأميركي وعملاء الاحتكارات والرجعية في الداخل استطاعوا أن يفرضوا على كوبا -في نهاية الأمر- دكتاتوراً جديداً يدعى "فلو جنسيه باتيستا" لايقل شراسة ولا عمالة وتبعية للإدارة الأميركية وشبكاتها الاقتصادية عن ماخادو وهذا في الواقع جوهر السياسة الأميركية الخارجية حيث تعمل على استبدال الوجوه "المحروقة" جماهيريا بوجوه جديدة في الشكل لكنها في المضمون تعكس نفس السياسات والمصالح،وهذا ما يرصده الشاعرجويلين:

" أيها القادة الخونة

انظروا إلى بيتي المتهدم

والى كوبا الجريحة

من كل منزل متهدم يخرج لكم سيف بتار

بدلا من باقات الزهور

ومن كل طفل يموت من الجوع

يخرج بندقية لها عينان

ومن الجرح

يخرج الملح والسكر".

و أدركت النخبة الوطنية أن شيئا لم يتغير، واكتشفوا قانون التدخل الأميركي، فكلما انفضح عميل لهم استبدلوه بعميل آخر كنوع من التغيير الشكلي ليس أكثر..

ومن هنا استقبل الشعب الكوبي هذا الدكتاتور الجديد باللغة المناسبة حيث اندلعت التظاهرات والمسيرات والاعتصامات في تعبير واضح عن رفض لهذا الحاكم الذي فرضته واشنطن ولم ينتخبه الشعب ، ورد الحاكم باتيستا بكل عنف وشراسة لكي يثبت للاحتكارات الأجنبية قدرته على حماية مصالحها واستمرار أنابيب النهب تعمل بأقصى طاقتها في استنزاف ثروة كوبا خاصة في مجال المعادن له، واللافت أن باتيستا تمادى في الإرهاب حتى تفوق على سلفه الدكتاتور السابق ماخادو.

هروب باتيستا

لم تهدأ حركة الجماهير في إعلان رفضها سياسة باتيستا ، ووقعت انتفاضات شعبية شارك فيها الآلاف، وامتدت لتشمل مختلف أنحاء كوبا وليس العاصمة فقط الأمر الذي دفع باتيستا إلى الهروب من البلاد ولجا إلى الأحضان الدافئة في واشنطن من أجل تهدئة الشعب فترة من الزمن، لأن الوضع السياسي والاقتصادي في كوبا أصبح لا يطاق وقد تدهورت الأوضاع الاقتصادية بصورة غير مسبوقة وأصبح الشعب كله بما في ذلك الرأسمالية الوطنية في جانب وزمرة النظام الحاكم وأعوانه من عملاء الاستعمار في جانب آخر .

وفي خلال شهور قليلة خسرت الشركات الأميركية العاملة في كوبا ملايين الدولارات بسبب الهبة الشعبية ضد عملاء الشركات الاحتكارية التي رفضت الخضوع لإرادة الجماهير في الاستغناء عن خدمات عميلها المطرود باتيستا، فضغطت على الحكومة الأميركية التي لم توفر وسيلة إلا وسخرتها من أجل إعادة باتيستا إلى سدة الحكم في هافانا

ومهدت الطريق لذلك بأساليبها المختلفة التي تتبعها في مثل هذا الحال، حتى ضمنت تنصيبه رئيساً للجمهورية في عام١٩٥٢ حافظة لنفسها الفضل في إعادته إلى السلطة ،وحق طلب الفاتورة في أي وقت وبالشكل الذي تريده.

- **لماذا فشلت الثورات ؟**

يقول الشاعر النبيل بابلونيرودا:

"مهيب هو نصر الشعوب

تحت وقع خطاه

تتلألأ في أعماق الأرض،البطاطا العمياء

والعنب السماوي

وتتألق فوق الأرض

الجراح والصمت والمعادن

ياشعبا بمعنى الوطن

انتبه حتى لايمزق الأعداء رايتك مثل صدرك

فالجرح جرحك والأرض أرضك

والصدر صدرك"

نضال الشعوب وصولا إلى الحرية هو سلسلة من الانتفاضات والثورات تتراكم على صدر الأم، كوبا الجميلة، وظل الشعب يناضل بكل الأشكال ضد الاحتلالين الأسباني والأميركي الأول في صورة احتلال عسكري بغيض والثاني احتلال اقتصادي أبغض لأنه يمسك بالشعب من بطنه وقوت يومه ومعروف أن قطع الأرزاق أصعب من قطع الأعناق. وقدم الشعب الكوبي آلاف الضحايا بين شهيد وجريح خلال عشرات الانتفاضات والهبات والثورات المسلحة ،ولكن مصيرها كان الفشل ،ولم يتمكن الشعب من تحقيق غايته المنشودة ألا وهي الاستقلال السياسي والاقتصادي، ولعل ابرز أسباب الفشل هي:.

١- تدخل الاحتكارات الأميركية لقمع الانتفاضات وحث السلطة على اتخاذ كافة التدابير لمنع الثوار من تحقيق الهدف وإن استلزم ذلك إطلاق النار على المتظاهرين ، وقد عثرت الثورة الناجحة بقيادة كاسترو على وثائق

تثبت تورط الاستخبارات الأميركية في قمع التظاهرات وتدخل رجال الأعمال الأميركيين للحفاظ على أنابيب النهب السرية لثروات البلاد والاستفادة من ارتباط مصالح تلك الشركات بمصالح كبار الإقطاعيين وبعض رجال الدين والمرتزقة في كوبا.

٢- سيطرة المرتزقة الأجانب منذ أيام الاحتلال الاسباني على الجيش والمؤسسات الأمنية، وتشكيل فرق الموت لإرهاب العناصر الثورية وترويج الشائعات في أوساط العمال لترهيبهم بحيث لايشاركون في الانتفاضات وقد تحول الجيش إلى أداة لحماية مصالح الاحتكارات الأميركية.

٣- توفير منظومة من القوانين الاستثنائية المعطلة للحريات والتي ساهمت في خنق النشاط النقابي والعمالي ، فضلا عن التجسس على الأحزاب والمنظمات الوطنية ونفي القيادات الفاعلة على المسرح السياسي مثلما حدث مع كاسترو وأخيه ورفاقه بعد الهجوم على قلعة مونكادا .

٤- عدم امتلاك القائمين على هذه الثورات الشعبية لخبرة التنظيم وإدارة العمل السري بحيث لايكتشفه الاحتلال وأعوانه.

ورغم ذلك لايسع المحلل المحايد إلا القول أن نجاح ثورة الشعب بقيادة كاسترو لم يأت من فراغ بل هو محصلة تراكم النضال الشعبي بكل الأساليب،سواء التظاهرات السلمية أو العمليات المسلحة، التي شكلت مخاضا لأمة تنتظر الفارس المخلص الذي يأتي ليعبر عن نضوج الظرف التاريخي لانطلاقة ثورة تقتلع الاستعمار والاستبداد والاستغلال من جذوره، وهذا ما تحقق على يد الثائر كاسترو ورفاقه وجماهيره.

الفصل الثالث

من هو كاسترو؟

قديس أحمر يشعل القنديل ويمشي

(السجن هو الحياة، هو المدرسة التي يتعلم فيها الإنسان كيف يفك طلاسم المشكلات وكيف يتعايش مع القهر وكيف يصادق الموت، لقد دخلت السجن بسبب قضية سياسية لكنني وجدت كوبا هنا داخل السجن مسجونة، رأيت الوجوه الحقيقية للناس، وشاهدت ما رسمه الظلم والجلاد على جسد الفلاحين الفقراء الذين لم يتمكنوا من دفع إيجار الأرض للإقطاعي ولادفع الرسوم والضرائب الباهظة للحكومة بسبب ضيق ذات اليد فقررت أن أكون ثوريا، وفكرت كثيرا وتناقشت مع رفاقي قبل أن أقرر أن كوبا لن تتحرر بالخطب ولا التظاهرات ولا عن طريق البرلمان، بل بالبندقية والمدفع ، ولم يكن معي إلا شقيقي راؤول وحفنة من زملاء المعتقل الذين أدركوا أن الثورة هي أنبل صور التمرد)

هذه العبارات التي وردت في إحدى خطبه تكشف إلى حد بعيد أن فيدل كاسترو لم يخطط إطلاقا للقيام بثورة، ولاتربى في أحضان أفكار ثورية، ولم يدخل منظمة ثورية حتى صار شابا يافعا في الجامعة، وكل ماجرى حتى قيام الثورة كان بفعل الصدفة، أو هو من تدبير القدر الذي يرسم الأيام والخطوات، فقد كان يمكن أن يعيش هانئا كمحام متفوق

في عمله، وأن يقع في غرام امرأة جميلة، ويرتبط بها وينجب أولادا ويمضي في الحياة بدون منغصات ، لكن القدر كان له رأي آخر.

في ١٣ أغسطس ١٩٢٧ رأت عيناه نور الحياة في مزرعة" بانكار" الواقعة في ضاحية مدينة "بيران"والتابعة لقضاء "مياري" أمه أصلها لبناني وجده اسكندر روز أو روس كان تاجرا حرا عاش في بيروت وتجول في مصر والعراق قبل لن يرحل إلى كوبا وولد شقيقه راؤول بعده بأربعة أعوام، والتحق بالمدرسة الابتدائية في دولر في سنيتا جو رغم أن الأولاد أقرانه كانوا لايلتحقون بالمدارس الخاصة، والتي تستلزم دفع مصاريف كبيرة مقارنة بمستوى الدخل ولكن والده أنجلو كان يملك مزرعة للقصب في المقاطعة الشرقية، وهي مزرعة انتزعها من قلب الغابة بعرقه ، وبالتالي كان الأب ميسورا فدفع ابنه إلى دراسة عالية المستوى على أيدي الآباء اليسوعيين، الذين زرعوا فيه حب قراءة التاريخ، وعلموه أن السيد المسيح جاء إلى الناس بثورة تبدل أفكارهم وتنقلهم من الظلمات إلى النور.

وكان كاسترو يعلق على صدره سلسلة ذهبية عليها صورة لمريم العذراء، وكان يحرص على الطقوس الدينية، وقد تزوج في الكنيسة ويقال إنه تأثر كثيرا لما طلبت زوجته الطلاق وهو في غياهب السجن بسبب مواقفه الثورية.

وعشق كاسترو في صباه هواية تربية ديوك المعارك، وهي رياضة لاتينية منتشرة على نطاق واسع في إيطاليا وإسبانيا وانتقلت إلى

أميركا اللاتينية، لكنه كرهها بعد أن عرف أن هذه الرياضة تقوم على الجوع والعنف وفق نظرية أن الديك الجائع يمكن أن ينتصر على الديك الآخر.

وثمة روايات تقول إن أمه لبنانية من طرابلس، وإن جده إسكندر روز عاش في بيروت ثم القاهرة وبعدها هاجر إلى أميركا اللاتينية،وما يعزز هذه الرواية هو وجود عائلة عريقة باسم الروز في طرابلس، وعندما قام كاسترو بثورته اصطفت أسرة الروز في طرابلس أمام عدسات الصحفيين باعتبارهم من عائلة الثائر الكوبي الكبير

محاولة انقلاب في الدومينكان

وبدا فيدل طالبا مجدا في دراسته بفعل تشجيع والدته التي ظلت حريصة على تعليم أولادها في أفضل المدارس، فيما كان الأب الفلاح مشغولا بتدبير إدارة مزرعته الصغيرة وتوفير لقمة العيش واحتياجات أولاده.

وظهرت مواهب كاسترو مبكرا من خلال نشاطاته في الصحافة المدرسية وكتابة الأشعار وكذلك حفظ قصائد من التراث الكوبي ، ستشكل رصيده اللغوي في الأيام الآتية.، وعندما يكشف القدر عما يخبئه من أسرار.

وفي عام ١٩٣٤ جاء إلى العاصمة " هافانا" كفلاح هبط إلى المدينة ، كان يمكن أن تخطفه أضواء المدينة وتسرقه فراشات الليل كأي مراهق

في تلك الأيام، لكنه راح يتابع دراسته الثانوية في مدرسة " بيلين" بكل دأب ونشاط وجدية، وسعى إلى تكوين صداقات مع الطلاب، خاصة الناشطين في الرياضة، وعلى الأخص رياضة كمال الأجسام والسرعة واللياقة البدنية، واهتم بقراءة التاريخ وبخاصة التاريخ الكوبي ومطالعة مؤلفات الكتاب التقدميين.

والى جامعة كوبا الوطنية انتسب الشاب في كلية الحقوق ١٩٤٥ ملبيا رغبة والده الذي كان يتمنى أن يكون ابنه محاميا ناجحا، وكانت الحرب العالمية الثانية تضع أوزارها عندما انتخب كاسترو سكرتيرا عاما لطلاب الجامعة بأغلبية الأصوات.. ، وبات مسؤولا عن تطبيق برنامج اتحاد الطلاب وتفعيل الحركة الطلابية التي لها تاريخ في الحركة الوطنية والديمقراطية في كوبا.

كان كاسترو عاشقا للعدالة تسيطر عليه روح رومانسية بضرورة مواجهة الظلم في أي مكان، بدليل أنه وهو بعد طالب اشترك في محاولة لقلب نظام الحكم في الدومنيكان، وعند العودة تحرش بهم أسطول الديكتاتور باتيستا وأطلق النار على الزورق لكن كاسترو نجا من الغرق ليجد نفسه بين أيدي الجنود ، ويقال إن باتيستا أصدر أمرا بإعدام جميع الذين شاركوا في محاولة الإطاحة بصديقه "تروهيو" حاكم الدومينكان غير أن بعض رجال الدين تدخلوا لإقناع باتيستا بأن كاسترو ورفاقه من المغامرين المراهقين، فأفرج عنهم.

وفي ١٩٤٧ قاد أول تظاهرة ضد نظام الديكتاتور باتيستا ، وشارك فيها

مئات الطلاب، وكانت في إحدى المقاطعات ، لكن التظاهرة فشلت لأنها لم تنجح في استقطاب المواطنين إلى صفوفها، وهنا بدأت حركة وعي جديدة في ذهن الطالب كاسترو وتمثلت في صيغة سؤال: كيف يمكن أن نحشد المواطنين خلف شعاراتنا ، والى أي مدى نعبر نحن عن هموم الناس؟

للإجابة على السؤال المركب لجا إلى عدة أساليب أهمها:

(١) انكب على دراسة الكتب السياسية والاقتصادية خاصة ما يتعلق بالحركة الوطنية وأحزابها وتياراتها وأساليب السلطة للالتفاف على مطالب الجماهير، والقيام بزيارات ميدانية إلى رموز المعارضة في البلاد والاستماع إلى حصاد خبراتهم في المجال الوطني.

(٢)معرفة تاريخ النضال في أميركا اللاتينية، لذلك قام برحلة مع اثنين من أصدقائه، وزاروا بنما والمكسيك والتقوا المواطنين والسياسيين والإعلاميين، ودون في مفكرته الشخصية انطباعاته عن العوامل المشتركة بين أبناء القارة.

(٣) تحقيق الاستقرار الإنساني سواء من خلال الزواج ، فقد تزوج في ١٢ نوفمبر ١٩٤٨رغم انه كان لايزال طالبا في الجامعة،وبعدها بعام تخرج من الجامعة وفي عام ١٩٥٠ حصل على ليسانس الحقوق ثم حصل على دراسات عليا ودكتوراه في العلوم الاجتماعية والعلاقات الدولية وهذا التحصيل الأكاديمي كان يؤهله لمهمة تاريخية، وبدا رحلته العملية بالتدريب على مهنة المحاماة في هافانا، وفي هذه الأثناء بدا يبرز اسمه كمحام وطني يدافع عن صغار الفلاحين والعمال مقابل أجر زهيد، مما أكسبه خبرة هائلة

في معرفة تفاصيل الواقع، واكتساب علاقات مهمة مع المهنيين أمثاله والفلاحين الذين كان يدافع عنهم ، وكان كاسترو حريصا على تحويل المحاكمات إلى مناظرات سياسية يكيل خلالها الاتهامات إلى النظام الحاكم باعتباره المسؤول عن هموم المواطنين ومعاناتهم .

ولفتت شجاعته زملاءه الذين انتبهوا إلى أن كاسترو كان يستخدم لغة تحريضية في انتقاد النظام ويصفه بالنظام الفاسد، الأمر الذي جعل عشرات المثقفين يلتفون حوله، كما حرص على زيارة الفلاحين في حقولهم، والعمال في أكواخهم يشرح لهم حقيقة الطبقة التي تسرق عرقهم، وتنهب ثرواتهم وتحتكر الثروة والقرار وتمنع المعارضة من كشف بؤر الفساد.

وفي عام ١٩٥٠اندلعت انتفاضة طلابية ضد ديكتاتورية "باتيستا"، وشارك فيها ١٠٠ الف طالب ، ما دفع الشرطة إلى الرد بوحشية، واستخدمت الرصاص الحي، ما أسفر عن مصرع وجرح عدد من الطلاب، واعتقال المئات ، وهذا الحادث زاد من غليان البركان الثوري في أوساط الكوبيين ،وصار الحديث علانية حول ضرورة التغيير الشامل، وان أسلوب الإصلاح لم يعد ممكنا على أي نحو، فقد بلغ الاستبداد مداه.

كوبا في انتظار البطل

وهكذا صارت البلاد في حاجة إلى البطل الذي يخلصها من الفساد، والاستغلال والقهر، بطل من طراز خوزيه مارتي يحمل قدره على كفه، وفي دروب الثورة يمشي، وكان القدر كان يعد هذا الشاب للمهمة

الصعبة، الذي بادر إلى تأسيس خلايا سرية خلال جولاته في القرى، خاصة في المناطق الشرقية التي لها تراث كبير في الانتفاضات الشعبية،لان جوا من الإرهاب البربري كان وقتئذ يسيطر على البلاد، وكانت السلطة لاتتورع عن تصفية أي معارض لها، وزجت في السجون بآلاف الشباب من كافة التيارات السياسية ، خاصة عندما شعرت السلطة أنها معزولة عن الجماهير.

وربما كان الاجتماع السري الذي عقده كاسترو في ١٠ مارس١٩٥٢وشارك فيه العشرات من الشباب هو الاجتماع التحضيري لانطلاقة الثورة الشعبية لتحرير كوبا من سيطرة اليانكي، وأقسم المشاركون على خوض غمار المعركة مهما كانت التضحيات حتى تحقيق النصر، وتقرر نشر الوعي الثوري في كل المدن الكوبية وليس التركيز على هافانا فقط، خاصة أن أجهزة امن النظام المستبد كانت تراقب الجامعات والاتحادات العمالية والنقابية وتعتقل كل من تعتقد أنه يعارضها، حيث يتعرض إلى تعذيب بشع ليس هو وحده وإنما أفراد أسرته أيضا بغرض إرهابه فلا يعود إلى المعارضة إطلاقا.

وبدأت خطة نشر أفكار الثورة في القرى والمدن من خلال عناصر الخلايا لأن الفلاحين البسطاء كانوا لايستطيعون قراءة المنشورات التي جري توزيعها على نطاق واسع في المؤسسات التي يتواجد فيها مثقفون لكن السلطة الغاشمة راحت تتابع هذه المنشورات وتلقي القبض على من تضبط معه ، وألقت في السجون بآلاف الشباب الأمر الذي دفع

كاسترو إلى التفكير في نمط آخر، من النضال هو الكفاح المسلح.

الهجوم على قلعة مونكادا

وفي صباح ٢٦يوليو١٩٥٣قام فيدل كاسترو وعدد من رفاقه البواسل بالهجوم على قلعة " مونكادا" في مدينة"سالنتياجو"، وكان معه شقيقه راؤول وابيل سنتا مارينا وبيدروميريت والبيدوسوساوريناكو كوي تارك وجوايز مونتان وجوزيه تازاند وفيرناندو تشينا رد واوسيكار الكالد وبيد رو. تازاند ... وغيرهم.

كان الهدف من الهجوم هو الحصول على الأسلحة الأميركية الموجودة داخل القلعة لتحقيق أمرين:

أولا: توصيل رسالة إلى الطغمة الحاكمة بأن معسكراتها المنتشرة في البلاد ستكون عرضة لهجمات الشعب الغاضب، وأن اختفاء باتيستا وراء ترسانة عسكرية وأمنية لن تحميه من غضبة الشعب، وأن معسكراته صارت في مرمى نيران القوى الشعبية.

ثانيا: الاستيلاء على كميات من الأسلحة والذخائر وتوزيعها على المواطنين الراغبين في المشاركة في الثورة، خاصة أن عدد المتطوعين ارتفع وليس هناك أسلحة يستخدمونها في مواجهة القوات النظامية الموالية للحكم.

لكن الهجوم فشل، فالقلعة كانت محصنة بشكل كبير، ومزودة بعدد هائل من الضباط والجنود وانتهت العملية باستشهاد بعض الشباب

الثوريين واعتقال فيدل وراؤول كاسترو ورفاقهم، ووضعوا في غياهب السجون حيث تعرضوا لعمليات تعذيب بشعة لكن غيابهم في السجن لم ينه التنظيم ولا القضية مثلما ظنت السلطات الحاكمة، وإنما بعثت الأمل من جديد فقد تحولت قضية المعتقلين إلى قضية رأي عام، وانتشرت في كوبا وعدد من دول القارة حملة احتجاجات للإفراج عن فيدل وباقي المعتقلين ونظمت الجامعة سلسلة تظاهرات شعبية، واعتصامات واحتج المحامون من أصدقاء كاسترو، وتحت الضغط المتواصل اضطرت السلطة للإفراج عن المعتقلين مع نفيهم إلى المكسيك، بغية عزله عن الجماهير التي تعلقت به باعتباره الأمل في التغيير وظنت السلطة أنها بقرار النفي ستطفئ جذوة الثورة.

لقاء مع جيفارا

لكن الشاب الثائر ظل على العهد وفيا وواصل رحلة الكفاح وهو في المكسيك إذ تواصل مع القيادات الشعبية المكسيكية واطلع على تاريخ الانتفاضات الشعبية بغرض استخلاص النتائج التي تفيده في المستقبل ، وهناك تعرف على واحد من أهم أبطال الثورة الكوبية كما هو أهم صديق له في الرحلة الطويلة لتحرير هافانا هو ارنستو تشي جيفارا المثقف الثوري الأرجنتيني والثائر الأممي الذي سوف يساهم إلى حد كبير في رسم مسار الثورة الكوبية.

وظل كاسترو على تواصل مع المخلصين للثورة في كوبا حيث كان

يراسلهم بأسماء مستعارة، ويكلفهم بمهام في إطار التحرك الجماهيري والارتباط مع العضوية، والاتصال بالمنظمات الثورية التي تأسست مستلهمة نموذج الكفاح الثوري لكاسترو ورفاقه، وأبرزها "حركة٢٦يوليو"والتي اتسع نشاطها في كوبا، وتمكنت من جذب قطاعات واسعة من العمال الذين يقاسون من استغلال الرأسماليين لهم ، واستشعرت السلطة الخطورة فبادرت إلى تشديد الإجراءات الأمنية في جميع المفاصل الحيوية في الدولة، كما استنجدت بالولايات المتحدة التي أرسلت حاملة طائرات من قاعدة جوانتنامو البحرية التي أجرتها أميركا من حكومة كوبا العميلة وترفض إعادتها للشعب الكوبي ، وهذه أول مرة ترسل واشنطن فيها حاملة طائرات لحماية سلطة عميلة لها من خطر تحركات شعبية.

وتلقت حكومة باتيستا شحنات كبيرة من الأسلحة والتجهيزات العسكرية والطائرات والقنابل، كما أرسلت كمية من أدوات قمع التظاهرات مثل (الكلبشات) القيود الحديدية والهراوات وآلات التعذيب الكهربائية، وذلك من أجل القضاء على الحركة الثورية المتصاعدة ، وهو ما يؤكد عدم مصداقية أميركا في دعم الديمقراطية فقد واصلت دعمها للديكتاتور باتيستا رغم التقارير التي كانت ترسلها الاستخبارات الأميركية عن تنامي المعارضة الشعبية ضده وانتشارها في كافة القطاعات الجماهيرية.

وبدأت حرب التصفيات الجسدية لرموز المعارضة بعد أن امتلأت

السجون بالثوار،وقامت السلطة بطرد الموظفين والمعلمين والطلاب المناهضين من وظائفهم وجامعاتهم، وبدت في قمة التسلط ضد المواطنين والتجسس عليهم واستعانت بخبرة مكتب التحريات الفيدرالي الأميركي في تدريب شرطة سرية لتعقب المعارضة ، ونشطت الوكالة النقابية لعموم أميركا التي تألفت في مارس ١٩٥٦ ، والتي تسيطر عليها الاحتكارات الأميركية،لكي تشق الحركة العمالية الكوبية من خلال ترويج شائعات عن قادة الحركة العمالية، والأكثر من ذلك محاولة السلطة إثارة فتنة طائفية بين الكاثوليك والبروتستانت لإلهاء الشعب بالمنازعات الطائفية.

انتخابات مزورة

لقد وقعت عدة تطورات مهمة أثرت في تاريخ كوبا أهمها انه عندما جرت انتخابات حرة فاز فيها كارلوس ساكاروس ١٩٤٨ انحاز إلى الثوريين وطرح برنامجا تقدميا، وهنا قام باتيستا الذي كان رئيسا لأركان الجيش بانقلاب ضده١٩٥٢ وحكم البلاد بأسلوب فاشي حيث فرض ديكتاتورية عسكرية الأمر الذي دفع الشعب إلى مزيد من الانتفاضات ضده، إذ صارت شهرة باتيستا في الحكم الديكتاتوري مضرب الأمثال، وصار أنموذجا للطغاة.

وفي نوفمبر١٩٥٤اجرت السلطة انتخابات برلمانية بهدف احتواء الأزمة التي تعاني منها، وهي العزلة عن الشعب وعدم مشروعية

القرارات التي تصدرها، والتي اعتبرتها الاتجاهات المعارضة غير شرعية ،لأنها صدرت عن سلطة مرفوضة جماهيريا وتابعة لدوائر أجنبية، وبات المناخ السياسي مشحونا بالغضب ، وانتشرت التظاهرات في أرجاء الدولة ودخلت الحركة العمالية على الخط واهتم العمال بما يجري مع زملائهم المقهورين ، وصدرت بيانات عن المنظمات العمالية في أوروبا تدين اعتقال العمال الكوبيين في سجون باتيستا، بل إن الانتقادات للممارسات الحكومية وصلت إلى واشنطن ونيويورك حيث أبدت منظمات نقابية وأخرى مسيحية انزعاجها وقلقها على المعتقلين، كما ظهر التعاطف الدولي خاصة في العالم الثالث بما يجري في هذه البقعة المنسية من العالم.

الفصل الرابع

هافانا تبتسم
لشمس خجول

كانت الشمس تختبئ في مكان مجهول، تختفي من شيء يطاردها، تثاءبت السماء فهطل المطر يركض بغزارة، وكأنها حبال الماء السري موصولة بين الأرض والسماء تزرع بوابات الأمل والخير وحقول الكروم في الأرض الكوبية،كانت الرياح الهوجاء تزمجر وتهدد مثل حاكم أميركي مغرور، والبحر صاخب الأمواج كأحزاب المعارضة التائهة في عالمنا العربي، غاضب على مايجري في هذه البلاد التي ظلمها بعض أهلها.

كان الشعب الكوبي يئن تحت وطأة الجوع وكان اقتصاد كوبا يتهاوى، وقد أرسل البنك الدولي بعثة لمعرفة أسباب التدهور في كوبا واقتراح خطوات ووسائل الازدهار، فأشار تقرير البنك إلى أن ٦٠٪ من سكان كوبا ممن يعيشون في الريف يعانون من سوء التغذية، وأن البطالة متفشية، وقدم صندوق النقد وصاياه التي لم تر النور ، لذلك اهتم كاسترو بتوفير الطعام لملايين الجائعين، ومن الخطب الأولى للثائر جيفارا نتوقف عند عبارته البليغة " إن رسالتنا هي أولا وقبل كل شيء توفير الطعام لكل كوبي ، وقد بشر كاسترو في إحدى خطبه بأنه" في ظل نظامنا لن يجوع الأغنياء.. لكن الفقراء سوف يجدون ما يأكلون".

كان كاسترو بثقافته الرفيعة يعرف أن رغيف الخبز أشعل الثورات في العالم وأن الثورة الفرنسية اندلعت بسبب افتقاد الفقراء لرغيف الخبز، ومن رحم المعاناة تولد الثورات ، ولولا الظلم ما غامر هؤلاء الشباب بحثا عن وطن مسلوب، وعن شعب انتهكت حريته وكرامته تحت وطأة الديكتاتورية والفساد والغطرسة.

في ذلك اليوم الموعود من عام ١٩٥٦ أبحر فيدل كاسترو ورفاقه، وعددهم ثمانون ثائراً، على ظهر مركب عتيق، ولكن في خشبه صلابة الشعب،وغادروا المكسيك إلى كوبا.. إلى وطنهم الأم لينقذوه ويحرروه.

ولكن رداءة الطقس، وثورة البحر أخرتهم يومين عن الوصول إلى المكان المحدد فوق أرض كوبا.

وهذا التأخير ساعد عملاء باتيستا على اكتشاف أمر المركب وعودة الثائرين، فأرسلت حكومة باتيستا عدداً كبيراً من قواتها إلى شاطئ سانتياجو للقضاء على الثوار، وهم في عرض البحر قبل أن يصلوا إلى أرض كوبا.

ولكن الثوار نجحوا في الوصول إلى الشاطئ ، وعندما وطئت أقدامهم أرض وطنهم توزعوا بسرعة إلى عدة فرق فدائية، وكل فرقة لها قائد، وكان كاسترو على رأس فرقة بينما كان راؤول على رأس الفرقة الثانية، وتوغلت كل فرقة في اتجاه، وكانت المهمة الموضوعة أمام الثوار أن يصلوا إلى أعالي جبال " سيرمايسترا"بأقصى سرعة،واحتلالها وإقامة مراكز مراقبة لرصد تحركات جنود الحكومة والتعامل معها.

واستطاع كاسترو وعدد من زملائه أن يصلوا إلى أعالى هذه الجبال، وبعضهم قتلته شرطة باتيستا التى كانت تنتظر الثوار على الشاطئ، وقسم من الثوار تسلل إلى هافانا العاصمة لإنشاء جهاز سري بغية الاتصال مع الشعب في سائر مناطق كوبا، وقيادة الثورة فى جبال " سيرا مايسترا" الذين لم يبق أمرهم سراً بين الشعب الذى هب لنصرتهم.

وأعلنت جميع الأحزاب والمنظمات الديمقراطية وفرق٢٦ تموز وجماهير الشعب تضامنها القوى مع الثورة، ولم تعد الثورة حكرا على أعالي جبال " سيرا مايسترا" فقط، بل في كل بقعة من أرض كوبا. وكان العمال والفلاحون يحمون الثوار ويقدمون لهم المساعدات المعنوية والمادية. الممكنة رغم أن ذلك قد يعرضهم إلى الأذى على يد أجهزة أمن باتيستا المتعددة.

وانضم آلاف الثوار إلى كاسترو ورفاقه الموجودين في أعالي الجبال والذين لم يتجاوز عددهم أول الأمر ٢٠ثائراً..وكان حوالي ستين فدائيا لقوا مصرعهم خلال المعارك التي خاضوها ببسالة ضد قوات النظام المزودة بأحدث الأسلحة والمعدات الحربية.

في الطريق إلى النصر

وأول عمل قام به الثوار بقيادة كاسترو هو تحرير قمم جبال "سيرا مايسترا" ووضع حراسة عليها، ومن هذه القمم المتحررة انطلق آلاف الثائرين الأبطال الذين شجعتهم أنباء الانتصارات ومعظمهم من فقراء

الفلاحين والعمال يحررون وطنهم من تحالف. الاستعمار والاستغلال والنهب المنظم لثروات البلد.

وكانت جماهير العمال والفلاحين ومثقفو المدن التقدميون ، وجماهير النساء يتوافدون إلى مراكز ومقرات الثورة ومعظمها مكاتب محاماة من رفاق كاسترو وزملائه في الجامعة تربوا في أحضان الثورة وثقافتها،ولعبت شخصية كاسترو وشهرته دورا كبيرا في جذب قطاعات واسعة من الجماهير إلى الثورة الأمر الذي ساهم في تحقيق انتصارات.مقابل تقهقر قوات باتيستا .

وأخذت قوات باتيستا النظامية الاحترافية تفر أمام هذه الثورة الشعبية الوطنية التي اشتركت بها جميع الفئات الاجتماعية في كوبا، والتي دعمتها منذ ساعة انبثاقها الأولى جميع شعوب العالم والدول المستقلة المتحررة.وصدرت بيانات من مصر وسوريا الموحدتين في الجمهورية العربية المتحدة تؤيد الثورة وتعلن تعاونها مع الثوار بكل ماتملك من قوة وفي الجانب الآخر أبدى أصحاب المصالح الأميركية الخوف والقلق على استثماراتهم وأرباح شركاتهم فأرسلوا شحنات كبيرة من الأسلحة وزعت على قوات باتيستا، كما أرسلوا الطائرات تقصف مواقع الثائرين ومساكن ومزارع الناس الآمنين، وكثيرون من الناس ماتوا تحت التعذيب الذي يشرف عليه زبانية الدكتاتور الحاكم.

وقد وصلت قوات مشاة أجنبية لتساعد حكومة باتيستا، وارتدى أفرادها لباس الجيش الكوبي بقصد إخفاء تدخلها المسلح في كوبا، ولكن الثوار

اعتقلوا جنديين منها، وأطلقوا سراحهما بعد أن حصلوا منهما على وثائق دامغة.

وقد جرت محاولات شتى نظمها أنصار أو عملاء النظام البائد على بعث الخلافات بين عناصر الجبهة الوطنية بنشر شائعات مغرضة ضد قيادات الثورة في كوبا، ولكنها باءت بالفشل، وزادت قوى الجبهة تراصاً واتحاداً، تلك الجبهة التي كانت تتألف من:

١- حركة ٢٦ تموز

٢- الحزب الثوري

٣- الحزب الاشتراكي الشعبي.

٤- حزب الشعب الكوبي.

وكان المهاجرون الكوبيون الوطنيون الموجودون في الولايات المتحدة يتعرضون للاضطهاد ويزج بهم في السجون، ونشطت أجهزة الأمن الأميركية في مصادرة ما يجمعونه من أموال وأسلحة ليرسلوه إلى إخوانهم الثوار فوق أرض وطنهم العزيز. وخضع ٣٠٠ من المثقفين الكوبيين إلى تحقيقات متواصلة من مكتب التحقيقات الفيدرالية في عدة مدن أميركية في حملة أعادت إلى الأذهان صورة الحملات المكارثية.إذ تعمدت هذه السلطات اقتحام المنازل والمكاتب وإلقاء القبض على الكوبيين بتهمة دعم الثورة ماديا وإعلاميا، وكان بعض المثقفين الكوبيين اجروا اتصالات مع الصحف الأميركية لشرح عدالة قضيتهم في مواجهة الديكتاتورية.

وظهر الاستفزاز من القوات الأميركية الموجودة فوق حاملة طائرات أرسلتها الحكومة الأميركية إلى منطقة " نيكارو" بحجة ترحيل نحو خمسين امرأة وطفلا من الأميركيين الموجودين في هذه المنطقة من كوبا.

ولم يكن القصد من إرسالها ترحيل رعايا أميركين، بل عرض "قوة" و"جبروت" الجيش الأميركي على شعب كوبا و ثورتها المظفرة، اللذين نظرا باستهزاء وسخرية إلى هذا " الجبروت" وذلك كما حدث قبل بدء الهجوم على مصر بأيام، إذ أنه عندما كانت الحشود الاستعمارية على حدود سوريا عام١٩٥٦، أرسلت الولايات المتحدة عدة قطع من الأسطول السادس وقفت على بعد أميال من اللاذقية " لعرض عضلاتها".

هروب باتيستا

أما باتيستا عدو شعبه،فقد سيطر عليه الرعب، وحاول أن يستنفر طاقات عملائه وأسياده في واشنطن ولكن لا قوى عملاء باتيستا ولامساعدات أسياده وتدخلاتها استطاعت أن تثبت الحكم للطاغية باتيستا، بل أنهار أمام ضغط الشعب الكوبي... وذلك بعد مرور ثلاث سنوات على ابتداء الثورة.شكلت حرب أعصاب حقيقية انتهت بعزيمة الاستبداد.

وفي أول ديسمبر١٩٥٩ هرب الطاغية باتيستا إلى جمهورية الدومينيكان، أو بالأحرى إلى عند زميله الدكتاتور تروخيللو آنذاك، الذي كان يتآمر هو الآخر مع القوات المعادية على شعب الجمهورية الدومينيكية وسائر شعوب

أميركا اللاتينية.

وبعد شهور سافر باتيستا إلى واشنطن التي منحته قصرا يقيم فيه هو وأولاده جزاء الخدمات الجليلة التي قدمها لها على حساب شعبه.

وبدأت مرحلة جديدة في حياة الشعب الكوبي ، وكما يقولون عادة أن مابعد الحرب أو الثورة أصعب أو أن المحافظة على النصر أصعب من الحصول عليه، هذا قول مأثور، وهذا ما كان يؤمن به الشعب الكوبي، فهل ينام على أكاليل الغار ويستسلم لنشوة الانتصار ويترك السلاح جانباً؟...

إنه كان يعتقد أن الخطر الأميركي الذي تبعد مواقعه عن كوبا ٩٠ ميلا بحريا، وإن تراجع أمام الثورة لفترة من الزمن، ولكنه يتحين الفرص التي تناسبه للإغارة على كوبا من جديد وإعادة سيطرته عليها،وهذا هو درس التاريخ.الذي استوعبه الثوار

وهم في معظمهم ليس لديهم خبرة في إدارة شؤون الدولة بكل تعقيداتها، ومن هنا حرص كاسترو على الاستعانة بالخبرات الوطنية في المجالات الاقتصادية، في حين تسلم الثوار قيادة مفاصل الدولة وأجهزتها الحيوية ومنها الجيش والشرطة لمنع تسلل أعوان الاستبداد مجددا إلى الجهاز العصبي للدولة.

فلذلك قامت الحكومة الثورية التي ترأسها فيدل كاسترو بعدد من الإصلاحات الحازمة والسريعة بغية تطهير البلاد من العملاء، وتقوية الدفاع عنها، وإجراء تغييرات اجتماعية واقتصادية والعمل لرفع مستوى معيشة الشعب، فحلت جيش باتيستا وقيادته المؤلفة من عدد من

الإقطاعيين وسماسرة الاستعمار وشكلت جيشاً جديداً من شباب فرق ٢٦ تموز التي كانت القوة الرئيسية في الثورة، وأشرف على قيادة الجيش ضباط وطنيون وجهز بالأسلحة الحديثة، ونظم تنظيماً دقيقاً، كما أطلق عليه اسم جيش الثورة وحلت الحكومة جميع المؤسسات التي كانت تعمل لفرض وتوطيد دكتاتورية باتيستا مثل: جهاز البوليس المدني والسري، ومصلحة التجسس، ودائرة مكافحة النشاط الدكتاتوري الهدام، ومجلسي النواب والشيوخ اللذين عين أعضاءهما باتيستا.

وشكلت الحكومة الجديدة عدداً من المحاكم الشعبية، التي أخذت تحاكم الخونة وعملاء العهد الماضي، وكانت المحاكمات تجري بصورة علنية، وأمام جماهير الشعب.

وقد أصدرت المحاكم أحكامها، وتم تنفيذها فوراً، وكان أكثرها يقضي بالموت رمياً بالرصاص لكل من ثبتت خيانته لوطنه، كما صادرت الحكومة جميع ممتلكات عملاء الاستعمار وأعطتها للشعب.

قرارات من أجل الفقراء

لاشك أن ثورة كاسترو دخلت التاريخ باعتبارها ثورة من أجل تحرير الإنسان الكوبي من الفقر والاستغلال والعبودية،وفي المقابل هي ثورة من أجل التنمية والتقدم ورفع مستوى المعيشة ، ودخول الإنسان الكوبي إلى العصر بكل مافيه من تقدم، وبدت المهمة في غاية الصعوبة بالنظر إلى أمرين:

أولا: أن كوبا لاتتوفر فيها ثروات طبيعية أو معدنية يمكن أن تساهم في توفير تراكم رأسمالي يلزم لبدء أي مشروع نهضوي، وباستثناء بعض المزايا في المجال الزراعي من نوع قصب السكر والسجائر وبخاصة السيجار لاتوجد إمكانات كبيرة.وكان الأميركيون يملكون معظم الثروة، إذ كانوا يملكون ٩من ١٠ مصانع كبرى لإنتاج السكر، ويتحكمون في ٥٤٪من مطاحن القمح ومضارب الأرز ولهم ربع الودائع والأرصدة في البنوك، وهم يملكون مرافق الهاتف والتلغراف والكهرباء وشركات توزيع الكهرباء والبترول والكاوتش ، في حين أن المافيا الأميركية"آل كابوني" تتحكم في الفنادق المنتشرة في الجزر لخدمة السياح من كل بلاد العالم، بينما الكوبيون يعملون بالأجر في هذه المؤسسات الأميركية.

ثانيا: أن السلطة البائدة تركت كوبا تعيش في القرون الوسطى ولم تعمل على إدخالها في العصر الصناعي، وجرى تبديد الموارد والإمكانات المحدودة للإنفاق على فئة قليلة من الشعب، وتحويل الأرصدة إلى الخارج، الأمر الذي أدى إلى افقار البلاد.

من هنا بادرت الثورة بسلسلة قرارات اجتماعية لإنقاذ مايمكن إنقاذه على أمل أن تتبنى الثورة برنامجها الاجتماعي الشامل الذي سينقل المجتمع برمته نقلة كيفية؛وقامت الثورة على الفور بإحصاء الحالات الأكثر عوزا وقدمت لهم المتوفر من الإمكانات، وكان كاسترو يؤمن بأن الحرية لها جناحان هما التعليم والصحة، أما التعليم فجعله حقا للجميع وبدون مقابل، والصحة توفرت للكوبيين حتى صاروا الأطول

عمرا في العالم كله،وصار الطب الكوبي شهيرا لتفوقه، وقد اعترف الأميركيون بإنجازات كاسترو في هذا المجال. ثم اتخذت الثورة سلسلة قرارات أهمها أنها خفضت أجور المساكن بنسبة ٥٠ بالمئة، كما خفضت أسعار الأدوية بنسبة٦٥ بالمئة، والكهرباء بنسبة٣٠ بالمئة، والهاتف ... وغيرها.

أما الأموال التي كان يصرفها كبار ملاك العقارات لبناء العمارات والقصور الفخمة ذات الأجرة المرتفعة فقد تحولت بعد قرار تخفيض الإجارات إلى مقرات للمؤسسات الشعبية والحكومية الجبهة الوطنية.

وتشكلت لجنة تنفيذية تحت اسم "الجبهة الوطنية الموحدة" وهي تضم:٧ مندوبين عن حركة ٢٦ تموز، ٥ ممثلين عن الحزب الاشتراكي الشعبي.

وقد لعبت هذه الجبهة الوطنية دوراً هاماً ورئيسياً في انتصار الثورة وفي إحباط جميع مؤامرات الاستعمار بعد الثورة.لأنها شكلت التحالف الثوري الديمقراطي القائد في البلاد ما يؤكد فكرة أن تنظيما واحدا في دول العالم الثالث لايستطيع بمفرده أن ينجز مهمة التغيير،وقيادة عملية التحول الاجتماعي ، وكان النمط الديمقراطي الأكثر انتشارا في تلك المرحلة هو أسلوب الجبهة الوطنية التي تضم أكثر من حزب أو منظمة متنوعة المشارب والاتجاهات السياسية لكنها تلتقي على برنامج حد أدنى من الاتفاق.

ويتفق خصوم وأنصار كاسترو انه لم يكن شيوعيا قبل أو بعد الثورة

مـبـاشـرة ، وإن أخطاء واشنطن هي التي دفعته دفعا في الطريق إلى الاتحاد السوفيتي بما شكله في ذلك الحين من فكر وإجراءات، فقد أعرب كاسترو قبل الثورة عن تبنيه لفكر الرئيس الأميركي توماس جيفرسون، والرئيس أبراهام لينكولن ومبادئ حقوق الإنسان، وفيما يتعلق بنظام العمل ورأس المال يروى أن كاسترو لم يكن متحمسا لتأميم الصناعة الوطنية.

جنة الاشتراكية فيها أخطاء

وبطبيعة الحال هناك أخطاء وقعت خلال نصف قرن من التجربة الثورية في كوبا بعضها يتحملها كاسترو شخصيا لأنه الرجل الأول في القيادة وبعضها الآخر هي أخطاء التجربة وتجاوزات ،وقد سجلت المعارضة الكوبية بعض الحالات التي أعطت انطباعا بان الثورة أكلت بعض أبنائها،وضمن هؤلاء الدكتور خوسيه ميروكاردونا الذي كان أستاذا في القانون، وكان احد قيادات المعارضة ضد باتيستا، وكرمته الثورة وعينته رئيسا لوزراء حكومة الثورة لكنه تعرض للنفي لأنه رفض تحول كوبا إلى الشيوعية.

والأمر نفسه ينطبق على الدكتور مانويل اوروتيا والذي كان من أشد أنصار كاسترو والثورة، وتم تعيينه أول رئيس جمهورية بعد الثورة ولما اعترض على الشيوعية تمت إقالته وتحديد إقامته بنفس الطريقة التي تعاملت بها الثورة المصرية مع الرئيس محمد نجيب الذي تم تحديد

إقامته عندما اختلف مع الثورة ، ولاشك أن ثوار كوبا كان لديهم مبررهم ومنطقهم في مثل هذه الإجراءات لكن هذا المنطق لايمكن قبوله، فالثورة جاءت لتحرر الناس لا أن تقيد حرياتهم خاصة المخلصين للثورة.

ورجت المعارضة الموجودة في ميامي أن ثلثي الأعضاء التسعة عشر الذين تألفت منهم أول حكومة ثورية قد دخلوا السجون لسبب أو آخر، لكن الأمانة تقتضي القول أن الوزراء الذين تم تعيينهم في أول حكومة بعد الثورة لم يستوعبوا جيدا فكرة الثورة وأهدافها تماما مثل حصل في مصر بعد الثورة، وعلى سبيل المثال فقد عارض خمسة من وزراء حكومة الائتلاف الوطني التي ضمت سياسيين قدامى قانون الإصلاح الزراعي رغم أنه قانون معتدل، فقد نص على تحديد الملكية بألف فدان للأسرة، وهو القانون الذي اعترض عليه السفير الأميركي، وهاجمته بعنف الصحف الكوبية الموالية لكبار ملاك الأراضي، ووصفت القرار بأنه "شيوعية"لكن كاسترو قال إنه قرار لمصلحة الفقراء ليس له لون أيديولوجي، وتدعم الأرقام منطق كاسترو عشية قيام الثورة كان ٩٪ من السكان يمتلكون ٦٢٪من الأرض الزراعية، بينما ٦٦٪ من الشعب يملكون ٧٪ وفي منطقة سيرامايسترا حيث كان كاسترو يقيم كان هناك إرهاب يمارسه كبار ملاك الأراضي ضد الفلاحين حيث يطردونهم من الأرض بقوة السلاح ، وقتها كان كاسترو يدافع عن الفلاحين أمام المحاكم لكنه لم يحقق غرضه لذلك اقتنع أن المعركة ضد الظلم لن تكون في المحاكم بل

ستكون في الغابات لطرد باتيستا ونظامه الفاسد .

وليس منطقيا بأي حال أن يخوض كاسترو ورجال الثورة كل تلك المعارك ثم يسلم السلطة للرجعيين من أصحاب المصانع وعملاء واشنطن وكبار ملاك الأراضي، فقد كانت كوبا سوقا أميركية بكل معنى الكلمة، لكن بعد ثلاث سنوات من الثورة توفرت فرص العمل والأموال وتدخلت الدولة لتنظيم الأسواق وفرض تسعيرة جبرية فاعترض البعض وشرح لهم كاسترو أن التوزيع بالبطاقة ليس معناه عدم توفر السلع بل معناه العدالة في التوزيع.

لكن الفساد موجود سواء أكان المجتمع اشتراكيا أو رأسماليا ، في ٢٨فبراير عام ١٩٨٢ اكتسحت الشرطة ١٢ سوقا في هافانا، وعشرات الأسواق الصغيرة في المدن وصادرت كميات كبيرة من السلع المهربة عبر الشواطئ الممتدة والتي تضيع أموالا على ميزانية الدولة كجمارك وسميت العملية"العصفور فوق السلك"لمحاربة السوق السوداء خاصة وانه قد ظهر بعض الذين وصفوا بأنهم أثرياء الاشتراكية.

الواقع أن كاسترو أراد بكل ضمير حي أن يقضي على الفقر والجهل والاستبداد والمرض في بلاده ولاشك انه حقق إنجازات كبيرة في التنمية والتحديث وبنى وطنا حرا ، وهو القائل في إحدى خطبه "أن الثائر الحقيقي هو الذي يتسم بالواقعية، ويعتبر كاسترو هو الناقد الأول لنظامه،ويشاع أنه أقال وزيرا للصناعة من منصبه لأنه بنى مصنعا دون أن يبني بجواره مساكن شعبية للعمال، وهو يزور الوزارات في أي وقت ويتجول

في الشوارع ليلا وبدون حراسة ليتفقد الأمن ويتعرف على أحوال الناس بعيدا عن لغة التقارير.

ولعل من إنجازاته العظيمة وضع كوبا داخل العصر تكنولوجيا وهي التي كانت تحسب من أكثر الدوال تخلفا قبل الثورة ، واستثمر كاسترو علاقاته الدولية وبخاصة مع فرنسا واسبانيا واليابان في تطوير قدرات بلاده العلمية وقت كانت أميركا وأخواتها يفرضون على كوبا حصارا شديدا،كما استثمر إمكانات بلاده المتميزة في المجال السياحي كي يجذب ملايين السياح خاصة من كندا وهم يساهمون في زيادة الدخل القومي وتوفير فرص عمل للشباب.

الفصل الخامس

وردتان...وثالثتهما ثورة

كاسترو وجيفارا علاقة نضال

كيف بدأت العلاقة بين كاسترو وجيفارا،ولماذا انضم جيفارا إلى ثوار كوبا وهو الأرجنتيني الأصل؟

ماهو دور جيفارا في الثورة ولماذا غادرها وما هي حقيقة خلافه مع كاسترو؟

جيفارا والثورة الكوبية وكاسترو قصة إنسانية من طراز سماوي،هي قصة الشهداء عندما يذهبون إلى النوم، قصة الذين حولوا النواح إلى طرب، جاءوا إلى الأرض في زورق ليحرروها من بطش باتيستا وبقى الزورق على الشاطئ وتفرق الثلاثة،كما تتفرق السحب التي تظهر أحيانا لكي تعطي الناس فرصة النظر إلى القمر،وليس ثمة قمر أجمل من جيفارا الذي إن ماتت الثورة مات، لكن الثورة لم تمت ، هل سمعتم عن قمر يموت؟

جيفارا هو الدليل القائم كعامود صلب أو تاريخ في الزمن المتحول، والدليل الحي على أن السماء لاتخون السماء، والقمر لايخون الضياء، والأيام حجارة تلتقي و تقدح شررا، يأخذها الشهداء، يزرعونها في الأرض التي يشتهون، تنتج ثمرا طيبا كدم الثوار تعرفه كوبا وتعرف أنه نور ونار.

كان ارنستو جيفارا طفلا استثنائيا منذ ولادته في روزاريو بالأرجنتين ، وقد وفرته الأقدار لكي يكون بطلا من نوع خاص ،بطلا إغريقيا كأبطال الاوديسا والإلياذة، لايعترف بحدود جغرافية للنضال والشمس ولا لون

الثورة ولا لون الشعوب وهو يجيد التحدث بسبع لغات كلها تبدأ ب(ث) وتنتهي ب(ه) ، فقد ألف للنضال لغة خاصة وموسيقى والحانا، ودخل التاريخ كمناضل أممي وسيم عبرت صورته العالم قبل اكتشاف الصواريخ العابرة للقارات ,وقبل تأسيس الشركات العابرة للقوميات.

ظل جيفارا عنوانا للأمل الذي نبتت له جذور في سهوب التاريخ والسحر وجماجم الشهداء، كان يعجن آلام الوحدة في أحراش القلق والمرض ليخبزها فرحا للآخرين من أصدقائه الذين بعثرهم الزمن، ولم يعد يرى صورته إلا في إشارات المرور عندما تتوقف سيارة ما في بلد ما، وعلى زجاجها الخلفي صورة للفضيلة.

وفي قلب عائلة بورجوازية محترمة ، كان والده يدعي أنه مهندس معماري والواقع انه كان مقاولا، أما والدته فبريطانية الأصل ، تمارس الشعائر الدينية وتذهب إلى الكنيسة بانتظام وقد أرضعته القيم في حليبها وعودته أن لايحول التمرد إلى عادة .

كان نحيلا كأشجار النخيل، وارف الظل إن مشى،وظل رياضيا رشيقا كما الخيل، رغم انه كان مصابا بالربو المزمن، لكن عينيه منذ صغره كانتا مضيئتين ووالدته في حرصها على حياته ، كانت تلف جسده بالقطن ، خوفا من الشمس والرطوبة والهواء .

أدرك ارنستو منذ سنواته الأولى انه يختلف عن شقيقيه وشقيقتيه ، لاحظ أن والدته لا تعتني بأحد كما تعتني به ، وتظهر الحرص الشديد ، وشعر انه في حاجة إلى قسط من التمرد الذي يحمي جدار القلب، شعر انه

مـدلل أكثـر من أقرانه، فانتفض من القطن الذي يلف جسده ، وثار عليه ، واخـذ يمارس جـميـع أنواع الرياضـة في رحلـة تمرد طفـوليـة، أو ثورة مـبكرة ضـد ديكتـاتورية الطب وضـد المسـتبـد العـادل :حـضن الأم، وراح يمارس الرياضيات كلها:

ركوب الدراجات ، والخيل ولعبة الرجبي حتى الإرهاق ، كي يثبت لنفسه انه لا يمكن لأحد أن يفرض أية قيود عليه حتى اعتقال أمه.

وفي سن الرابعة عشرة ، وقعت الصدمة الأولى في حياته وارنستو ما زال يركب الدراجـات ويلـهث وراء الفـتـيـات وهو يطاردهـن ، سلطات الأمـن ألقت القبض على والدته ،بتهـمة معـارضة نظام الحكم، والاشتـراك في منظمة سـرية مناهضـة، وعـذبت في سـجـون حـاكم الأرجنتين بيـرون ،وحـدثت له صدمة أو دهشة سيدنا ادم عندما مشى في الأرض لأول مرة،وظل يردد عبارة أعجبته في رواية " قصة مدينتين" لتشارلز ديكنز تقول:"إن هذا هو التوقيت المناسب، وهو أسوا الأوقات".

وكانت الغـربة قاسيـة جدا مـثل الكلمات الطائشة بـالنسبـة إلى الفتى المدلل أن يرى أمـه ، التي قـضت السنوات وهي تـخـشى على صـحـتـه من الاعتلال والضعف ، وتسهر الليالي قربه محاولة أن تخفف من زفير صدره ، فـجـأة في السـجـن ، لم يسـتـوعب الفـتـى بسـهـولة فكرة أن الدفء يمكن أن يعذب وأن الحنان يمكن أن يسجن وأن الحب يقتاد مقيد اليدين إلى المخفر، كانت الصدمة أقوى من القسوة ،أقوى من الربو الذي تمكن منه في غياب الرعاية التي وفرتها له الأم.

هنا فقط أدرك معنى الظلام والظلم ، وشعر كم هو قاس أن يكون الإنسان عاجزا لايستطيع أن يفعل شيئا لأعز ما خلق الله ، وقفز في صدره سؤال - سوف يكبر -على صدر الأيام :لماذا ؟!

حذار من سؤال الصبي، سؤال المراهق لايحب المراوغة ولا يحب الصراحة، سؤال صبي في الرابعة عشرة عن أمه محفوف بالمخاطر، لا بد أن تأتي الإجابة عليه شاملة لكل أبعاد القسوة والظلم والألم، ويقال إن ارنستو ، أراد أن يفجر الثورة والنقمة التي في داخله على السلطات الحاكمة ، نزل إلى الشارع وتشاجر مع بعض زملائه ، يوم ذاك تعرض إلى ضرب مبرح ومع ذلك عاد مبتهجا فقد عرف الطريق للإجابة على أسئلته الحائرة.

ولعب نفوذ العائلة دورا كبيرا ، فأفرج عن والدة ارنستو بعد فترة قصيرة من سجنها .

أنهى ارنستو دروسه الثانوية ، وكان عليه أن يختار بحكم انتمائه إلى عائلة بورجوازية ، بين مهنتين : المحاماة أو الطب .

كان جوابه سريعا" واختار مهنة الطب .

وكان ارنستو يعتقد أنه بالطب سيساعد كل مريض على التحرر من مرضه . ومن غريب الصدف ، أن ارنستو سيختار التخصص في الأمراض الحساسة التي يصعب مداواتها .

وعلى مقاعد الدراسة الجامعية ، يكشف ارنستو جيفارا شيئا يختلف عن أبعاد وآفاق الطب الحديث وأسرار الجسم البشري ، حين يلتقي مع الأفكار

الثورية ويقرأ كتب ماركس ولينين وترو تسكي ، بالإضافة إلى اطلاعه على الثورة الفرنسية ومفكريها.

ويصف رينيه دومون جيفارا، في الكتاب الذي خصّصه عن كوبا، فيقول: "إنَّ "تشي" له نظرة مثالية إلى الإنسان الاشتراكي الغريب، في مجتمع تجاري، وإنّه كان يحكم بقسوة على النجاح الصناعي في الاتّحاد السوفيتي فيقول: "كلّ الناس تعمل وتكدّ وتنشط لتتجاوز نفسها، لكنّ الهدف الوحيد هو الربح. وأنا ضدّ الربح، ومع الإنسان. ماذا يفيد المجتمع، أي مجتمع، إذا ربح الأموال وخسر الإنسان؟"

لقاء في المكسيك

وعلى أرض المكسيك التقى مع راؤول الذي كان ماركسيا مثله، بينما كاسترو كان وطنيا مسيحيا ، وصار الثلاثة نواة الثورة، وتمكنوا من جمع ٨٢ مناضلا استقلوا قاربا أطلقوا عليه اسم "جرانما" وهذا الاسم صار مقدسا في كوبا ، وأكبر صحيفة في البلاد تحمل هذا الاسم، ويطلق على عديد من المشروعات، ورسا القارب إلى الشاطئ الشرقي لكوبا حيث وقعت معركة كبيرة مع قوات باتيستا التي كانت في انتظارهم، وسقط معظم الثوار بين قتيل وجريح وانسحب الباقون إلى جبال سبيرامايسترا،ومن هناك أشعلوا الثورة في صدور الفلاحين.

وانتشرت روح الثورة من المقاطعة الشرقية إلى باقي المقاطعات، وقاد كاسترو معركة سانتاكلارا ضد قوات الحكومة، ونجح في التقدم إلى

سنتياجوكوبا بقواته في حين أن جيفارا كان استولى على قلعة لاكايانا، ووصل إلى هافانا قبل أن تصلها القوات التي يقودها كاسترو،الذي خاضت قواته أشرس المعارك مع أقوى الوحدات الحكومية.

لم يكن جيفارا خلال الفترة التي تقلد فيها مناصب وزارية ذات علاقة بالاقتصاد والتخطيط هو "رجل الثورة الكوبية الاقتصادي" فحسب، بل كان رجل المهمات السرية والخاصة، فنرى كاسترو يرسله كدبلوماسي متجوّل إلى الأرجنتين والأمم المتّحدة وجنيف وإلى دول العالم الثالث، فيقابل عبد الناصر ونهرو وسوكارنو، ويوقع في موسكو سنة ١٩٦٢ الاتّفاق السري الذي سوف يؤدّي إلى نشر الصواريخ السوفيتية في كوبا، وما سينتج عنها من توتّر دولي.

في مارس١٩٦٥، يعود جيفارا إلى هافانا بأفكار جديدة بعضها انتقادي للاتحاد السوفيتي وميالا إلى النموذج الصيني الذي كان جيفارا يسميه" النقاء الصيني" وكان ذلك مستفزا للاتحاد السوفيتي الذي كان في أزمة مع الصين في ذلك الحين، وقد ألقى جيفارا خطابا في الجزائر طالب فيه أن يكون التعامل التجاري مع الدول الاشتراكية على أسس مستوحاة من عدالة الاشتراكية لا على أساس أسعار السوق العالمية التي تتحكم فيها الدول الرأسمالية.

وقد اعتبر سفير الاتحاد السوفيتي هذا القول تعريضا بالسوفييت،وفي الحال تم إبلاغ كاسترو الذي شعر بالحرج لأنه بين نارين ، نار الرفيق في رحلة الكفاح ونار الداعم الأكبر للتجربة الكوبية، وربما تكون مثل هذه الآراء

الصادقة التي كان يطلقها جيفارا بعفوية كبيرة ومطلقة سببت إحراجا لكاسترو وهو في موقع المسؤولية .

وعندما زار جيفارا الكاتب الكبير إحسان عبد القدوس في بيته في القاهرة ذكر أن خطابه في الجزائر لم يكن السبب الوحيد في قراره ترك كوبا والتحرك للثورة في مناطق أخرى، وقال إن الصراع كان كبيرا بين الشيوعيين القدامى والجدد،وان كارل ماركس لم يضع حلولا للمشاكل في كوبا لأنه لم يكن يتخيل أن الشيوعية يمكن أن تطبق في كوبا .

العودة إلى أحراش الثورة

ويبدأ السرّ يخيّم على هذا الرجل، وهناك روايتان حول اختفاء جيفارا من كوبا .

الرواية الأولى تقول إنَّ جيفارا شعر بملل وهو في موقع رجل دولة، وأدرك أنّه لا يستطيع أن يكون إلا الثائر المتجوّل الذي ينطلق في أميركا اللاتينية المليئة بالظلم والاستغلال وتحتاج إلى الأبطال والثوار وان الأوضاع استقرت في كوبا ولم تعد البلاد في حاجة ماسة إليه. وتقول هذه الرواية أنَّ جيفارا بعد عودته إلى هافانا من جولةٍ دامت ثلاثة أشهر، أعلن أمام كاسترو حاجته إلى ترك الكرسي الوزاري الوثير الذي يجلس فوقه وضرورة مغادرته البلاد ليعود إلى الأحراش يفجر الثورة في مناطق أخرى من القارة .

ويردّد جيفارا أمام كاسترو العبارة الشهيرة التي دفعته في يومٍ إلى أن يتخلّى عن مجتمعه وعائلته ووطنه: التعساء هم مصدر القوة في

العالم"ويناقشه فيدل بان تامين الثورة في كوبا سيوفر الدعم أو القاعدة التي تنطلق منها لتحرير الدول الواقعة تحت الاستبداد والاحتكارات الأجنبية، لكن جيفارا كان متيقنا أن مهمة الثائر لاتتفق مع المهام الوزارية والعمل في المكاتب الفاخرة، وانه كطبيب سابق يعرف جيدا أن تشخيص الداء في باطن الأحراش وليس في مكان آخر.

ويقول جيفارا إنّه سيبحث عن التعساء أينما كانوا وسيثور من أجلهم ثم يضيف: "إنّ الثورة تتجمّد، والثوار ينتابهم الصقيع حين يجلسون على الكراسي وقد يقعون في نفس الأخطاء التي ناضلت من أجلها الثورة. وهذا هو التناقض المأساوي في الثورة: أن تناضل وتكافح وتحارب من أجل هدف معيّن، وحين تبلغه، وتحقّقه، تتوقّف الثورة وتتجمّد في القوالب. وأنا لا أستطيع أن أعيش ودماء الثورة مجمّدة داخلي".

وتداولت بعض الكتب روايات عن خلفيات قرار جيفارا ترك كوبا والتوجه إلى الأحراش في بوليفيا وغيرها من الأراضي اللاتينية والإفريقية للنضال مع الثوار، وبعض هذه الروايات مغرض وبعضها الآخر يتحامل على كاسترو أو جيفارا.

إحدى الروايات تبدو للوهلة الأولى غير "واقعية" لكنها متداولة على نطاق واسع ما يعني عدم تجاهلها، تقول هذه الرواية أنّ فيديل كاسترو وشقيقه راؤول ودورتيكوس - الذي احتلّ جميع مراكز "تشي" - كانوا ينتظرون جيفارا يوم ٥ مارس١٩٦٥ في المطار، وأنّه فور نزوله من الطائرة أخذوه إلى غرفةٍ صغيرة زجاجية تستعمل لاستقبال ضيوف الشرف وكان

يبدو أنَّ السلطات الكوبية تريد أن يتجنب جيفارا التحدّث إلى أحد.

وتضيف الرواية أنَّ مشادّة عنيفة وقعت بين جيفارا من جهة، وراؤول كاسترو ودورتيكوس من جهة ثانية، بينما بقي فيديل "على الحياد". ويُقال أنَّ الجدال اشتدَّ إلى درجة أنَّ دورتيكوس، الذي أثارته ردود تشي العنيفة، أخرج مسدّسه من جيبه الخلفي وحاول إطلاق النار عليه.

لكنّ كاسترو منعه من ذلك، وكان النقاش يدور حول تهجّم جيفارا على الاتّحاد السوفيتي، والذي اعتبره المسئولون في كوبا تهجّماً غير مباشرعلى سياسة كوبا نفسها.لكن هذه الرواية لاتصمد طويلا أمام العلاقة التاريخية بين جيفارا وكاسترو إذ من المحال أن يقبل كاسترو أن يرفع إنسان مهما كان اسمه أو رسمه السلاح على جيفارا، لكن مثل هذه الرواية تم ترويجها بواسطة الاستخبارات الأميركية في محاولة اغتيال معنوية للزعيمين معا.

وتقول الرواية أيضاً أنَّ جيفارا التقى مرةً ثانية ليلة وصوله إلى هافانا بفيدل كاسترو وشقيقه راؤول ودورتيكوس وبعض الرفاق القدامى، وأنَّ الجدال اشتدَّ بين تشي والآخرين فاضطرَّ أحد الموجودين لأن يشهر مسدّسه ويطلق رصاصة. ولا أحد يعلم أين انطلقت الرصاصة ومَن أصابت.

على أي حال لقد ترددت روايات كثيرة حول جيفارا الأسطورة التي بقت مابقى الزمان.

وفي ٢٢ مارس١٩٦٥ القى تشي محاضرة بين عدد ضئيل من المستمعين، تحدّث فيها عن رحلته، وقال إنّه مرتاح الضمير لأنّه خدم قضية كوبا ،وان بلادا أخرى تحتاجه وسوف يجمع ثوارا متطوعين من كل مكان لتحقيق

الثورة التي هي نار في الصدور لا تخمد، وأضاف :البعض يظن أن الثورة في الأرض لكن الثورة هنا ، وأشار إلى صدره.

وفي مايو من السنة نفسها، يشاهد جيفارا للمرة الأخيرة في هافانا في دار "منشورات الثورة"، حيث جاء لمراجعة "بروفات" كتابه: "الاشتراكية والإنسان في كوبا".

كاسترو يكشف الحقيقة

وتحاول الصحف الأميركية وعملاء الاحتكارات الأميركية الإساءة إلى كاسترو، وتروج الشائعات في كوبا، وفي جميع أنحاء العالم، تتّهمه بأنّه كان السبب في رحيل جيفارا عن كوبا.

ويثور كاسترو، لأنه يعرف أن هناك من يحاول في الظلام أن يظلم الثورة وان يهيل الرماد فوق علاقة ثورية من الطراز الأول لذلك سوف يعلن بعد أشهر من اختفاء جيفارا، في نهاية سبتمبر ١٩٦٥، أنّه يملك الأدلّة التي توضح أسباب اختفاء رفيق الثورة وأنّه سيطلع الرأي العام عليها.

وفي ٢ أكتوبر يقرأ فيديل كاسترو، في حفلة رسمية كبيرة حضرتها زوجة جيفارا وهي ترتدي ثوباً أزرق، الرسالة التي وجّهها جيفارا إليه، معلناً تخلّيه عن جميع مناصبه، وعن جنسيّته الكوبية ويقول فيها: "هناك أماكن أخرى في العالم بحاجة إلى جهودي المتواضعة. وأستطيع أن أحقّق ما لا تستطيعه أنت، بسبب مسؤوليّتك في كوبا. سأنقل إلى ساحات النضال الجديدة الروح الثورية التي هي أقوى سلاح في وجه القوى الأميركية المسيطرة.

أريد أن أقول لك وللشعب الكوبي الذي تبنّاني أشياء كثيرة ولكنّي أحسُّ بأنَّ هذا ليس ضرورياً فالكلمات لا تستطيع أن تعبّر عن مشاعري في هذه اللحظة".

وبكت زوجة جيفارا، وتأثر الحاضرون بكلمات الرجل الذي علم الثورة فن الحب والذي عطر الأحراش بدمه والذي تغار منه الأسطورة وتتواضع بجواره الأمطار.

وبعد أسابيع قليلة من "رسالة الوداع" إلى كاسترو، كتب جيفارا رسالة إلى والديه يقول فيها: "منذ عشر سنين، رحلتُ للمرة الأولى عنكما، وما زال صوت الباب يرن في أذني. واليوم أرحل للمرة الثانية عنكما، وعن البلد الذي أحببت، وعن الزوجة والأولاد والأصدقاء، لأنّني شعرت الشعور ذاته الذي انتابني منذ عشر سنين تقريباً: إنّ حبّي الحقيقي، الذي يرويني ليس حبّ الوطن والزوجة والعائلة والأصدقاء، إنّه أكبر من هذا بكثير، إنّه الشعلة التي تحترق داخل الملايين من بائسي العالم المحرومين، شعلة البحث عن الحرية والحقّ والعدالة"وأضاف:

"إنّني أؤمن بأنّ الكفاح المسلّح هو الطريق الوحيد أمام الشعوب الساعية إلى التحرّر. ويعتبرني الكثيرون مغامراً".

"فعلاً، أنا مغامر، لكن من طراز مختلف عن المغامرين الساعين وراء نزوات فردية عابرة، إذ إنّني أضحّي بكلّ شيء من أجل الثورة والكفاح المستمرّ".

"قد تكون هذه الرسالة الأخيرة، لكنّني أودّ أن أقول لكما شيئاً واحداً: لقد أحببتكما كما لم يحبّكما أي إنسان، لكنّني عجزتُ عن إظهار هذا الحبّ، ربّما لأنّني قاسٍ في تصرّفاتي، مع نفسي ومع الآخرين، وأعتقد أنّكما لم تفهماني معظم الأحيان. وأعترف بأنّه ليس من السهل أن يفهمني أحد".

"والدتي أقول: لا تخافي، إنَّ إرادتي القوية، والشعلة التي تحرقني باستمرار، ستكونان العكاز التي سيسند قدميَّ الضعيفتين ورئتي المتعبة وصدري الذي يزفر".

"أرجو منكما شيئاً واحداً: أن تتذكَرا دائماً ولدكما الثائر الذي يطوف الجبال والأدغال والأودية في أصعب الظروف وأدقّها لأنَّ شيئاً ما يتململ في داخله ويجعله متيقَظاً تجاه الآخرين، ملايين التعساء في العالم".

جيفارا قمر لايموت

لايقهر الموت سوى الكلمة .وجيفارا ليس إلا كلمة لها معني وفي أعماقها الدر كامن ، لايقهر الموت -كما قال الشاعر صلاح عبد الصبور- الاالحجر والكلمة ، والكلمة أطول عمرا من الحجر.

لم يتخيل كثيرون أن جيفارا يمكن أن يموت ، كانوا يظنون أنه في المكان أو المكانة التي لاتمكن الموت منّ الوصول إليه، وتفشل كل خططه للوصول إلى حقوله المزروعة بالشمس والدفء والربيع والثمر، وحتى إن مات شهيدا في حضن شجرة، فسوف يظل حيا لأنه كلمة والكلمة حرية بينما الموت سجن ابدي.

والشهداء أحياء عند ربهم ، والشهداء يسافرون من مجتمع الأرض إلى مجتمع السماء، وكان الموت بالنسبة إلى "تشي" حقيقة يومية ترافقه خطوة خطوة كالربو والزفير والشعلة والنعاس، كان ينام بالقرب من أحلامه ، يشاطره في أحلامه ، ينافسه في أحلامه .

مرة، قال لرفيق له كان يقاتل بجانبه في الأدغال ، والرصاص ينهال عليهما:

-"أتدري كيف أتمنى أن أموت ؟

كما تمنى قصة بطل "جاك لندن " . أدرك أنه سيتجمد حتى الموت في أراضي ألاسكا البيضاء المقفرة ،فاستند بهدوء إلى شجرة ، واستعد لمواجهة الموت بصمت وكبرياء . كم أتمنى الآن لو أستريح على جذع شجرة ،ليهدأ الزفير داخلي ، وأموت ، بعد أن أفرغ رصاص بندقيتي في الجنود القادمين من وراء هذه الأشجار."

كان ذلك سنة ١٩٥٧ ، قبل الدخول إلى هافانا مكللا بالورود والفخر.

ومرة ، قال لكاسترو ، في الرسالة الأخيرة التي وجهها إليه:

- ذات يوم ، سئلنا عن الشخص الذي ينبغي إبلاغه أو إعلامه عند موت أحدنا ،يومها ظللنا نضحك لأننا لم نتصور أننا سنموت .

وفوجئنا جميعا بهذه الإمكانية الحقيقية عندما انهمر الرصاص من حولنا كالأمطار، كان الموت يتجول حولنا ثم يختار أحدنا ثم يعود يخطف الآخر، فأدركنا أن الثائر الحقيقي "أما أن ينتصر أو يموت " لكن ماهو الموت؟ انه بداية حياة جديدة للثائر يعيد فيها اكتشاف قناعاته ومرة ثالثة ، قال في البيان الثوري الذي وزعه في ابريل ١٩٦٧ :

-" لا يهمني متى وأين سأموت ."

لكن يهمني أن يبقى الثوار صامدين ، يملأون الأرض ضجيجا ، كي لا ينام العالم بكل ثقله فوق أجساد البائسين والفقراء والمظلومين .

ثم سقط أخيرا في الخريف ، مع سقوط أوراق الأشجار التعبة .

لكنه لم يحقق أمنيته التي رددها أمام صديق له في فترة النضال الأولى:

لم يمت وهو مستند إلى الشجرة ، بل سقط مضرجا في دمه في واد صغير ضيق ، بتسع رصاصات ، ربما أقل ،ربما أكثر . والتقطوه وحملوه ووضعوه على طاولة عالية ،ثم قالوا للصحافيين والمصورين والعالم أجمع :

"– هذا هو "تشي" جيفارا . لقد انتصرنا عليه ."

بدأت المرحلة الأخيرة من المطاردة التي استمرت أكثر من سنتين ،واستعملت الولايات المتحدة مختلف الوسائل للقضاء على موجة حرب العصابات التي يقودها "تشي" جيفارا ، في ١٩٦٧ ، بعد أن ألقت السلطات البوليفية القبض على المفكر الفرنسي الماركسي ريجيس دوبريه ، واتهمته بالتعاون مع جيفارا وأنصاره ، وسجنته وعذبته لتنتزع منه اعترافا بمكان جيفارا .

وبعد ذلك بفترة قصيرة ، أعلن رئيس الجمهورية البوليفية الجنرال رونيه بارينتوس بأنه واثق هذه المرة من القبض على جيفارا حيا أو ميتا .

ولم يكن بارينتوس يعتمد في عملية مطاردة واصطياد جيفارا على رجاله وحدهم ، ولا على بعض رجال العصابات الذين تخلوا عن جيفارا وحاولوا الكشف عن مكانه ، بل كان يعتمد على خبراء في الاستخبارات الاميركية وضباط من المرتزقة وقوات متخصصة في حرب العصابات والتصدي للثوار بوسائل علمية مدروسة دقيقة وشكل منهم جيشا كل مهمته هي مطاردة رجل واحد بغض النظر عن العشرات أو المئات من الثوريين الذين كانوا معه،كان جيفارا هدفا غاليا، وظل كذلك.. هل يتذكر أحد رجلا اسمه رونيه بارينتوس؟!

سوف يمضي وقت طويل حتى يظهر في بوليفيا رجل يرفع صورة جيفارا وهو في الطريق إلى القصر الجمهوري اسمه: موراليس..

الفصل السادس

عملاء في زورق أميركي أزرق

ما بعد الثورة أصعب ..هذه قاعدة تاريخيةادركها الثوار بحكم قراءة تاريخ الثورات خلال الفترة التي نفي فيها كاسترو وراؤول إلى المكسيك ،كما أن التجربة العملية برهنت على أن مرحلة الثورة والقتال ضد عدو واضح مسألة يسيرة رغم التضحيات في حين أن قيادة بلد منهك بالتخريب ومثقل بالديون مسالة صعبة للغاية.

تحديان بارزان واجهتما الثورة، أولهما أن عملاء الاستبداد والاحتكارات لن يكفوا عن إثارة الفتنة داخل كوبا،خاصة وهم يحصلون على دعم دولة عظمى هي الولايات المتحدة التي لاتبعد سوى ٩٠ ميلا بحريا،وقد بدأت المنغصات بعد الثورة مباشرة من خلال خلايا إرهابية وفرق موت عملت بكل طاقتها على إحباط ثورة كاسترو حتى لاتتكرر بسهولة في دول أخرى.

أما التحدي الثاني فهو عملية البناء على أسس اجتماعية جديدة بمعنى التنمية من أجل الفقراء ومحدودي الدخل وحماية مصالح فلاحي قصب السكر وعمال المصانع، ووضع خطة لبناء آلاف المنازل وألف مدرسة وفق تصور رومانسي عن إقامة مجتمع يتسم بالمساواة والعدالة وسط غابة من الوحوش الدولية والمحلية، لكن مواجهة التحديات تحتاج إلى قوة شعبية، لحماية أهداف الثورة

ومن هنا جاءت عملية بناء جيش وطني وميليشيات مسلحة من أفراد الشعب.

ومن المهم هنا التأكيد - مجددا- أن الثوار لم يكن لديهم نظرية كاملة للبناء ، وصحيح آن عددا منهم كان ماركسيا أو تأثر بها لكن الصحيح أيضا أن التشكيل القيادي الأول كان فيه وطنيون غير ممنهجين ولا أيديولوجيين، وقد سيطرت فكرة حماية الثورة بعد القبض على عدد من أنصار باتيستا ،وجاءت فكرة تشكيل فرق الميليشيا في سائر أنحاء البلاد، وسلحتها تسليحاً جيداً، ودربتها على قتال الشوارع والغابات بصورة جيدة، وهي تمثل جميع جماهير الشعب وقواه الوطنية، كما عبر عن ذلك كاسترو، في اجتماع للميليشيا في براكساو، في مقاطعة آورينتي، اشترك به آلاف الفلاحين شاهرين بنادقهم تأييداً له حيث قال:

"إن للميليشيا في كوبا أهمية كبرى للدفاع عن الثورة ضد العدوان، أن مهمة الدفاع عن الثورة وتوطيد حكمها يقعان على عاتق الشعب، وأن الثورة لن تكون في خطر. وسنكون الفائزين في كل نضال نخوضه مهما كان قاسياً، ومهما كانت تكاليفه".

وأضاف:"ولهذا فإن أي فريق معادٍ لكوبا يعرف تماماً بأنه سيحارب كل الشعب الكوبي، لأن الشعب كله ميليشيا، بما فيه الأطفال الذين يتم تربيتهم على حب بلادهم والدفاع عنها ضد أي خطر"

وختم كلمته بقوله: "ابقوا أيها الميليشيون شاهري الحراب،ويجب أن لا تتوقفوا عن استعمالها".

ويمكن القول أن أسلوب حرب التحرير الشعبية الذي انتهجه كاسترو

ورفاقه عندما أنجز الثورة بمشاركة جيفارا سلحه بخبرة هائلة في بناء الميلشيات الثورية التي ظلت قائمة رغم بناء جيش عصري،وسوف تلعب هذه الميلشيات دورا مهما في إحباط العديد من المؤامرات التي سوف تدبرها الولايات المتحدة بأيد محلية.

الجيش الكوبي

لم يشكل باتيستا جيشا وطنيا بالمعنى الحديث ، بل أقام جهازا أمنيا اعتمد فيه على المرتزقة الذين جندهم أو اشتراهم من الدول المجاورة ، وكانت ظاهرة المرتزقة انتشرت بعد الحرب العالمية الثانية وتوفر عدد كبير من الضباط والجنود الأميركيين المدربين والذين اكتسبوا خبرة المعارك وتشكلت في واشنطن ولندن وباريس مكاتب لتصدير المرتزقة وكانت أفريقيا وأميركا اللاتينية هي مقصد هؤلاء ، وقد وجد نظام باتيستا ضالته في المرتزقة لأنه كان يخاف من الضباط الوطنيين في الجيش الكوبي إذا تم تأسيسه على أسس وقواعد وطنية.

ولهذا أسس باتيستا جيشا وطنيا كلفه مهمة حماية الحدود، وليس له علاقة بما يدور في داخل الدولة، فتلك مهمة المرتزقة التي كلفها أن تكون صماما لأمن النظام وردع أية محاولة للتغيير، وتم تزويدها بكل أسلحة القمع والتنكيل بالمعارضين، وتكونت فرق الموت المكلفة تصفية العناصر المناهضة للنظام، وأغدق على كبار الضباط حتى لايفكروا في الانقلاب عليه، ومنحهم امتيازات بالجملة وارتفعت ميزانية الامن الداخلي والجيش على حساب باقي الوزارات، وانتشرت البطالة وتردى مستوى التعليم والصحة والضمان الاجتماعي.

ولم يكن هناك أي سقف أخلاقي أمام جيش المرتزقة، فقد كان يعتقل ويعذب وينفي ويقتل بدون أي رادع أو مانع حتى أن رصيدها الأسود بلغ ٢٠ ألف إنسان تعرضوا لكافة أشكال التنكيل خلال٧سنوات فقط.لكن هذا الجيش المحترف لم يصمد عندما قامت الثورة لان من طبيعة المرتزقة أن تنسحب أذا وجدت أنها يمكن أن تخسر المعركة وجيوش المرتزقة بطبيعة الحال لاتضحي بنفسها ولا تميل إلى الاشتباك مع الجماهير في عمليات مسلحة لذا وجد باتيستا نفسه وحيدا ومعزولا إلا من فئة حاولت الدفاع عن مصالحها وأموالها التي نهبتها من الشعب الكوبي الكادح.

وعندما أحكم الثوار حصارهم على هافانا تفككت وحدات هذا الجيش المرتزق.وهرب عدد كبير من ضباطه إلى الدومينيكان.واعتقل قسم كبير من أفراده، فأودعوا في السجون نفسها التي كانوا يعتقلون فيها أنصار الثورة.

وبعد الثورة.شكل كاسترو جيشا وطنيا جديدا، قوامه عدد كبير من العمال والفلاحين الذين اشتركوا بالثورة.وأبلوا بلاء حسناً فيها.أو كانوا أعضاء في فرق ٢٦ تموز.اشرف عليه راؤول كاسترو، وهو أول وزير للقوات المسلحة مع قيادة أركان من أبناء الشعب الضباط الوطنيين واعتمد في تسليحه على العتاد السوفيتي.ودرب تدريباً حسناً على مختلف فنون القتال.

الجيش والشعب

هكذا أصبح الجيش الكوبي جيشاً من الشعب وإليه الإشراف على تدريب أفراد المقاومة الشعبية (الميليشيا)، كما يسهم إسهاماً فعالاً في تنفيذ

المشروع الاقتصادى في كوبا فقد شيد الجيش ٢٠٠الف وحدة سكنية لتعويض أسر الثوار وضحايا النظام السابق وإيواء ضحايا الزلازل والكوارث الطبيعية .وقدم أفراده مساعدة للفلاحين في حراثة الأرض بعد إدخال الميكنة واستيراد آلاف الجرارات الزراعية من الهند والدول الاشتراكية. وإنشاء المراكز الزراعية التجريبية والمزارع التعاونية ومشاريع الري وغيرها .

الأحزاب السياسية

في الاعوام الأولى من دكتاتورية باتيستا ، كان هناك عدة أحزاب سياسية لم يكن لها الجذور العميقة بين الجماهير، وكانت ضعيفة .ونذكر منها: حزب الطريق الصحيح .حزب الحقيقة .وكان لباتيستا حزبان ولكن باتيستا ألغى حتى هذه الأحزاب الهامشية وشبه المعطلة والمخترقة من اجهزة الأمن وبالتالي لم تكن أحزابا مؤثرة ولا فاعلة في الواقع ، لأنها لا تستطيع تحريك الجماهير ودفعهم إلى أبسط النضالات الوطنية أو التحركات الاحتجاجية.التي تعكس رفض الشارع للأزمة الاجتماعية السياسية الخانقة سواء من حيث ازدياد معدلات الفقر والبؤس والجريمة أو القهر والتنكيل بالمعارضة، حيث تضاعفت أعداد المعتقلين.

وفي أثناء الثورة شكل كاسترو "حزب٢٦ تموز" بعد فشل الهجوم على قلعة "مونكادا"، ومن قيادة هذا الحزب: فيدل كاسترو وراوول كاسترو، تشيكبارا، أرمندوهارد وحزب الشعب، والحزب الثوري الذي يرأسه كارلوس بريو والحزب الإشتراكي الشعبي: وهو الحزب الذي تأسس في أثناء المعارك الوطنية،

واشترك أعضاؤه في الثورة ،وفي الجيش ومن قادته البارزين: كارلوس رفائيل روديجس، بلاس روكا، خوان مارينلو، وسكرتير هذا الحزب انيبال أسكالانتي.

وهذه الأحزاب الوطنية الثلاثة شكلت جبهة وطنية موحدة ومتراصة، تعمل تحت راية الاستقلال الوطني والحرية، ويطلق عليها اسم :" جبهة العمال الوطنية الموحدة"، ومثلت وقتها ضمانة سياسية لتوطيد استقلال كوبا، والمحافظة على مكتسبات الثورة.خاصة في ظل التهديد المستمر من الخارج والداخل، فالولايات المتحدة أبدت قلقها من الثورة وانتهاء سلطة أحد أبرز رجالاتها وهو الديكتاتور باتيستا.

دستور كوبا

في عام ١٩٤٠ قامت المنظمات الديمقراطية وجماهير الشعب بحملة واسعة مطالبين بإلغاء دستور البلاد، لأن به موادا تحرم الشعب من حقوقه العادلة وكان أهم نقائص هذا الدستور:

١- يحمي مصالح الاحتكاريين، ويسمح لهم بنهب خيرات البلاد والسيطرة على جميع مرافق الحياة فيها.

٢- يحرم الشعب من أبسط الحريات الديمقراطية ويفرض قيوداً ثقيلة على الأحزاب والصحافة والمنظمات الديمقراطية.

٣- لم يضمن حق كوبا في الاستقلال والحرية، واعطائها حق السيادة على جميع الأراضي والمؤسسات والشركات في كوبا فقد قامت حكومة باتيستا بتأجير بعض أجمل الجزر الكوبية للولايات المتحدة ومن بينها جزيرة

جوانتنامو سيئة السمعة والتي اعتقلت فيهاامريكا عددا من الإسلاميين بدون تحقيقات عادلة وذلك بعد الهجوم بطائرات ضد منشآت عسكرية واقتصادية من بينها برج التجارة" التوأم".

وقد آتت هذه الحملة الواسعة ثمارها، فتراجع باتيستا أمام ضغط الشعب، وأعلن عن وضع دستور جديد للبلاد.

وقد تشكلت آنذاك لجنة وطنية تمثل مختلف فئات الشعب ووضعت دستوراً وفقاً لرغبات الشعب، تلافت فيه العيوب السابقة.

وقد جاء في الدستور الجديد بأن نظام الحكم في كوبا جمهوري وبرلماني، والسلطات الثلاث: التنفيذية، والتشريعية، والقضائية منفصلة عن بعضها، وحق الانتخاب مضمون لجميع الذكور الذين تتجاوز أعمارهم الـ١٨ عاماً، ويسمح للأحزاب أن تشترك في الوزارة، وليس لحزب واحد الحق بأن يطغى على الآخر بواسطة الحكم ، ورئيس الجمهورية هو القائد الأعلى للجيش، ومن حق جميع أبناء الشعب أن يتمعتوا بالحرية.

ولكن هذا الدستور بقى حبراً على ورق، والحقوق والحريات التي ضمنها للشعب انتهكها باتيستا بعد أسابيع قليلة، ووضع كل ما جاء في الدستور من مواد صالحة للشعب في زوايا الأهمال، ونصب نفسه حاكما مطلق الصلاحيات، غير مسؤول أمام مجلس الوزراء والنواب والشيوخ، رغم أن جل أعضاء هذه المجالس لا يمثلون إرادة الشعب الكوبي.لأن الانتخابات اتسمت بالتزوير والتدخل الحكومي الصرف إلا إن النخبة المثقفة المعارضة تساءلت عن الشرعية الدستورية والقانونية لتصرفات باتيستا فلم تجد.

وفي عام١٩٥٩، بعد الانتصار الثوري، أعيد دستور عام١٩٤٠، بعد أن أدخلت عليه عدة تعديلات هامة، واعتبر الدستور المؤقت للجمهورية الكوبية.

مجلس النواب

في عهد ما قبل الثورة جرت عدة انتخابات كان طابعها التزييف والرشوة والإرهاب، وكانت مثل هذه الانتخابات المزورة التي لا تمثل إرادة الشعب، توصل إلى الحياة البرلمانية نوابا موالين للدكتاتورية، والشركات الاحتكارية، وكان في البداية مجلس شيوخ يعين أعضاؤه تعييناً.

وقد قاطع الشعب الأنتخابات في عدة مرات، كما جرى في انتخابات عام ١٩٥٨ قبل الثورة بسنة، إذ أن أغلبية الشعب قاطعت هذه الانتخابات المزيفة، واستجابت لنداء التنظيمات الثورية في ضرورة عزل النظام وعدم تمكينه من الحصول على شرعية لإجراءات الظلم.،خاصة بعد أن انتبه الرأي العام العالمي إلى ما يجري في هذه المنطقة من العالم.

الصحافة

في عهود ما قبل الثورة الأخيرة كانت الصحافة مكبلة في كوبا، كما لم يكن هناك أى أثر للحرية الصحفية فيها، فكثيراً ما كان الصحافيون يتعرضون لشتى أنواع التعذيب، وتغلق صحفهم، وتفرض الغرامات النقدية عليهم لمجرد كتابة شكوى للشعب الكوبي ،الذي كان يئن تحت نير العبودية والاستبداد الظالم أو لكتابة أية كلمة تندد بأعمال الشركات الأميركية في

كوبا أو بأعمال الاستعمار الأميركي في أية بقعة على كوكبنا هذا.

وكانت جميع الصحف خاضعة للمراقبة قبل عملية الطبع وبعدها، أما قانون الصحافة الكوبي فكان رجعياً جداً، لأنه حرم الصحافة من أى حق من حقوقها المشروعة وفي رأسها حرية النشر.

وقد كان في كوبا عدة صحف تمولها الشركات الاحتكارية الأميركية، ودكتاتورية باتيستا، وهدف هذه الصحافة " التمجيد والتعظيم"للوجود الأجنبي وتسعى لعمل غسيل لجرائم النظام بادعاء أن المعارضين يحصلون على تمويل من دول أجنبية أو أنهم إرهابيون وليسوا وطنيين.

وكان في كوبا عدة صحف ونشرات دورية وغير دورية، تصدرها الفئات الوطنية بصورة سرية، وكان رواجها بين الشعب يفوق بكثير رواج الصحف العلنية التي " تسبح" في فلك الدكتاتورية والاستعمار.

وعندما جاءت الحكومة الثورية إلى الحكم أعطت الحرية المطلقة للصحافة، وألغت المراقبة على الصحف، وفي نفس الوقت قضت على المبالغ " السرية" التي كانت تصل لبعض دور الصحف الرجعية ، فأفلست وأغلقت بوابها، لكن هناك انتقادات توجهها منظمات حقوق الإنسان الدولية والهيئات الصحفية العالمية ضد الصحافة الكوبية سواء لجهة التشريعات القانونية المقيدة لها أو لمراقبة ومتابعة الصحفيين والكتاب الذين يعارضون الحزب الشيوعي الكوبي ، وقد التفتت السلطة الثورية إلى هذه الانتقادات في نهاية القرن العشرين وتجاوبت مع الموجة العالمية الرامية في اتجاه تعميق الحريات الصحفية وإطلاق المبادرات المهنية لتطوير مهنه الصحافة.

المعارضة في الخارج

ماذا عن المعارضة في كوبا؟ هل هناك معارضة وطنية وأخرى تابعة لدوائر أجنبية؟ ولماذا تبدو المعارضة داخل كوبا خافتة الصوت بما يوحي أنها غير موجودة بينما نجد صوتها عاليا خارج الحدود وكأنها سوف تصل إلى السلطة غدا، مع أنها لم تحقق شيئا منذ قيام الثورة إلا النقد بصوت عال؟

ليس هناك أفضل من صاحب التجربة نفسه لكي يرد عليها وهذا ما حصل خلال لقاء أجرته محطة الجزيرة الفضائية مع الزعيم فيدل كاسترو الذي قال:نحن شعب موحد لاتوجد معارضة بمعنى الكلمة ، هناك اجتهادات نرحب بها ، وهناك عيون مفتوحة تكشف الفساد، وتمنع الاستغلال ، لكن هذا كله في اتجاه والمعارضة التي ترتبط بالولايات المتحدة أو بالمنظمات ذات المصالح الإمبريالية، إنها مجموعة صغيرة، صغيرة جداً .. ليتك كنت موجوداً لتشاهد بنفسك التحرك الشعبي خلال السبعة الأشهر التي بقي الطفل الكوبي محتجزاً خلالها في الولايات المتحدة.. ملايين الناس نزلوا إلى الشوارع، ويمكن أن أعطيكم أشرطة سجلت عليها هذه المسيرات، وبإمكانكم بثها إذا أردتم لكي ترى كم هو موحد شعبنا، كم هو مناضل، هذه المجموعات الصغيرة تنتشر في الخارج لماذا؟ لأن وسائل الإعلام الغربية والولايات المتحدة تنشر لها ما تريد، أما هنا فلا أحد يعرفها أو أنت تحدثت عن المعارضة، ولا أحد يعرف أين هي هذه المعارضة، هناك مجموعات صغيرة جداً تدعمها الولايات المتحدة دعما مطلقا.

نحن لدينا حزب واحد لكنه لا يرشح ولا يُنتخَب، لدينا نظام انتخابي قد يكون من المفيد أن تتعرف عليه، ففي هذا النظام يقوم المواطنون أنفسهم

بترشيح ممثلي التقسيمات الانتخابية، هناك أربعة عشرة ألف مندوب يمثلون جميع التقسيمات، وهؤلاء المندوبون يشكلون جمعيات البلدية، الحزب لا يرشح هؤلاء الأشخاص بل المواطنون هم الذين يرشحونهم، فقط المواطنون، لنقل في إحدى مراكز العاصمة الانتخابية قد يكون عددهم ألفاً وخمسمائة ناخب يرشحون ممثليهم ويوافقون عليهم، ومن ثم ينتخبهم الناخبون، ويجب أن يكون عدد المنتخبين اثنين على الأقل، ولا ينبغي أن يتجاوز ثمانية من كل مركز انتخابي، هؤلاء الأربعة عشر ألف مندوب الذين يشكلون كل في بلديته، الجمعيات البلدية هم يرشحون وينتخبون بدورهم إدارة البلديات المحلية، وهم يرشحون مندوبين إلى الجمعيات الإقليمية ومندوبين إلى الجمعية الوطنية، ويجب أن يتم التصويت بشكل سري ومباشر هذا شيء لا يوجد في أي بلد آخر بكل صراحة، من بين ستمائة نائب في الجمعية الوطنية هناك خمسون في المائة ٥٠٪ تقريباً من مندوبي التقسيمات الانتخابية، أي من أسفل الهرم، نحن فخورون بنظامنا الانتخابي وهو أكثر ديمقراطية من ذلك الموجود في الولايات المتحدة الأمريكية، وحتى في الدول التي تتبع نظاماً برلمانياً من الذي يعد لائحة المرشحين؟ إنهم رؤساء الأحزاب، وبعد ذلك لا يستشيرون الشعب، ولا يمكن تغيير أي من المنتخبين.

غسان بن جدو(قناة الجزيرة):هناك قضية رأي وتعبير، يعني هل مسموح بنقد السيد كاسترو في كوبا؟ هل مسموح انتقاد السيد كاسترو في كوبا؟

الرئيس فيدل كاسترو:

لو شاهدت برامج الدائرة المستديرة التي تعرض على التلفزيون لوجدت أننا

نعرض أجزاء من برامج تلفزيونية أمريكية ينتقدوننا فيها، ويمكنك أن تتخيل طبيعة شعبنا، إنه شعب ثوري، ما رأيك في أن وسائل الدعاية التي تستخدمها المعارضة هي وسائل الإعلام الأمريكية ووسائل إعلام الغرب وهم أعداء الثورة الكوبية؟ أما وسائل الدعاية التي تستخدمها كوبا فهي وسائل الثورة، وطبعًا لا يمكن لهم أن يستخدموا هذه الوسائل، لكن هناك مائة ساعة من البث الإذاعي كل أسبوع موجهة إلى كوبا من الولايات المتحدة الأمريكية، وهم يواصلون رسائلهم وتصريحاتهم عن طريق الإذاعة إلى كوبا، بينما وسائل الإعلام داخل كوبا تسيطر عليها الثورة، فنحن بلد محاصر ومغلق ويتعرض للاعتداءات، لذلك من حقنا أن نستخدم جميع الوسائل للدفاع والحفاظ على الثورة، ليس فقط على الصعيد الاقتصادي، وإنما أيضًا على الصعيد السياسي والفكري، نحن نخوض معركة فكرية كبرى ضد الولايات المتحدة الأمريكية وضد الغرب، وسؤالك يضخم ما سميته بالمعارضة، هذه المعارضة عبارة عن مجرد مجموعات صغيرة من الأشخاص الذي يتقاضون أجرهم من الولايات المتحدة لمعارضة كوبا.. لا، الثورة لديها قوتها ونحن في كوبا لدينا آراؤنا العفوية الطبيعية، نستطيع أن نقيس مدى حماس الشعب، وأن نعرف ما هي أفكاره بخصوص كافة المواضيع، أنا أؤكد لك أنها آراء طبيعية وليست مفروضة، آراء تتعلق بالمشاكل الأساسية للثورة الكوبية هناك أكثر من ٩٥٪ من الناس يدعمون سياسات الثورة بكل جوانبها، وما تسميه أنت معارضة لا وجود له إطلاقًا، هذا وهم، ما قلته لي يؤكد ما أقوله لك الآن، فهذه المجموعات وجدت لأداء هذه المهمة بالتحديد التي ذكرتها لك، فأنت تعرفها جيدًا، أما هنا فلا أحد يعرفها.

إن النظام الانتخابي الموجود لدينا والذي شرحته لك قبل قليل يمكن أن يسمح لهذه المجموعات لو أن لديها قوة فعلاً أن تصل إلى السلطة، وأن تصل إلى الجمعية الوطنية، وتتحدث هنا على التلفزيون، وهنا يمكن لهم أن يشاركوا عن طريق ترشيح وانتخاب ممثلين عنهم، في هذا النظام الانتخابي يمكن لأي قوة حقيقية لمعارضة حقيقية أن تسيطر على السلطة وأن تحصل على دعم الشعب.

غسان بن جدو: تذكر سيادة الرئيس بأنه حتى في عهد الاتحاد السوفييتي السابق، كان الوضع يبدو جميلاً، وكان يبدو أن الشعب كله مع نظام الحكم الشيوعي في موسكو، ومع ذلك عندما انهار فجأة ، وجدنا أن المعارضة كانت تحت القمقم، كانت مختبئة وفجأة ظهرت، ألا تخشى أن هذا الأمر يمكن أنه يكون حاصلا في كوبا أيضًا؟

الرئيس فيدل كاسترو:

هذا لن يحدث أبداً في كوبا لأننا لم نرتكب الأخطاء التي ارتكبوها هناك.

غسان بن جدو: ما هي الأخطاء الكبرى التي ارتكبها الاتحاد السوفييتي وأدت إلى انهيار النظام الشيوعي؟

الرئيس فيدل كاسترو:

الأخطاء كثيرة، وليس من السهل أن أشرحها لك، أنت قلت لي أن المقابلة مدتها نصف ساعة، وإذا كنت سأحدثك عن هذه الأخطاء فسأحتاج إلى ثلاث ساعات، من بين هذه الأخطاء نشر البيروقراطية بشكل كبير على جميع الأصعدة، وفقدان الاتصال المباشر مع الشعب، وهذا لم يحدث أبداً في كوبا، فالمبادرات الشعبية مستمرة، والاتصال المتواصل مع الشعب لا ينقطع.. قلت

إني في السلطة منذ سنوات طويلة، أنا أناضل منذ واحد وأربعين عامًا ضد أقوى دولة على وجه الأرض، وضد الحصار الذي فرضته على كوبا، ضد أفكارها، كنا مستعمرة لهذا البلد، ونحن الآن بلد مستقل ليس فقط من الناحية القانونية، بل من الناحية الأيديولوجية والسياسية، نحن ندافع عن ثقافتنا أفضل من أي بلد آخر على وجه المعمورة، لأن معظم البلدان الأخرى فقدت ثقافتها بعد أن دمرتها الثقافة السطحية التي تنتشر بشكل واسع جداً في جميع أنحاء العالم، ما هي الأفلام التي تعرض على التلفزيون في أوروبا وفي بلدان العالم الثالث؟ إنها برامج وأفلام من إنتاج نظام رأسمالي لا يمت لنا بصلة، ولا توجد بينه وبين نظامنا أي قواسم مشتركة، بالعكس فنحن اكتشفنا إمكانيات الاشتراكية، الاشتراكية ووحدة الشعب هما ما مكننا من المقاومة، أنا أتحدى أي شخص في العالم من أي بلد كان أن يشرح لي كيف كان يمكن لكوبا أن تصمد وحدها خلال أكثر من أربعين عامًا لولا الاشتراكية ووحدة الشعب؟ وكيف قاومت محاولات تدمير نظامها السياسي؟

هذا هو السؤال الحقيقي الذي ينبغي طرحه بدلاً من التحليلات السطحية للأمور، وإن ما فعله شعبنا الكوبي هو مفخرة حقيقية لنا خلال هذه السنوات، اسمح لي أن أقول لك إن السلطة لا يمكن الدفاع عنها هنا بالقوة، بل عن طريق إجماع الشعب ودعم الثورة إضافة إلى التكتيك الصحيح للنضال.. لا تنس أننا كنا محاربين وأنه لم يبقَ منا في لحظة من اللحظات سوى سبعة رجال معهم سبعة بنادق، وخلال سنتين استطعنا أن نقهر جيشًا كان مؤلفاً من سبعين – ثمانين ألف رجل خلال سنتين فقط، وانطلاقاً من لا

شيء ناضلنا، وطبعًا ما كان لنا أن ننتصر لو لم نتبع التكتيك الصحيح، ولو لم نحظ ونحافظ على دعم الشعب لنا، لولا هذا الدعم ما كان بإمكاننا أن ندافع عن الثورة أمام قوة بحجم الولايات المتحدة الأمريكية، ونحن لم ندافع باستخدام أسلحة نووية أو طائرات أو أسطول بحري، بل دافعنا عن الثورة بفضل ملايين الرجال والنساء المستعدين للموت، ولا شك في أنك تعرف أنه عندما تقرر البلدان الصغيرة أن تناضل بإمكانها أن تقهر أي قوة عظمى، والأمثلة على ذلك كثيرة: فيتنام وبلدان أخرى في العالم، الجزائر قهرت الجيش الفرنسي، الفلسطينيون يقاومون خلال أكثر من أربعين عامًا تحت الاحتلال، اللبنانيون قاوموا في بلدهم الصغير، واليمنيون ناضلوا أيضًا ضد الاستعمار البريطاني، هذا يثبت أنه عندما يتبنى أي شعب قضية ما ويدافع عنها حتى النهاية لا يمكن قهره، كوبا قاومت حتى نالت الاستقلال، وتحولت إلى أكثر بلدان العالم حرية، أتعرف لماذا؟ لأن كوبا لا تعتمد على صندوق النقد الدولي ولا على البنك الدولي، ولا تعتمد بأي شكل من الأشكال على الولايات المتحدة، نحن نستمتع باستقلال تام، وبالحق في قول الحقيقة، وهذا لا يستمتع به أي شعب آخر في العالم.

أعياد كوبا الوطنية

يحتفل الكوبيون بعدة أعياد وطنية ترمز لكفاحهم ضد الاستعمار، وقد كان الشعب أثناء حكم الدكتاتورية البغيض يحتفل بها رغم الإرهاب البربري، ولكن على نطاق محدود، أما اليوم في عهد الثورة الأخيرة فإن

الشعب بأسره يحتفل في هذه الأعياد بحماس وطني لايوصف، كما يشترك بهذه الأعياد قادة الثورة، وأما أهم هذه الأعياد:

عيد ٢٦ تموز الثوري: يرمز هذا العيد إلى يوم ٢٦ تموز في عام ١٩٥٣، عندما قام عدد من المناضلين الوطنيين، وعلى رأسهم فيدل كاسترو بهجوم على قلعة مونكادا، معلنين الحرب على نظام باتيستا الدكتاتوري وأعوانه، وأعربوا عن إراداتهم التي لا تقهر في التوصل مع الشعب بأسره لتحرير بلادهم من ربقه الاستعمار وعملائه.

عيد النصر: ويقع في اليوم الأول من ديسمبر من كل عام، يوم انتصرت الثورة بقيادة فيدل كاسترو في عام ١٩٥٩ بعد أن دامت الثورة أكثر من ثلاث سنوات، أظهر الشعب الكوبي أثناءها بطولات نادرة.

ويجرى الاحتفال بذكري هذا العيد على هضبة بالقرب من جبال " سييرا مايسترا".

عيد عمال البترول: يجرى الاحتفال في هذا العيد في ٢١ نوفمبر من كل عام، وهو يرمز لكفاح عمال البترول في كوبا من أجل مطالبهم ، ومن أجل استقلال بلادهم، وهو عطلة رسمية لعمال البترول، الذين يعقدون في هذا اليوم عدة مؤتمرات وندوات بهذه المناسبة في كل عام.

عيد الإصلاح الزراعي: ويقع في يوم ١٧ مايو من كل عام ١٩٥٩ حيث صدر قانون الإصلاح الزراعي في (لاباتا) من مقاطعة (أورينتي)، وفي نفس الكوخ الشهير الذي التجأ إليه فيدل كاسترو لكي ينظم الثوار بشكل سري وعلى خلايا صغيرة في عهد باتيستا عام ١٩٥٦.

وفي كل عام يحتفل الفلاحون والعمال الزراعيون بهذا العيد، الذي يرمز إلى تحويل الفلاحين من معدومين جائعين إلى مالكي أراض.

عيد الحرية للطلبة: يحتفل الطلبة في هذا العيد يوم٢٧ نوفمبر من كل عام، وهو يرمز لكفاح الطلبة في المدارس والجامعات من أجل حرية واستقلال كوبا، وبهذا اليوم من كل عام تعطل جميع المدارس .

الكوبيون الأطول عمرا

ونتيجة للاستقرار الذي حققته ثورة كاسترو اقتصاديا واجتماعيا صار الكوبيون الأطول عمرا في العالم، بعدما كان متوسط الأعمار منخفضا قبل الثورة بسبب الاحباطات المترتبة على الفقر والجوع والمرض،وهو الثالوث الذي أنهك الشعب في حين كان نصف في المائة من عامة الشعب هم الذين يحصلون على ٧٠٪من الدخل و توصلت دراسة نشرت نتائجها مجلة"المشاهد السياسي" البريطانية، إلى أن الاستقرار السياسي والاقتصادي في كوبا ترتب عليه سلوكيات اجتماعية صحية " أهمها الإقلال من الخمر ومن القهوة والسيجار والجنس وهذه الأسباب مجتمعة هي سر طول عمر الكوبيين، حيث تشتهر كوبا بنسبتها العالية جداً من المعمرين الذين تزيد أعمارهم عن المائة. وشملت هذه الدراسة ٥٤ من مائة معمر يتجاوز عمرهم المائة في مقاطعة فييا كلارا، التي تسجل أعلى متوسط عمري على المستوى الوطني (٧٨ عاماً مقابل ٧٦ على مستوى كوبا). وبحسب الدراسة، فإن غالبية المسنين الذين طرحت عليهم الأسئلة لا يزالون في حالة صفاء

ذهني، ويواصلون القيام بأعمال تتطلب جهداً كبيراً بالنسبة لأعمارهم. ونحو ٦٠٪ من هؤلاء الأشخاص من نسل معمرين أيضا، ويتبع ٩٥٪ من هؤلاء نظاماً غذائياً صحياً ومتوازناً، يرتكز على السمك والبيض والحليب ولحم الدواجن والخضار والنباتات،التي يطهونها بقليل من الملح والتوابل الطبيعية. وأسلوب حياتهم نظامي جداً، فلا أحد منهم يفرط في الكحول، لكنهم يستهلكون الكثير من القهوة ويدخنون السيجار. وتشير الدراسة إلى أن لديهم اهتمامات ودوافع معينة بعضها ذات طابع جنسي ، وتسعى كوبا إلى رفع متوسط العمر لدى سكانها إلى٨٠ عاماً بحلول بضع سنوات.

وتجري كوبا العديد من الدراسات الطبية والاجتماعية في هذا الصدد. وفي الجزيرة أكثر من ثلاثة آلاف معمر فوق المائة عام، و٦ ملايين شخص يتجاوز عمرهم الستين أي ١٤ بالمائة من٢٠ مليون نسمة.هم إجمالي عدد السكان.

وتأسس ناد سمى بنادي إل" ١٢٠سنة" منذ بضع سنوات تحت إشراف أوخينيو سلمان حسين، وهو رئيس الفريق الطبي لفيدل كاسترو (٨٠ عاماً) وقد اشرف عليه حين كان يمضي فترة نقاهة إثر خضوعه لعملية دقيقة. ويدرس هذا النادي ويعلم الرأي العام طريقة اتباع نمط حياة مناسب يؤدي إلى حياة مديدة.

الفصل السابع

قاعدة جوانتانامو

٧٠٠محاولة اغتيال ومؤامرة

في كتابه"المشروع الكوبي"ذكر وليام تيرنر من مكتب التحقيقات الفدرالية انه جرت١٥ محاولة لقتل كاسترو في عامي"١٩٥٩-١٩٦١" واعترف الرجل أن معظم المؤامرات انطلقت من قاعدة جوانتانامو البحرية التي استأجرتها أميركا في غفلة من الزمن ولا تريد إعادتها لأصحابها.

وفي عام ١٩٧٥ قال النائب جورج ماكجفرن أمام لجنة العلاقات الخارجية بعد أن التقى بكاسترو في هافانا:

-يجب أن نعترف بأنه جرت مائة محاولة لقتل كاسترو مع نائبه كارلوس دورديجز.

وكشفت إحدى اللجان المتخصصة في الكونجرس في معرض تحليلها لنشاطات الاستخبارات المركزية عن ثمانين محاولة لاغتيال الزعيم الكوبي.

دخل الزعيم الكوبي فيدل كاسترو موسوعة " جينز" للأرقام القياسية بعدد محاولات اغتياله التي حاولت الاستخبارات الأميركية تنفيذها ضده وتتراوح بين ٦٧٥ و٧٠٠محاولة تراوحت بين تنظيم انقلابات عن طريق عملاء أو إنزال عملاء مسلحين على الشاطئ في عملية غزو وصولا إلى إطلاق الرصاص عليه، لكن جميع هذه المحاولات فشلت لسبب رئيس هو توفر حضانة شعبية حمته من هذه المغامرات التي شكلت في مجموعها دليلا دامغا على فشل أكبر وأغنى جهاز استخبارات في العالم .

الاستعمار الأميركي لم يكتف بالحصار الاقتصادي الذي ضربه حول كوبا، واستمر حوالي نصف قرن، ولم يتوقف عن الحرب الدعائية ضد كاسترو ونظامه الثوري مع أنه أوقف حملاته ضد عدوه السابق الكبير الاتحاد السوفيتي، بل مازال يدبر المؤامرات ويشن حملات كراهية حتى وكاسترو على فراش المرض، ولسنا نرى نظاما سياسيا في العالم تعرض لما تعرض له النظام الكوبي من مؤامرات استهدفت رموزه ومنهجه ودوره ، لكننا نرى أنه مع اشتداد المؤامرات وتنوعها يزداد النظام قوة ومنعة ،وينتج نظما ثورية تعتبره القدوة والمثال في الوطنية والتنمية المستقلة .

لم يكن شيوعيا ولكن شُبّه لهم

كانت هناك محاولات مخلصة من كوبا لإقامة علاقات طبيعية وطيبة مع واشنطن، وكانت هناك مبادرات لحسن الجوار واحترام الاستقلالية، بما في ذلك زيارة قام بها كاسترو إلى واشنطن وبدلا من أن تفتح واشنطن صدرها لاستيعاب اقرب الجيران الذي يقع على بعد٩٠ ميلا من حدودها فإذا بها تعامله بتوجس واستخفاف وارتياب ، وبدلا من أن تقدم له الدعم التكنولوجي لكي تبدأ الدولة رحلة تنمية راحت تحيك المؤامرة تلو المؤامرة مستعينةً بعملاء باتيستا والإقطاعيين، أو تحريض بعض حكام دول أميركا اللاتينية للمساهمة في عملية تدخل مسلح لقلب نظام الحكم في هافانا .

لقد سعى كاسترو إلى فتح صفحة جديدة مع الولايات المتحدة، وذهب إلى واشنطن ليلتقي الرئيس إيزنهاور ، ولكن الأخير كان يلعب الجولف قال

بصلف أميركي:"ليس عندي وقت لكاسترو" .

وهذه العبارة القاسية لن تغادر ذاكرة القائد الكوبي الذي تحول إلى الفكر الماركسي لأسباب عديدة من بينها هذا الصلف الرأسمالي الذي مثله أيزنهاور، ففي بداية ثورته قال كاسترو" أنا لست شيوعيا، وحركتنا ليست شيوعية، الثورة صاحبة مذهب إنساني لايقبل استغلال الرأسمالية ولا يقبل قتل الشيوعية للحرية الشخصية" .

والواقع أن الحزب الشيوعي الكوبي لم يشترك في حرب التحرير حتى وان كان هناك بعض الشيوعيين ، وإمعانا للتدليل على أن كاسترو لم يكن شيوعيا أنه اصطدم بمانويل أورينا رئيس الجمهورية الذي عين بعد فرار باتيستا لإرضاء الثوار، لقد أراد أورينا أن يحذف كلمة الله من الدستور الكوبي لأنها تتكرر في عدد من المواد، فقال له فيدل: إن بقاء كلمة الله في الدستور لايعني أننا ثورة دينية، ولكن حذفها يعني أننا ثورة ملحدة.. ونحن ثوار مؤمنون:"

القبض على تمثال الحرية

من كان يتصور أن الولايات المتحدة التي ملأت صحف العالم كلاما عن الحرية والديمقراطية وحق الشعوب في اختيار نظامها السياسي والاقتصادي هي نفسها التي تشجع عصابات على حرق المحاصيل في الحقول والتسلل إلى المصانع و "تلغيمها"ودعم مجرمين لزرع عبوات ناسفة لهز الاستقرار والامن في بلد مجاور يتمتع بالاستقلال التام في عرف القانون الدولي؟

من كان يتخيل أن تمثال الحرية المشيد في نيويورك لكي يستقبل الوافدين إلى واشنطن تعبيرا عن تقدير الشعب الأميركي للحرية سيكون شاهدا على جرائم قادة الحزبين الجمهوري والديمقراطي على السواء ضد شعب كل قضيته أنه يريد العيش في سلام بدون أن يهدد أحدا أو يهدده أحد؟

الواقع أن كوبا تحررت في مرحلة دولية في غاية الصعوبة، حيث كان الاستقطاب بين القطبين هو سيد الموقف، وكان يمكن لكوبا أن تكون موالية لواشنطن مثلما حصل في عدة دول لاتينية لولا وجود قيادة ثورية مستقلة وليس قيادة ماركسية لان القيادة الكوبية في ذلك الحين لم تكن حسمت خيارها ولا كان الحزب الشيوعي قد صار الحزب القائد، وصحيح انه كان في مجلس قيادة الثورة بعض الماركسيين، لكن الأغلبية كانوا وطنيين غير ممنهجين.

ويكمن الخطأ الأكبر عند الإدارة الأميركية التي أصرت على منهجها في حماية استثماراتها والتعاطي مع أي حركة استقلالية باعتبارها معادية للمصالح الأميركية ، وهذا نفسه ما حصل مع مصر الناصرية التي ناصبتها واشنطن العداء رغم حرص الضباط الأحرار على إقامة علاقة احترام مع الإدارة الأميركية وفتح باب التعاون في كافة المجالات بما في ذلك التعاون العسكري ورغبة مصر في شراء صفقة أسلحة اميركية، لكن التعنت الأميركي والرغبة في استقطاب أنظمة عميلة وليس أنظمة حرة هي التي أدت إلى إغلاق أبواب التعاون وبخاصة بعد الشروط التي فرضتها لتمويل بناء السد العالي ١٩٥٦، ما دفع عبد الناصر إلى تأميم قناة السويس والانفتاح على الاتحاد السوفيتي لتمويل السد والحصول على أسلحة ومصانع.

لقد وقف الشعب و ميليشياته مع القيادة الوطنية،وساهمت "فرق اليقظة" التي تم تشكيلها من طلاب الجامعة المتطوعين من الجنسين في حراسة المصانع والمزارع، وتمكنت من تلقين هؤلاء العملاء دروساً مهمة لإنها أحبطت الخطط الأميركية الرامية إلى إغراق كوبا في الفوضى، حتى يستطيع باتيستا وأعوانه العودة إلى حكم البلاد.

ومن اجل حماية استثماراتها في كوبا وإجبار السلطة الثورية للخضوع إلى إرادة الاحتكارات الأميركية، مثلما كان الحال في عهد باتيستا ومنع توزيع الأراضي على الفلاحين لأن هذه الأراضي صارت تحت سيطرة رأس المال والإقطاع الأميركي وعدم تمكين الثورة من بناء مصانع لتكرير قصب السكر تعمدت الإدارة الأميركية أكثر من مرة إطلاق طائرات قاذفة فوق الأراضي الكوبية، فكانت تدمر المصانع والمنازل وتحرق المزارع في حملة ترويع وإرهابه، وتؤكد التقارير العسكرية الكوبية أن الطائرات الأميركية كانت تضرب مدارس الأطفال برصاص من عيار٥٠ مليمتر.،ما أسفر عن خسائر بشرية ومادية كبيرة غير أن الأخطر هو أن هدف هذه الهجمات هو إقناع الشعب الكوبي أن النظام الثوري لن يجلب عليهم سوى الدمار والخراب والقتل وبالتالي الانقلاب عليه.

طيارون إسرائيليون في جيش المرتزقة

ويقود هذه الطائرات مرتزقة أجانب أجرهم باتيستا، وأشرفت الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية على تدريبهم خارج كوبا بتمويل من الإدارة الأميركية ورعايتها وبتدخل من أجهزة استخبارات دول مجاورة

حاولت استقطاب بعض العناصر التي كانت مستفيدة من الاحتكارات الأميركية ، وقد شكلوا بعض الخلايا السرية التي خططت لعمليات تخريب داخل البلاد، أو تهريب النقد الأجنبى لإحباط البرامج التنموي الذي وضعته الثورة كما قاموا بتحريض الرأسمال المحلي والأجنبي على مغادرة البلد بهدف عمل فراغ اقتصادي وارتباكات تؤثر على احتياجات الجماهير.

وقد وصف كاسترو أعمال التخريب المتعمدة بقوله:

"إن المستعمرين يقدمون على أعمال الأذى بصورة مفاجئة، مما يجعل الأمة لا تعلم أن الأذي سيلحق بها، هذه هي سياسية الحكومة الأميركية، إنها سياسة حكومة أثارت عداء العالم عليها، إنها سياسة حكومة لا تستطيع أن تزور أية دولة من دول أميركا اللاتينية دون أن يعارضها الشعب والطلاب، إنها سياسة حكومة لا يستطيع نائب رئيسها أن يزور أية دولة اميركية لاتينية دون أن يرشق بالبيض والحجارة".

الزعيم كاسترو كانت لديه أدلة قاطعة على تورط الولايات المتحدة في أعمال عدوانية ضد كوبا، من بينها.

اعتقال ٢٥٠ إرهابيا من المرتزقة وفي أكتوبر١٩٦٠ اعترفوا بأنهم من أعوان باتيستا والاستخبارات الأميركية تم تكليفهم بإعداد تفجيرات في منشآت صناعية وحكومية في توقيت واحد لبث الرعب في البلاد وإثبات أن الشعب تضرر بوجود حكومة ثورية ، وبعد شهر واحد افتتح الاستعمار عدة مراكز علنية ومعروفة كنوع من التحدي والاستفزاز في جواتيمالا وفلوريدا لتدريب الخونة على مختلف أنواع التخريب والاغتيالات.

وفي ديسمبر من نفس العام أرسلت الولايات المتحدة ١٣ سفينة حربية إلى خليج (بورتو باريوس) في شرقي جواتيمالا لاستفزاز كوبا والضغط عليها.

حاملة طائرات أميركية على الشاطئ

وعندما قام شعباً جواتيمالا ونيكاراجوا بانتفاضتين ضد حكام بلديهما الذين يتآمرون على كوبا، أرسلت الحكومة الأميركية حاملة الطائرات " سانجري لا" وأربع بوارج إلى الساحل الجنوبي الغربي من كوبا، بشكل استفزازي، وحشدت قوات عسكرية كبيرة في البحر الكاريبي بالقرب من الساحل الكوبي، وأجرت مناورة بالذخيرة الحية شملت عملية إنزال للقوات على الشاطئ وهي رسالة واضحة للقيادة الكوبية بأنها مستهدفة، ولمزيد من التصعيد والاستفزاز أصدرت الخارجية الأميركية بيانا تحذر فيه رعاياها من البقاء في كوبا، ثم بادرت إلى ترحيل الرعايا الأميركيين، وقامت عدة طائرات أميركية بحمل كميات كبيرة من الاسلحةإلى القاعدة الأميركية جوانتانامو الموجودة شرق كوبا، وللمرة الثانية قام الأميركيون بأعمال استفزازية، فقد أجروا "مناورة" حربية في قاعدة (غوانتانامو) اشتركت فيها الدبابات والطائرات، واتخذت المناورة شكل هجوم على القاعدة، ثم تقوم القوات برده، وقال المراقبون إن هذه المناورة التي هي إظهار للقوة الاستعمارية تشكل أيضاً "تمريناً" على تنظيم استفزاز ضد القاعدة يتخذ ذريعة لشن هجوم على الحكومة الثورية في هافانا.

قاعدة جوانتانامو

دخلت هذه الجزيرة أو القاعدة التاريخ من أسوا أبوابه، وعرفها العرب جزيرة سيئة السمعة شهدت إدانة للسياسة الأميركية لجهة ازدواجيتها، فهي لاتمل الحديث عن احترام حقوق الإنسان وفي القلب منها حق التقاضي أمام القاضي الطبيعي وعدم اعتقال أي إنسان مالم يثبت تورطه في ارتكاب جرائم يعاقب عليها القانون، في حين أن الإدارة الأميركية هي نفسها التي اعتقلت مئات الشباب المسلم في أفغانستان ونقلتهم إلى جزيرة جوانتنامو لسنوات في زنزانات فردية دون أن تقدم دليلا على إدانتهم أو تحيلهم إلى القضاء، ونقلت وكالات أنباء عالمية ومحطات فضائية صور المعتقلين وهم مقيدون بسلاسل حديدية أثارت في الأذهان ذكريات الانتهاكات التي كانت تحدث في القرون الوسطى وكانت سببا في انطلاق عصر الثورات الأوروبية.

وتشكل هذه القاعدة البحرية الأميركية خطراً كبيراً على كوبا، وتعتبر من أحسن الموانئ الطبيعية في النصف الغربي من الكرة الأرضية، وقد حصلت عليها الولايات المتحدة عام١٩٠٣ بموجب عقد إيجار دائم مع أرض محيطة بها بإيجار ضئيل جداً قدره ٣٣٨٦ دولارا سنويا.ومنذ أن انقطعت العلاقات بين البلدين حرصت واشنطن على أن ترسل إلى الحكومة الكوبية شيكا بقيمة إيجار الجزيرة، ورفض كاسترو استلامه لذلك يوضع في حساب خاص في البنك المركزي الكوبي.

وقد صرفت الولايات المتحدة عليها مبلغاً قدره ٧٦ مليون دولار، وترفض كل المحاولات المبذولة لإعادتها إلى الشعب الكوبي لأن عقد إيجار الجزيرة يتضمن

بندا يتيح لواشنطن فقط حق إلغاء العقد ولا يمنح هذا الحق لكوبا..

في عام ١٩٥٥بهدف تجهيزها كقاعدة بحرية وجوية متقدمة للدفاع عنها أو لشن هجمات على الدول اللاتينية التي لا تنصاع للمخططات الأميركية وفي هذه القاعدة ما يزيد عن ٤٠ الف جندي وضابط مع عائلاتهم، وفيها عشرات البوارج ومطار كبير يحتوي عشرات الطائرات والزوارق الحربية والمصفحات وغيرها، وتبلغ مساحتها ٤٥ ميلاً مربعاً من وهي مليئة بالخلجان والتلال والسهول، وفيها عدد كبير من أشجار الصبير.

وقد دخلت في وقت مبكر من الستينيات في القرن الماضي في إطار المساومة بين أميركا والاتحاد السوفيتي بعد عملية خليج الخنازير الفاشلة(١٩٦١)، ففي أعقاب القرار السوفيتي بسحب قواته المتمركزة في كوبا، علق المسئولون الكوبيون بأن هذا القرار الفردي غير المشروط من قبل الاتحاد السوفيتي، دون تشاور مسبق مع كوبا، يعد بمثابة إعطاء الضوء الأخضر للولايات المتحدة للتدخل عسكرياً في كوبا، وأعربوا عن ترحيبهم بالقرار فقط إذا ماتزامن مع انسحاب القوات الأمريكية المتمركزة في قاعدة "جوانتانامو" وهي القاعدة التي حصلت عليها الولايات المتحدة بموجب اتفاقية بين البلدين عام ١٩٠٣ تجددت عام ١٩٣٤، وتعد أقدم قاعدة أمريكية على أرض أجنبية والوحيدة في أراضى دولة شيوعية ، حيث تقع على الساحل الجنوبي الشرقي لكوبا، على صورة ميناء ذي مياه عميقة يشغل مساحة ٤٥ ميلا مربعا من الأرض والمياه، وتضم قاعدتين جويتين تحويان سربا للطائرات المقاتلة التي توفر الدعم الجوي لوحدات الأسطول، ويبلغ

حجم القوات الأمريكية في القاعدة حالياً ما يقرب من عشرة آلاف جندي من مختلف التخصصات، وفي كل عام تتوجه حوالي مائة سفينة أمريكية للقاعدة بهدف التدريب لفترة شهرين في المياه الهادئة جنوباً بين كوبا وجامايكا وهاييتي.

وتكتسب القاعدة أهمية إستراتيجية إقليمية لا تقتصر على كوبا حيث تحقق تواجداً أمريكياً مباشراً في البحر الكاريبي، كما توفر إمدادات وتسهيلات التدريب للقوات الأمريكية مماينفي وجود النية مطلقاً لدى بلاده لإخلاء القاعدة الهامة.

وبرغم اقتناع الإدارة الأمريكية بأن سحب القوات السوفيتية من كوبا سوف يضعف من موقف كاسترو بشكل كبير، يغلب على صانع القرار الأمريكي التردد في اتخاذ قرار بالتدخل العسكري في كوبا للتعجيل بسقوط كاسترو والقضاء على آخر نظام شيوعي في نصف الكرة الغربي، ويرجع هذا التردد حسب دراسة أعدها المعهد الدولي للدراسات السياسية في نيويورك- إلى عدة عوامل أهمها:-

١- باختفاء الاتحاد السوفيتي بالتبعية اختفى أي تهديد عسكري من طرف كوبا، وأصبحت الأخيرة لا تشكل أي تهديد أو مدعاة للقلق الأمريكي في ضوء ما يسمى بالنظام العالمي الجديد والذي تحددت ملامحه فيما يخص التدخل العسكري- في ضوء تغير مفهوم العدو بحيث صار هناك تناغما إلى حد بعيد بين أميركا وروسيا في مواجهة العدو الجديد وهو الراديكالية الإسلامية ممثلة في التيارات الإسلامية الجهادية في الشرق الأوسط وأفغانستان بالنسبة لأميركا، والشيشان بالنسبة لروسيا.

هزيمة أعوان أميركا

من هنا حصلت مراجعات في البنتاجون شارك فيها عدد من خبراء الاستراتيجية الأميركية لمناسبة مرور ٦٠ سنة على التدخل الأميركي لدعم أعوان باتيستا ضد الثورة الكوبية وانتهت وحدة الدراسات اللاتينية إلى أن الإدارة الأميركية أخطات حين ناصبت ثورة كاسترو العداء ولم تفطن إلى أهمية التعاون المتوازن مع ثورة جديدة لها طموحات وطنية، وليست في تصادم مع الإدارة الأميركية.

وكانت الإدارة الأميركية فقدت صبرها ووعيها حين قررت الدفع بجيش من المرتزقة أعوان باتيستا وأقنعتهم بإمكانية غزو كوبا، والإطاحة بنظام الحكم الثوري وان يحل هؤلاء محل حكومة الثورة وان تطلق أياديهم في ثروة البلاد يفعلون فيها ما يريدون

وهكذا أنزلت الحكومة الأميركية في سبتمبر١٩٦٠ على الساحل الكوبي بسنتياجو كتيبة من انصار باتيستا المناوئين للثورة يقودهم الأميركيان تومبسون وروبرت فولر، لكن كاسترو اكتشف المؤامرة قبيل وقوعها ، لكنه أمر شباب الثورة بالانتظار حتى تنزل كتيبة عملاء أميركا إلى الشاطئ الكوبي ثم يتم اصطيادهم كالجرذان دفعة واحدة وتقديمهم إلى العالم باعتبارهم هدية العالم الحر إلى الشعب الكوبي، وهذا ماحصل بالفعل حيث تمكن الكوبيون من القبض على أطراف المؤامرة وأحيلوا جميعاً إلى المحكمة الثورية بسنتياجو، فحكمت على بعضهم بالإعدام رمياً بالرصاص لأنهم قاموا بعدة أعمال تخريبية داخل أراضي الجمهورية الكوبية، ونفذ فيهم

حكم الإعدام على مرأى الجماهير، وفي مقدمتهم الأميركيان.

وحاولت الولايات المتحدة الأميركية تأليب حكومات بعض الدول اللاتينية ضد كوبا، وقام أيزنهاور ونائبه نيكسون بزيارة عدد من العواصم اللاتينية من أجل تحقيق الهدف لكن دول القارة رفضت التعاون مع واشنطن ضد دولة لاتينية لم تهدد أميركا، ولا حاولت غزوها بل على العكس فقد تعرضت هي إلى عشرات المؤامرات وبالتالي فشلت مهمتهما ،والطريف أن شعوب هذه الدول كانت تستقبل موكبيهما بالبيض والحجارة والطماطم الفاسدة وتمزيق العلم الأميركي، وبالهتافات المدوية بسقوط الاستعمار الأميركي وادانة التدخل المسلح ضد كوبا، وقد عمت التظاهرات شوارع بيرو وبناما وبوليفيا وفنزويلا وغيرها.

الأشواك في قلب كوبا

ولخص وزير خارجية كوبا راؤول روا موقف بلاده قائلا: "إن كوبا لا تواجه أي خطر من خارج القارة، والخطر الوحيد الذي تواجهه هو من داخل القارة، ومن الولايات الأميركية بالذات، ونحن ذاهبون إلى كوستاريكا لا لندافع عن أنفسنا، وأنما لندافع عن شعوب أميركا اللاتينية ضد هذا الخطر".

وأنتقد بعنف تورط بعض الحكومات اللاتينية في سياسات معادية لكوبا وللضمير الإنساني ودعا إلى نبذ هذه الحكومات العميلة وقال:

"إن العدالة تتطلب شجب كل من المخلوق- الجمهورية الدومينيكية- ووالده- الولايات المتحدة، وأن نظام الحكم الدومينيكي الذي يتبعه (رفائيل

تروهيلو) خلق بفضل المساعدات الأميركية، واتبع السياسة التي وضعتها الولايات المتحدة".

وختم كلمته الحماسية بقوله:

"إذا وافقت منظمة الدول الأميركية على معاقبة الجمهورية الدومينيكية يجب أن يقف الموقف نفسه من الولايات المتحدة".

والواقع أن شعوب أميركا اللاتينية تعاطفت مع الثورة الكوبية،وجسدت ذلك في تظاهرات واجتماعات عديدة في (مونتفيديو) عاصمة الأورجواي، وعقدت النقابات المهنية والعمالية عدة اجتماعات لنصرة كوبا، وأعلن رئيس اتحاد الطلبة فى الأورجواي بأن أي مؤتمر يتم تحت الرعاية الأميركية يخطط لأذى كوبا هو مؤتمر للخدم الذين ينفذون كل ما يأمرهم به أسيادهم.

وفي (ماراكيبو) فنزويلا جرت تظاهرة كبيرة تأييداً لكوبا، أحرق المتظاهرون فيها العلم الأميركي في الشارع أمام عدسات مصوري التليفزيونات الأميركية والأوروبية ولم يكن معهودا في ذلك الحين - كما هو الحال حاليا -حرق العلم الأميركي الأمر الذي ترك تأثير الصدمة على الرأي العام الأميركي الذي كان يعتقد أن حكومته تمثل الخير وتدافع عن المثل العليا ولا تدافع فحسب عن الاحتكارات الرأسمالية..

وشهدت بناما مظاهرات عارمة تدين المؤامرات الأميركية على كوبا بما في ذلك اجتماع عقده بعض وزراء خارجية دول أميركا اللاتينية شرع للتدخل العسكري في كوبا في سابقة لم تعرفها القارة من قبل الدول الأميركية ، و صرح وزير خارجية بنما:"إننا نعتبر أنه يوجد في كوبا حكومة

تمثل الشعب وتعبر عن إرادته، ويجب أن يسمح لكوبا أن تقرر مصيرها بنفسها".

ثم انتقد سياسة الولايات المتحدة تجاه دول أميركا اللاتينية فقال:"يجب على دول أميركا اللاتينية أن تنبذ الدور الذي ورد في التوراة عن الرجل الذي يلتقط فتات الخبز عن مائدة الغني".

فضيحة نيكسون-جيت

وجرت مظاهرات تأييدا لكوبا في التشيلي وبيرو والأرجنتين وهايتي والمكسيك والبارغواي وغيرها من بلدان أمريكا اللاتينية ، وامتدت إلى عدة دول في العالم الثالث والكتلة الشرقية ، وصار كاسترو ورفيقه جيفارا نموذجا ثوريا عالميا،بينما دخل نيكسون التاريخ الأميركي والعالمي من باب الفضائح إذ ثبت في منتصف السبعينيات حين كان مرشحا في الانتخابات الرئاسية أنه كان يتجسس على منافسه في الانتخابات الأميركية في الفضيحة المعروفة باسم"ووترجيت".

وهذا هو الفرق بين زعيم وطني اخلص لشعبه وانحاز إلى ملح الأرض فاحترمه الناس في أرجاء الدنيا حتى في داخل الولايات المتحدة وحاكم آخر راح يتجسس على منافسه في الانتخابات وزرع آلات تنصت داخل مقره الذي يدير فيه العملية الانتخابية فكان مصيره القائمة السوداء مثل آخرين سبقوه وهم الذين دبروا المؤامرات ضد الشعب الكوبي.

الفصل الثامن

رقصة الموت في خليج الخنازير

أزمة الصواريخ السوفيتية

هناك رقصة التانجو

وهناك رقصة السامبا

ولكل شعب رقصته الفولكلورية التي تعكس ثقافته وحضارته؟

لكن ماذا عن رقصة الموت النووي؟

هكذا ندخل إلى أزمة الصواريخ الكوبية عام ١٩٦٢والتي وضعت العالم على كف حرب نووية يمكن أن تأكل الأخضر واليابس لمجرد خطأ في الحسابات، ونسال عن مدى تورط الدولتين العظميين فيها، وكيف تمت معالجتها؟

لايمكن النظر إلى هذه الأزمة بمعزل عن تطورات العلاقات الكوبية الأميركية والتي بدأت بمبادرة كوبية تمثلت في زيارة قام بها كاسترو إلى واشنطن ولم يجد معاملة تليق بزعيم ثورة ،ورئيس دولة وأدرك أن واشنطن لم تبد ارتياحا إلى توجهات كوبا الوطنية وخاصة تأميم البنوك والاحتكارات الأجنبية وقانون الإصلاح الزراعي، وجاء رد الفعل الأميركي عنيفا لجهة إعلانها عدم تقديم القمح -مخفض الثمن لكوبا- ولن تقدم البترول ولا السلاح ثم وصلت إلى الذروة بإعلانها عدم شراء السكر الكوبي.

وكان معنى ذلك تعرض كوبا إلى أزمة مالية خانقة، وإجبارها على الإذعان للمطالب الأميركية.

فماذا يفعل كاسترو؟

لقد كرر تجربة الزعيم العربي جمال عبد الناصر وتوجه إلى الاتحاد السوفيتي بحثا عن التعاون والمساعدة، وفي ١٩ ديسمبر ١٩٦٠ زار جيفارا موسكو والتقى نائب رئيس وزرائها ميكوبان واتفقا على كل شيء، من الإبرة إلى الصاروخ، وردت واشنطن بإجراءات حصار اقتصادي جديدة من بينها منع السياح من السفر إلى كوبا،وفتح الأبواب أمام الرأسماليين الكوبيين الفارين بأموالهم، وأشاعت مناخا خانقا حول كوبا بدعوى أنها رأس جسر للشيوعية في الكاريبي.

وتكهرب الجو

واقع الحال أن الولايات المتحدة هي التي بادرت إلى إثارة الأزمة مع كوبا وكانت هناك ألف طريقة لتلطيف الأجواء وبدء مرحلة من التعاون المتوازن لتحقيق المصالح المشتركة غير أن الأمور سارت في الاتجاه المعاكس، فقد اعتبرت واشنطن أن التعاون السوفيتي الكوبي هو جزء من الحرب الباردة وإن موسكو كسبت نقطة خطيرة في هذا الصراع بدخولها إلى حديقتها الخلفية بدون استئذان ما يفتح المجال أمام تصدير الرياح اليسارية التقدمية في القارة كلها.

من جانبه لم يخف كاسترو ثوريته التي لاتعترف بالجغرافيا ولا الحدود

الدبلوماسية، وفي إحدى خطبه قال"إننا نعد بأن نواصل السعي لنجعل من هذه الأمة مثالا يستطيع أن ينشر الثورة الكوبية في جميع أرجاء أميركا اللاتينية.. وإذا شاءوا اتهامنا بأننا نريد نشر الثورة في جميع أنحاء أميركا فليفعلوا ذلك".

وبدأت حروب التحريض بين واشنطن وهافانا وامتدت من وسائل الإعلام إلى السفارات اللاتينية، وقطعت بعض الدول اللاتينية علاقتها بكوبا بدعوى تدخلها لمصلحة المعارضة، وكونت الولايات المتحدة تشكيلات من دول القارة كإعلان سان خوزيه في كوستاريكا لانتقاد كوبا، تكهرب المناخ في انتظار أمل أو كارثة، وباتت الأوضاع حبلى بالاحتمالات خاصة في وجود الشاب جون فيتز جيرالد كيندي على رأس البيت الأبيض، ورأى الأخير أنه لامفر من التصدي للثائر الكوبي ولو بالقوة لمنع الثورة من الانتشار في القارة وبالتالي خسارة فادحة للاحتكارات الأميركية.

وحانت لحظة الصفر

في أبريل ١٩٦١انطلقت شرارة الأزمة حين دفعت واشنطن بمئات من الكوبيين من أنصار الحاكم السابق باتيستا إلى الشاطئ الكوبي المعروف باسم خليج الخنازير، بعد أن زودتهم بالمال والسلاح ووفرت لهم مقرات للتدريب والمدربين، ولكن كاسترو وقواته الشعبية كانوا في انتظارهم وكبدوهم خسائر فادحة وأسروا العشرات منهم وحوكموا محاكمات علانية، وشعر كاسترو بان المؤامرة تتجول في أروقة البيت الأبيض وأن الحل الوحيد

هو تعبئة قدرات الشعب وتنظيمه وفتح علاقات قوية مع موسكو، وهكذا صار الطريق مفتوحا أمام كوبا كي تمضي في الطريق إلى الشيوعية بكل سهولة.

وفي ٣ ديسمبر وبعد منتصف الليل القي كاسترو خطابا هو الأهم حسب تقديرات المؤرخين لأنه دشن دخول كوبا إلى المحيط الماركسي، وأعلن فيه اعتناقه الماركسية اللينينية، وأوضح مجددا أنه لم يكن شيوعيا، وأنه ضد عبادة الفرد، وأنه مؤمن بالقيادة الجماعية، وأنه سيؤلف حزبا يعتمد على الكيف وليس الكم ومشاركة كل المواطنين في العملية السياسية وفشل أميركا في إيقاع الفتنة بين الكوبيين".

لكن ثبوت تدخل أميركا في دعم المعارضة الكوبية وماسماهم كاسترو بالعملاء أعاد إلى الأذهان خطابا سابقا للزعيم السوفيتي خروشوف في ٩يوليو١٩٦٠ جاء فيه" سوف نفعل كل ما نستطيع لتأييد كوبا في كفاحها، وإنني أقول على سبيل المجاز أن رجال المدفعية السوفيتية يستطيعون -في حال الضرورة- أن يؤيدوا بصواريخهم الشعب الكوبي إذا تجرأت قوات العدوان في البنتاجون على التدخل ضد كوبا".

وعلى الجانب الآخر كان كيندي يتابع بعض التقارير وهو يضرب المنضدة بيده ويقول: "إن من شان تزويد كوبا بالصواريخ النووية أوخم العواقب".

في ظل الغيوم السياسية والإعلامية تلك تحركت بعض السفن السوفيتية في طريقها إلى كوبا ، فماهي الأبعاد الإستراتيجية وراء هذا القرار ، وهل كان السوفييت على ثقة من قدرتهم على الدخول في حرب نووية عاصفة، وإذا كانت موسكو لم تنصب صواريخها في أوروبا الشرقية

الموالية لها ، فهل من المنطق أن تذهب بصواريخها إلى الخصم النووي وفي حديقته الخلفية؟

صواريخ نووية
في خاصرة نيويورك

هناك عدة تفسيرات متعارضة لأزمة الصواريخ الكوبية، لأنه لا أحد يعرف على وجه الدقة دوافع الاتحاد السوفيتي لإدخال الصواريخ النووية إلى كوبا في الأصل. ولكن من الممكن الإشارة إلى بعض الملابسات، وأولها أن الأتحاد السوفيتي كان قبل ذلك بسنوات قليلة قد أجرى تجارب ناجحة على صاروخ نووي عابر للقارات، وبهذا أوضح أن الولايات المتحدة، سوف تصبح قريباً جداً عرضه لهجوم نووي سوفيتي مباشر إذا حصلت أزمة من أي نوع.

وكان هذا مبعثاً للقلق في الولايات المتحدة، لأنها كانت تستطيع في الماضي أن تفترض أنها في منأي عن أى هجوم، بينما كان الاتحاد السوفيتي عرضه لهجوم أمريكي سواء بالطائرات بعيدة المدى والتي تمتلك واشنطن عددا منها أو من خلال القواعد الأميركية في أوروبا، وقد مكنت تلك المعطيات الولايات المتحدة من تولي الدفاع عن حلفائها عن طريق التهديد بحرب نووية.

ولكن إذا أصبحت أمريكا ذاتها عرضه لانتقام سوفيتي فهل يمكن لها عندئذ أن تحمي حلفاءها؟ وقد شغل هذا الموضوع تفكير الرئيس جون كنيدي وحكومته إلى حد كبير . ونتج عن ذلك نهج استراتيجي أمريكي

جديد، يهدف إلى الفوز في حرب بين الدولتين الكبيرتين بإنتاج عدد كاف من الصواريخ الأمريكية الإستراتيجية بعيدة المدى لضرب قواعد الصواريخ السوفيتية وغيرها من الأهداف العسكرية مع ترك المدن السوفيتية دون إصابه حتى تصبح رهينة لهاو بالتالي تؤثر على هيبة القيادة السوفيتية وتدفعها للرد.

وكانت الفكرة تقوم على أنه لو حاول الاتحاد السوفيتي الرد على الهجوم بالمثل بعد ذلك الهجوم الأول فيكون في استطاعة الولايات المتحدة عندئذ أن تدمر المدن السوفيتية. وكان المقصود من هذا الإتجاه في وجهة النظر الأمريكية هو طمأنة حلفاء أمريكا، وأن تظهر للاتحاد السوفيتي أن الرادع النووي سوف يظل قائماً حتى ولو لم تكن أمريكا عرضه للهجوم.

إلا أن أثر ذلك التخطيط في الاتحاد السوفيتي كان أكثر مما توقعته أمريكا. وحقيقة الأمر أنه لم يكن لدى الاتحاد السوفيتي في ذلك الوقت إلا عدد قليل من الصواريخ العابرة للقارات، بينما كانت الولايات المتحدة تنتج عدداً كبيراً منها. وانتاب الخوف الزعماء السوفيت من أن الولايات المتحدة يمكن أن تشن هجوما في أي وقت لاختبار قدرة نيكيتا خروشوف، الزعيم السوفيتي في ذلك الحين على الرد.

ومن ناحية أخرى كان لدى الاتحاد السوفيتي عدد كبير من الصواريخ المتوسطة المدى. وهذه لا تستطيع أن تصل إلى الولايات المتحدة من الأراضي السوفيتية ،ولكنها تستطيع ذلك من مكان قريب جغرافيا ، وانتهزت موسكو فرصة التحرش الأميركي المتزايد بكوبا والتدخل الأميركي المستفز في

شؤون كوبا الداخلية لإعلان تضامن الاتحاد السوفيتي مع كوبا ضد أميركا، واختارت بالتالي جزيرة كوبا الصديقة للسوفيت والتي تقع على مسافة ١٥٠ كيلو متراً من الساحل الأمريكي ،لنشر صواريخ نووية قريبة من الجهاز العصبي لأميركا بحيث يسهل وخزه في أقرب فرصة.

وهكذا يجوز القول إن المحاولة السوفيتية لنصب صواريخ في كوبا سراً كانت بمثابة محاولة ذكية لمواجهة موقف نووي خطير جدا في رأى موسكو.

ولكن هذا التحرك السوفيتي أثار انزعاج الحكومة الأمريكية، فقد عقدت واشنطن العزم على منع هذا الإجراء السوفيتي بمجرد أن ثبتت الحقائق من خلال حملات الاستطلاع الجوي التي تقوم بها طائرات التجسس الأميركية فوق مياه المحيط، وجرى التفكير في خطوات مختلفة ومتنوعة ، ومن بينها غزو كوبا أو قصفها بالصواريخ التكتيكية أو بالطائرات وبخاصة مواقع الصواريخ السوفيتية ,ولكن تقرر في النهاية الانتظار والصبر مع فرض حصار بحري على الجزيرة ،بدأ في ١٥اكتوبر١٩٦٢، وبحيث إذا حاولت السفن السوفيتية التي تحمل العتاد إلى مواقع الصواريخ اختراق الحصار فلابد من إغراقها. ولو حدث ذلك فيكاد يكون من المؤكد أنه كان سيؤدي إلى حرب نووية. وبدا للجميع الذين كانوا يتتبعون أزمة صواريخ كوبا لبضعة أيام أنها كان من الممكن أن تؤدي إلى نهاية العالم.

لكن كلمة النهاية لاتكون بهذه السهولة، لذا جرت محاولات أممية لاحتواء الموقف ومنع التصعيد أو حصاره في إطار الصراع بالكلمات والخطب على غرار ماحصل داخل الأمم المتحدة ، حين وضع خرشوف

حذاءه على الطاولة مهددا واشنطن بحرب نووية، لكن ذلك لم يكن سوى تصعيد يمكن احتماله ، فالخطب مهما كانت حدتها اخف وطأة من الصواريخ إذا تحركت من مراقدها.

ومرت أزمة خليج الخنازير بعد أن كرست في القاموس السياسي الدولي مايلي:

أولا: تم تدشين عملي لمصطلح الحرب الباردة الذي سوف يرسم خارطة العالم منذ ذلك الحين وحتى ١٩٩٠عندما يختفي من القاموس السياسي اسم الاتحاد السوفيتي ويختفي أيضا مصطلح القطبية الثنائية لمصلحة قطب واحد يتحكم في دفة القرار في العالم.

ثانيا: ظهرت الفوائد العملية لمصطلح توازن الرعب أو توازن القوى كعامل هام في رسم دوائر وحدود الصراعات في العالم،وبدا انه كلما توفرت عناصر التوازن في أي صراع كان ممكنا حله أكثر من إمكانية إشعاله باعتبار أن الطرفين سيكونان في نار الحرب وجحيمها على قدم المساواة أو لاغالب ولا مغلوب،لكن اللافت أن توازن القوى بين الطرفين الكبيرين لم يمنع ملحقاتهما من الدخول في حروب صغيرة لم تفلح في جرهما إلى حرب كونية.

وهكذا تم حل ألازمة بالتوافق على سحب الصواريخ السوفيتية شريطة أن تتعهد واشنطن عدم غزو كوبا ، وسحب الصواريخ الباليستية الأميركية من تركيا، وتنفس العالم الصعداء بعد أزمة رهيبة ، شكلت الاختبار الحقيقي للحرب الباردة.

الفصل التاسع

أزمة العلاقة الكوبية الأميركية

سباق الزرافة والفيل

في مشهد دخل ذاكرة التاريخ واستقر، مزق كاسترو اتفاقية الدفاع المشترك الموقعة بين الولايات المتحدة وكوبا، وقذف بها في الهواء لتتطاير وسط صيحات ٣٠٠ ألف كوبي احتشدوا في ميدان الثورة.

وتتابعت القرارات بسرعة البرق، فقد أعلن قطع العلاقات الدبلوماسية مع واشنطن وتم ترحيل ٧٦ دبلوماسيا أميركيا وأبقى على١٣فقط، وقرر مصادرة ممتلكات ١١ ألف أميركي كانوا يقيمون في كوبا ويمتلكون أجود المزارع المزودة بمطارات خاصة، وأمم كل البنوك الأميركية في غمضة عين.

لماذا هذه الإجراءات الشديدة مع واشنطن؟

لابد أن هناك شيئا دفع الزعيم الكوبي الشاب إلى هذه الإجراءات، ماالذي جرى؟

الولايات المتحدة كانت من أوائل الدول التي اعترفت بالنظام الثوري في كوبا برئاسة كاسترو،لكن بنفس السرعة تدهورت العلاقات الأمريكية الكوبية، في أبريل من ١٩٥٩، زار الرئيس كاسترو الولايات المتحدة والتقى مع نائب الرئيس ريتشارد نيكسون، وتذرّع الرئيس الأميركي لعدم استطاعته اللقاء مع كاسترو لارتباطه بلعبة الجولف، وقد طلب الرئيس الأمريكي من

نائبه التحقق من انتماء كاسترو السياسي ومدى ميوله لجانب المعسكر الشرقي، وخلص نائب الرئيس نيكسون إلى أن كاسترو "شخص بسيط وليس بالضرورة يميل إلى الشيوعية".

وفي فبراير عام ١٩٦٠، اشترت كوبا النفط من الاتحاد السوفييتي ورفضت الولايات المتحدة المالكة لمصافي تكرير النفط في كوبا التعامل مع النفط السوفييتي، فقام كاسترو على تأميم المصافي الأمريكية مما جعل العلاقات الأمريكية الكوبية في أسوأ حال. ونتيجة القطيعة الأمريكية، اتجه كاسترو صوب الاتحاد السوفييتي ،وقام بالتوقيع على عدد من المعاهدات مع الاتحاد السوفييتي، وبدأت المساعدات المالية واللوجستية .

طول الأعوام الثلاثين الماضية ظلت كوبا مصدرا مستمراً للقلق والإزعاج للولايات المتحدة . بل وفى بعض الأحيان مصدر تهديد مباشر للأمن القومي الأمريكي كما حصل فى ظل أزمة الصواريخ النووية السابق الإشارة إليها، ويمكن القول أن العداء الكوبي الأمريكي المتبادل ، زاد تدريجياً بعد أن توطدت العلاقة مع الاتحاد السوفيتي حيث صارت كوبا موطن قدم ومعبرا استراتيجيا محتملا له ضد الولايات المتحدة . وفى ٣ يناير ١٩٦١ أعلنت الولايات المتحدة قطع علاقاتها مع كوبا حين اصدر فيدل كاسترو تعليماته بمصادرة كافة ممتلكات الشركات الأمريكية العاملة في كوبا، وفى ١٧ أبريل من نفس العام حاولت جماعات المتمردين الكوبيين، تدعمهم الولايات المتحدة ، غزو كوبا من منطقة خليج الخنازير ، وهى المحاولة التي باءت بالفشل وزادت من تدهور العلاقات الكوبية الأمريكية.لكنها رفعت شعبية كاسترو داخل بلاده وخارجها، وسعياً من الولايات المتحدة إلى خنق النظام الثوري

في كوبا قامت بفرض حصار اقتصادي محكم ودفع حلفائها لغرض المقاطعة الاقتصادية ضد كوبا، ثم عمدت إلى تجميد عضوية كوبا في منظمة الدول الأمريكية في عام١٩٦٢، العام التالي لمحاولة الغزو الفاشلة.

وعبر الأعوام الخمسة والأربعين الماضية لم يطرأ تغيير ملموس على العلاقات الكوبية المتدهورة، ظل كل طرف متمسكاً بموقفه تجاه الآخر، وكان كاسترو يستند في موقفه إلى الدعم السوفيتي الهائل لبلاده، بينما اعتبرت الولايات المتحدة معاداتها لكوبا بمثابة مبدأ ثابت في السياسة الخارجية الأمريكية، في إطار استراتيجياتها العالمية لمواجهة النفوذ السوفيتي.

وفي أعقاب القرار السوفيتي بسحب قواته المتمركزة في كوبا، علق المسئولون الكوبيون بأن هذا القرار الفردي غير المشروط من قبل الاتحاد السوفيتي، دون تشاور مسبق مع كوبا، يعد بمثابة إعطاء الضوء الأخضر للولايات المتحدة للتدخل عسكرياً في كوبا، وأعربوا عن ترحيبهم بالقرار فقط إذا ماتزامن مع انسحاب القوات الأمريكية المتمركزة في قاعدة "جاوانتانامو" وهي القاعدة التي حصلت عليها الولايات المتحدة بموجب اتفاقية بين البلدين عام ١٩٠٣ تجددت عام ١٩٣٤، وتعد أقدم قاعدة أمريكية على ارض أجنبية والوحيدة في أراضى دولة شيوعية، حيث تقع على الساحل الجنوبي الشرقي لكوبا ، على صورة ميناء ذي مياه عميقة يشغل مساحة ٤٥ ميلا مربعا من الأرض والمياه ، وتضم قاعدتين جويتين تحويان سربا للطائرات المقاتلة التي توفر الدعم الجوي لوحدات الأسطول، ويبلغ حجم القوات الأمريكية في القاعدة حالياً ما يقرب من عشرة آلاف فرد من

مختلف التخصصات، وفي كل عام تتوجه حوالي مائة سفينة أمريكية للقاعدة بهدف التدريب لفترة شهرين في المياه الهادئة جنوباً بين كوبا وجامايكا وهايتي.

وتكتسب القاعدة أهمية إستراتيجية إقليمية لا تقتصر على كوبا حيث تحقق تواجداً أمريكياً مباشراً في البحر الكاريبي، كما توفر إمدادات وتسهيلات التدريب للقوات الأمريكية ينفي وجود النية مطلقاً لدي بلاده لإخلاء القاعدة الهامة.

وبرغم اقتناع الإدارة الأمريكية بأهمية التخلص من كاسترو ونظامه إلا أن صانع القرار الأمريكي من عصر كينيدي حتى جورج بوش الابن اتسم بالتردد في اتخاذ قرار بالتدخل العسكري المباشر في كوبا ،ويرجع هذا التردد إلى عدة عوامل أهمها:-

أنه باختفاء الاتحاد السوفيتي ١٩٩٠وحلف وارسو انتفى أي تهديد عسكري استراتيجي،يمكن أن تمثله كوبا للولايات المتحدة في إطار الصراع الأممي بين الرأسمالية والاشتراكية، وبات الخطر الكوبي يتمثل في النموذج الثوري الاستقلالي الذي يمكن تصديره ثقافيا وبدون أدوات عسكرية.وهذا ماحصل خلال الأعوام الماضية حيث ولدت ثورات ديمقراطية في فنزويلا وبوليفيا ونيكارجوا والبرازيل والإكوادور وشيلي فيما نسميه(المؤلف) بأولاد كاسترو.

في ضوء ما يسمى بالنظام العالمي الجديد، والذي تحددت ملامحه فيما يخص التدخل العسكري- في ضوء أحداث الخليج الثانية١٩٩١- على أساس

توافر رأى عام دولي يرجح استصدار قرارات بنفس المعنى من مجلس الأمن للأمم المتحدة، أصبح من الصعب على الولايات المتحدة التصرف منفردة والتدخل عسكرياً فقد خشت الولايات المتحدة أيضاً أن يؤدى مثل هذا التدخل إلى تأليب مشاعر العداء والكراهية في نفوس الدول اللاتينية التي لاتزال تحمل مرارة الغزو الأمريكي لبنما في عام١٩٨٩، والذي بذلت إدارة بوش الأب جهوداً مضنية لإصلاح الخسائر السياسية التي لحقت بالمصداقية الأمريكية لاتينيا من جراء هذا الغزو.

ولقد توجه الرئيس الأميركي بوش في ٢٠مايو١٩٩٠ في ذكرى عيد الاستقلال الكوبي برسالة إلى شعب كوبا نقلتها الإذاعة قال فيها أنه إذا أجرت كوبا انتخابات حرة وعادلة تحت الإشراف الدولي، واحترمت حقوق الإنسان وتوقفت عن مناوشة جيرانها، يمكن للولايات المتحدة حينئذ أن تتوقع تحسن علاقات البلدين بشكل كبير، ودعى كاسترو إلى إطلاق سراح كافة المسجونين السياسيين والسماح للجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان بإجراء التحقيقات في أية انتهاكات محتملة في هذا الصدد.

ولقد عقب مساعد وزير الخارجية الأمريكي لشئون الأمريكتين "برنارد أرنسون" على رسالة رئيسه بقوله "إن شروط الرئيس بوش لتحسين العلاقات بين البلدين لا تشكل منظومة أهداف تمت صياغتها في واشنطن. ولكنها تمثل مجموعة من المبادئ الأساسية التي تضمنها ميثاق منظمة الدول الأميركية اللاتينية" معربا عن أمله في التوصل لحل لتلك المسألة عن طريق السبل الدبلوماسية.

وفى تصريحات للزعيم الكوبي كاسترو أعرب عن عدم اعتقاده بوجود نية أمريكية لغزو كوبا، وأضاف أن العصر قد تبدل وتبدلت معه كوبا وأن هناك نوايا متوفرة لدى دول عديدة من بينها كوبا تعتزم أن تعيش طبقاً لقواعد السلوك الدولي وتتخلى عن المغامرات الخارجية بشرط أن لاتتدخل واشنطن في شؤون الدول.

وبرغم تكرار دعوة كاسترو للحوار الكوبي الأمريكي، وترديد مسئوليه لنفس الدعوة، لم تبد الولايات المتحدة أية بادرة جادة نحو تبديل سياساتها تجاه كوبا أو بدء حوار ثنائي بهدف تحسين العلاقات وإنهاء الحظر الاقتصادي المفروض على كوبا منذ تولى كاسترو الحكم تقريباً.

وبينما استبعدنا احتمال إقدام الولايات المتحدة على عمل عسكري لإسقاط نظام كاسترو فإن المرجح أن تستمر الولايات المتحدة في حصارها الاقتصادي آملة أن تؤدي الضغوط الاقتصادية إلى تحريك الشعب الكوبي للإطاحة بكاسترو على غرار ما شهده الشرق الأوروبي.

الهجرة الكوبية ورقة ضغط سياسية

انتهجت واشنطن سياسة غريبة إذ رأت أن تشجيعها للهجرة الكوبية إلى الولايات المتحدة قد يكون ذا فعالية هامة في القضاء على نظام كاسترو، ومن هذا المنطلق قامت بتخفيف القيود على الهجرة الكوبية مما أدى إلى مزيد من التأزم في العلاقات بين البلدين، فقد أصبحت الولايات المتحدة تلوح بورقة الهجرة كسلاح في يدها لمحاربة النظام الكوبي، وخاصة أنها

كانت تسمح للنازحين الكوبيين الذين فروا من النظام الكوبي بممارسة نشاط سياسي مناهض لفيدل كاسترو.

وقد جاء رد فعل هذا الأخير فى بداية الأمر فى شكل تورط بلاده فى مشكلة انجولا ١٩٧٦ ثم فى اثيوبيا فى١٩٧٧ ثم فى ابريل١٩٨٠ إجبار النظام الكوبى على رحيل العديد من الكوبيين فى اتجاه ولاية فلوريدا إلى أن وصل عددهم الى١٢٥,٠٠٠ شخص، وهى ما عرفت "بعملية مارييل".

وكانت النتيجة أن تحولت خطة تشجيع الهجرة الى الولايات المتحدة من "سلاح للضغط على النظام الكوبى" في أيدي واشنطن الى حمل أصبح يثقل على كاهل الحكومة الأمريكية.

ومن المعروف بأن نتيجة للتسهيلات التى كانت تمنحها الحكومة الأمريكية للنازحين الكوبيين تكونت على أرض الولايات المتحدة وفى ولاية فلوريدا- بصفة خاصة جاليات كوبية من مناهضي النظام الكوبي.

وكانت واشنطن تمنح هؤلاء النازحين حرية تامة في القيام بنشاط سياسي ضد النظام الكوبي القائم هذا بالإضافة إلى أنها كانت تسمح لهم بإرسال أموال إلى ذويهم الذين بقوا في الجزيرة فكان الأمر أشبه باستعراض الثراء الذي يحيا عليه الشعب الامريكى مقارنة مع القيود المفروضة على أهل الجزيرة.

ولكن عندما تدفق على ولاية فلوريدا سيل من اللاجئين بلغ عدده١٢٥,٠٠٠شخص في هجرة شبه مدبرة عرفت باسم عملية"ماربيل" اضطرت واشنطن إلى التفكير في تنظيم الهجرة الكوبية إلى الولايات المتحدة وخاصة

أنه قد اندس في صفرف اللاجئين الجدد عدد كبير من المعوقين والمرضى والمجانين وخريجي السجون اى ما يسمى"بغير المرغوب فيهم" وكانت الحكومة الكوبية تستهدف من وراء عملية "مارييل" هذه إحباط ورقة المهاجرين التي تلوح بها واشنطن، وإقناع الجانب الامريكى بالشروع في محادثات ثنائية تتناول بصفة خاصة السياسة الخارجية الأمريكية، وعلى هذا الأساس جرت في نوفمبر١٩٨١ محادثات على مستوى عال بين الدولتين ولكن لم تسفر عن نتائج مشجعة فقد ازدادت حدة العداء الامريكى كما اتخذت عقوبات اقتصادية أكثر إحكاما، وتوقفت أهم الخطوط الجوية التي تربط بين البلدين.

ثم في يوليو١٩٨٤ جرت مفاوضات رسمية بين الولايات المتحدة وكوبا تناولت مسألة الهجرة الكوبية إلى الولايات المتحدة وإعادة ترحيل المهاجرين إلى وطنهم.

وأسفرت هذه المفاوضات في ديسمبر١٩٨٤ عن اتفاق ينص على قبول الجانب الامريكى عددا من المهاجرين الكوبيين مع إعادة ترحيل٢,٧٤٦كوبي من غير المرغوب فيهم ولكن بعدها بثلاثة أشهر بعد أن تم ترحيل العناصر "غير المرغوب فيها" إلى وطنهم بادرت الحكومة الكوبية بمنع الأمريكيين من أصل كوبي بزيارة ذويهم في كوبا، فجاء رد فعل واشنطن في شكل فرض قيود على زيارات قد يقوم كوبيون ينتمون إلى الحزب الشيوعي الكوبي أو مسؤولون رسميون.

هكذا مضت العلاقات بين البلدين في تدهور مستمر وبدا من الواضح بأن عملية التركيز للسياسة الأمريكية على تجسيم أهمية الهجرة

العشوائية لم تأت بالثمار المرجوة، هذا بالإضافة إلى أن حكومة واشنطن قد أدركت بأنها قد خلقت على أرضها صوتا كوبيا قويا لم يلتزم دائما بالإرشادات الأمريكية تجاه كوبا .بل ظهر اتجاه بين المهاجرين الكوبيين مناصر لكاسترو، الأمر الذي أزعج الاستخبارات الأميركية التي اكتشفت الغول الذي ربته على أراضيها .

حقوق الإنسان الذريعة المسلحة

لم تدخر واشنطن وسيلة أو سلاحا إلا واستخدمته ضد كاسترو ونظامه، وعلى طريقة" الحاوي" الذي يمارس الخدع راحت تطرح قضية حقوق الإنسان في كوبا، وكأن واشنطن نفسها خالية من تلك الانتهاكات .فالعالم كله يعرف الكثير عن جرائم واشنطن ضد حقوق الدول وضد المواثيق الدولية وحقوق الإنسان ورغم ذلك ، ركزت جهودها على إدانة ما وصفته بانتهاكات لحقوق الإنسان التي يرتكبها النظام الكوبي وقد وصل بها الأمر إلى تشجيع ودعم محاولة انقلاب لم تنجح أيضا (مارس١٩٨٧) وسرعان ما جاء رد الفعل الكوبي في شكل برامج أخذت تبثها محطات الإذاعة والتلفزيون تتهم الجالية الأمريكية في هافانا بالقيام بأنشطة تجسس هذا بالإضافة إلى أن اتفاقية١٩٨٤ كانت تنص على إعادة العناصر غير المرغوب فيها إلى كوبا ،وعندما حان تطبيق الاتفاقية قام المهاجرون الكوبيون المعتقلون داخل السجون الأمريكية بإضراب مما حث الحكومة الأمريكية بالتأكيد لهم بأنها ستوقف عملية الترحيل وبأنها ستنظر في حالتهم فرادى.

وفى مارس١٩٨٨ حاولت الإدارة الأمريكية مرة أخرى إدانة النظام الكوبي داخل لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة فلم تحصل سوى على قرار اعتمدته اللجنة ينص على النية في القيام بزيارة إلى كوبا وحددت شهر سبتمبر من نفس العام.

ثم في مارس١٩٨٩ نشرت النتائج التي توصلت إليها للجنة المذكورة، ولم تتضمن أية توصيات أو إرشادات، وخلال نفس العام كان الرئيس كاسترو قد أشار إلى أنه لا يعتزم إجراء تغيرات في السياسة الداخلية الكوبية ،ورفض بشدة إحداث إصلاحات شبيهة بتلك التي كانت تجرى في الاتحاد السوفيتي ولكنه في الوقت نفسه أدخل بعض الليبرالية على الصعيد الثقافي.

فسحة ثورية في الساحة الدولية

ومن ضمن الآليات التي سعت واشنطن إلى امتلاكها لحصار كوبا هو فرض عزلة دولية عليها من خلال إقناع الدول الحليفة لها بالابتعاد عن كوبا وبخاصة في القارة الأوروبية ، وعندما فرضت أميركا حصارا على تجارة السكر الكوبي حاول كاسترو أن يدق أبواب اوروبا ولكن هذه الدول خذلته بناء على ضغوط اميركية ، وهكذا لم يجد سوى الاتحاد السوفيتي ، وقد تغير الحال تماما فعندما سعت روسيا الى التخلص من الحلف العسكري الأممي وإنهاء صيغة الكتلة الشرقية بدءا من عام ١٩٨٥ كان كاسترو قد جهز بلاده لاستقبال أيام صعبة على الصعيد الاقتصادي حيث كان الاقتصاد الكوبي يعتمد بشكل كبير على الاتحاد السوفيتي لكن علاقات كاسترو القوية في القارة اللاتينية

وإفريقيا وفرت له بوابات اقتصادية مهمة.و كان فيدل كاسترو قد نجح في إقامة علاقات وثيقة مع دول أخرى أمريكية لاتينية مثل الأرجنتين التي ساندها وقت ضرب فوكلاند والبرازيل وبيرو وأروجواي.

كما في سبتمبر١٩٨٨ كان قد نجح في إقامة علاقات دبلوماسية مع الجماعة الاقتصادية الأوروبية، بل أن كوبا اليوم تعد شريكا تجاريا مع معظم دول الاتحاد الأوروبي، وتقول الإحصاءات الرسمية بأن المبادلات التجارية التي أجرتها كوبا مع الدول الـ١٢ الأوروبية قد سجلت فائضاً في عام١٩٩٣ زاد عن٢٤٠ مليون يورو- وهى العملة الأوروبية الموحدة-وتقف أسبانيا في مقدمة دول الاتحاد الأوروبي التي تتعامل مع كوبا وتليها في الأهمية فرنسا.

وبدا الأمر وكان كوبا تريد أن تضرب الولايات المتحدة بأوروبا الموحدة.

وهناك دول أخرى مثل كندا حرصت كوبا على تنمية العلاقات معها وخاصة بعد أن أصبحت كوبا العميل التجاري الرابع لدى دول أمريكا اللاتينية وازدادت أواصر هذه العلاقات مع كندا وغيرها من الدول الأمريكية منذ انهيار الاتحاد السوفيتي بل هناك بوادر تشير إلى أن كندا قد شرعت فى تفادى المقاطعة الأمريكية منذ انهيار الاتحاد السوفيتي، وأقامت على أرضها بعض الشركات التي تتعامل بالبضائع الكوبية كذلك أعادت كوبا علاقتها الدبلوماسية مع جمايكا في يوليو١٩٩١ ومع البرازيل وفى نوفمبر من نفس العام اقترحت البرازيل استعادة كوبا لعضويتها داخل منظمة الدول الأمريكية ولكي تحقق تقاربا من الولايات المتحدة قامت كوبا بنشاط

ملموس فى مكافحة تجارة المخدرات فى المنطقة و فى أكتوبر١٩٩١ تم انتخاب كوبا كعضو داخل مجلس الأمن ومع كل هذه الإنجازات على الساحة الدولية ازدادت حدة توتر العلاقات بين كوبا والولايات المتحدة.

كيف واجه كاسترو الأزمة الاقتصادية؟

ومن جهة أخرى بقت كوبا تعانى من حالة اقتصادها المتعثر ومن١٩٨٩ إلى١٩٩٢ تقلص الاقتصاد الكوبي وهبط حجم الواردات إلى الجزيرة من٨,١ مليار الى٢,٢ مليار من الدولارات.

ومع كل هذا بقى النظام الكوبي صامدا وباقيا وفى هذه المرة دون تواجد الدبابات السوفيتية وأخذ المعلقون السياسيون يتساءلون كيف تمكن النظام الكوبي من الصمود؟

ففى١٩٩٠ كان الكوبيون قد أدركوا بأن الشيوعية قابلة للتحول خاصة وقد بدأوا يعانون من آثارها الاقتصادية السلبية، ويرى بعض المعلقين بأنه كلما زاد الضغط الأميركى على كوبا كلما ازدادت قوة صمود الراديكاليين الكوبيين.

وفى١٩٩٢ أعلن الكونجرس الأميركى "قانون الديمقراطية الكوبي"وقد تضمن فرض عقوبات على الشركات الأمريكية التي تتعامل مع دول لها علاقات تجارية مع كوبا والمعروف بأن الجزء الأكبر من هذه التجارة ينصب على المواد الغذائية وفى نهاية عام١٩٩٢ كانت الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة قد أدانت المقاطعة الأمريكية لكوبا، ولم يقف فى صف الولايات المتحدة سوى إسرائيل ورومانيا وخلال تلك الجلسة برزت الولايات المتحدة

فى شكل عدو دولي يهدد كوبا بالمجاعة هذه المرة وخاصة أن انسلاخ كوبا عن روسيا لم يعد يهدد أمن الولايات المتحدة.

كما أن الهدف الكوبي لم يعد يتمثل فى تصدير الثورة إلى دول أخرى بل إن النظام الكوبي قد أصبح يوافق على رحيل العناصر المستاءة من الأوضاع الداخلية آملة فقط فى أن يقوم هؤلاء المهاجرون بإرسال نقود إلى ذويهم فى المستقبل ولكن جاء رد الفعل الأميركى مخيبا للآمال الكوبية إذ امتثل للمطالب الصارمة التي تقدمت بها العناصر اليمينية داخل الجالية الكوبية وفى الواقع تميزت السياسية الأمريكية فى عهد بيل كلينتون بإدخال بعض التعديلات استهدفت أساسا تسهيل عملية التحول السياسي فى كوبا بطريقة سلمية على أن تركز على: الشروع في اتخاذ إجراءات من أجل بناء الثقة ورفع الحظر على الإعلام وذلك بإنشاء روابط تلفزيونية قائمة على أسس تجارية بحتة ،والتخفيف من حدة المقاطعة حتى تصبح هذه الأخيرة عنصرا هاما يمكن التفاوض عليها.

وبقت كوبا تتطلع إلى أن تقرر الولايات المتحدة رفع المقاطعة ولكن دو جدوى وهى تواجه تدهورا وتقلصا مستمرا فى اقتصادها الوطني فجاء المبادرة الكوبية الجديدة فى شكل العودة إلى السلاح الذى انتزع من العد الامريكى وهو الهجرة الكوبية غير الشرعية إلى الولايات المتحدة ونظمت العملية هذه المرة بهدف إقناع الجانب الامريكى بضرورة التفاوض من أجل رفع المقاطعة المفروضة على الجزيرة منذ أكثر من٣٥ عاما.

أزمة الهجرة الكوبية الثانية

فى منتصف شهر أغسطس١٩٩٤ كان سيل من لاجئي القوارب الكوبية الهاربين قد بدأ يتدفق على ولاية فلوريدا ويزداد حجمه على نحو فاق جميع التوقعات.

وفي بداية الأمر أعلن البيت الأبيض بأن هجرة الكوبيين الفارين عبر البحر إلى ولاية فلوريدا تتم بنظام ولا تستدعى مطلب محافظ الولاية المذكورة الذى كان قد أعلن حالة الطوارئ لهذه الهجرة ثم بعدها بـ١٠ساعات انقلب الوضع تماماً عندما أعلنت وزيرة العدل الامريكى بأن هؤلاء المهاجرين الكوبيين سيوضعون فى "مراكز احتجاز"وتم تنفيذ هذا الأمر الذى لم يسبق أن اتخذ ضد الكوبيين منذ١٩٦٦ حيث أن"قانون المقاطعة الكوبية"يمنع إعادة اللاجئين الكوبيين إلى وطنهم وإن كان لا يوضح شروط استقبالهم.

فقد كانت التقاليد تفترض أن يسلم اللاجئ إلى أحد من أعضاء أسرته المقيم فى الولايات أو إلى الجالية الكوبية المقيمة فى ميامي.

وأمام تزايد عدد اللاجئين عن طريق البحر أخذ الرئيس كلينتون يحاول إقناع النازحين الجدد بعدم ترك وطنهم.

أما على الجانب الكوبي فقد وقف الرئيس كاسترو منذ بداية أغسطس١٩٩٤ يطالب الولايات المتحدة باتخاذ إجراءات سريعة وفعالة للحد من عدد طالبي الهجرة وإلا فلن يبقى الكوبيون يحرسون الحدود الفاصلة بين الجزيرة والولايات المتحدة، وهدد الرئيس الكوبي بفتح أبواب الهجرة فى

حين بقى الجانب الامريكى متحفظا على كل قادم غير قانوني من كوبا.

وهكذا أصبح من الواضح بأن واشنطن قد وضعت حدا لسياستها التقليدية إزاء كوبا وهى قائمة على الترحيب بكافة المهاجرين الكوبيين الفارين من نظام حكم كاسترو وعلى هذا الأساس تم نقل اللاجئين إلى قاعدة جوانتانامو الأمريكية التي تقع فى جنوب الجزيرة.

وعلى شاشة التلفزيون أعلن الرئيس فيدل كاسترو بأنه لن يمنع رحيل الأعداد الهائلة من لاجئى القوارب "البالسيرو"كما دعا واشنطن إلى فتح مفاوضات حول هذا الموضوع.

أما الجانب الامريكى فقد بدا أكثر تشددا إذ قرر مضاعفة قدرات الاستقبال لقاعدة جوانتانامو وأعلن بأنه لن يستفيد بشىء من إجراء حوار مع هافانا، وقد وصف الرئيس الكوبي هذا الرد الامريكى بأن سياسة واشنطن غير منطقية.

الاتفاق الكوبي الامريكى

وأخيرا فى٩ سبتمبر ١٩٩٤وفى نيويورك حيث اجتمع مفاوضون من الجانبين تم التوقيع على اتفاق حول تدفق الآلاف من اللاجئين الكوبيين اختاروا الهروب إلى الولايات المتحدة عن طريق البحر.

وقد وصف بعض المعلقين هذه المحادثات بأنها الأولى من نوعها التي جرت على هذا المستوى منذ١٩٨٤ وأهم ما توصل إليه الجانبان هو:

العمل المشترك على عدم السماح برحيل الكوبيين من وطنهم مما يؤدى

إلى المخاطرة بأرواحهم،وقد أكدت واشنطن رفضها باستقبال اللاجئين الكوبيين عن طريق البحر كما أعلنت بأنها ستقوم بنقل هؤلاء النازحين إلى أماكن خارج الولايات المتحدة، كما أنها سترفض منحهم حق الإقامة الذى اعتادت على منحة طوال عقود ثلاثة.

أما الجانب الكوبي فقد تعهد باتخاذ كافة الإجراءات الفعالة والممكنة لوضع حد لهذه الهجرة المليئة بالمخاطر ولكن على أن يتم ذلك أساسا عن طريق الالتجاء إلى وسائل القهر ضد الذين اختاروا الرحيل عن الجزيرة.

التزام الجانبين باتخاذ إجراءات تستهدف قدر الإمكان عدم اللجوء إلى العنف الذى قد يشرع فيه طالبو الرحيل من الكوبيين والمقصود هنا محاولات القرصنة الجوية من خطف طائرات وسفن.

دعم الاتفاق الذى وقع عليه الطرفان فى١٩٨٤ والذي نص على التزام الولايات المتحدة بتسهيل الإجراءات الخاصة بالمزيد من النازحين الكوبيين بالطرق الشرعية وقد حدد عددهم بحوالى٢٠,٠٠٠ سنويا.

وهى الحصة التي كان من المفروض أن تلتزم بها الولايات المتحدة وفقا لاتفاق١٩٨٤ ولكنها لم تنفذه إذ لم يتعد عدد التأشيرات التي منحت للكوبيين عن٣ آلاف تصريح، وذلك على مدى١٠ سنوات ومن هذا المنطق تعهد الجانب الامريكى بالتعجيل بمنح التصريحات لـ٦,٠٠٠ من المرشحين للهجرة في حالة انتظار.

نص الاتفاق أيضا على أن النازحين عن طريق البحر الذين تدفقوا على ولاية فلوريدا منذ١٩ أغسطس ١٩٩٤والذين قد تم ترحيلهم إلى قاعدة جوانتانامو يحق لهم العودة إلى وطنهم إذا أبدوا الرغبة فى ذلك.

مابعد كاسترو

سيناريو الانفتاح المشروط مع أميركا

إذا كان كاسترو هو العقبة أمام تنامي العلاقة بين كوبا وأميركا فان كاسترو لن يبقى أبد الدهر لكن كوبا باقية، وإذا كانت الأطماع الأميركية هي سبب التوتر فان الاتفاق على علاقات حسن جوار يبقى هو العنصر الدائم، ..هذا المنطق بدا ينتشر في الصحف الأميركية والكوبية بعد أن ظهرت مؤشرات على تدهور الحالة الصحية للزعيم الكوبي والذي كلف شقيقه راؤول بإدارة شؤون الدولة بصفة مؤقتة، وعبرت صحيفة الواشنطن بوسط الأميركية عن ضرورة مراجعة العقوبات التجارية المفروضة على كوبا منذ١٩٦١وبدء مرحلة جديدة من العلاقات تراعي المتغيرات الضخمة في عالم اليوم، والتركيز العالمي على مواجهة الإرهاب وفق المنظور الأميركي ، وتبادل المعلومات حول الجريمة المنظمة بما في ذلك تجارة المخدرات والرقيق الأبيض وتجارة السلاح وكلها جرائم أدانتها كوبا وحاربتها وتعاونت مع دول القارة لمكافحتها.

لكن كوبا أدانت أيضا الخلط الأميركي المتعمد بين الإرهاب والتحرر الوطني المشروع والذي تجسد بصورة واضحة في وصف واشنطن الحركات الجهادية الفلسطينية على قوائم الإرهاب بينما تعتبر القيادات الصهيونية دعاة سلام، أو الغزو الأميركي للعراق وأفغانستان، وانتقدت بعنف انفراد واشنطن بتحديد خارطة الإرهاب في العالم، الأمر الذي يستلزم حوارا بين الأمم ، وهو مادعت إليه كوبا أكثر من مرة.

وفد أميركي في هافانا

وفي هذا السياق دعت(الواشنطن بوست) إلى حوار موضوعي يضع نقاط الخلاف على الطاولة للاستفادة من بوادر الانفراج الذي حصل في خريف ٢٠٠٦ بعد أن أعلن راؤول من خلال خطاب ألقاه في عرض عسكري أن الخلاف بين أمريكا وكوبا يجب أن يحل على طاولة المفاوضات.

وكأن واشنطن كانت تنتظر هذه الإشارة ،حيث أسرع وفد من عشرة نواب الكونجرس ٦ من الديمقراطيين و٤ من الجمهوريين بالسفر إلى كوبا في زيارة استمرت ثلاثة أيام ،وقاد الوفد النائبان الجمهوري جيف فلايك والديمقراطي وليام ديلاهانت، والنائبان عضوان في لجنة الشؤون الخارجية في مجلس النواب ،ويؤيدان علنا تخفيف الحظر الأميركي على كوبا وتحسين العلاقات معها.

وأكد الوفد على أن لواشنطن مصالح مهمة في كوبا رغم الاختلافات الكبيرة بين الدولتين... وأن إدارة بوش يجب أن تعدل سياستها تجاه الدولة الشيوعية بعد أن أثبتت العقوبات الأمريكية عدم جدواها.

وتعتبر شخصيات أميركية أن الفرصة مهيأة بعد غياب كاسترو، لعودة هذه العلاقات أو على الأقل توسيع التجارة الزراعية مع كوبا والتي سوف يستفيد منها المزارعون الأميركيون.واشترط راؤول الذي يدير البلاد بتفويض من شقيقه أن تحترم واشنطن حقوق الدول وسيادتها وان لاتتدخل على أي نحو في شؤونها المحلية.

في الوقت نفسه فقد بدأ الحديث داخل كوبا حول فترة مابعد

كاسترو.. وبدأت التساؤلات تدور حول قدرة راؤول- المتقدم في السن والذي يفتقد الجاذبية والطاقة التي يتمتع بها كاسترو- هو وكبار جنرالات الجيش تطبيق نفس سياسيات كاسترو أم السير بعيداً عن هذه السياسات.

راؤول كان قد أبدى مؤخراً اهتماماً بتطبيق النموذج الصيني في كوبا... والذي يهيئ الفرصة لتحرير الاقتصاد من أجل تحقيق التنمية في نفس الوقت الذي تقيد فيه السلطات السياسية في أيدي الحزب الشيوعي.. وعلي ذلك سوف تقرر كوبا خلال هذا العام ماإذا كانت ستسير على نفس سياسات كاسترو أم ستعدل هذه السياسية التي قد تهدد النظام الشيوعي الحاكم هناك.

ورغم أن هناك توقعات قوية من داخل كوبا بقدرة النظام الكوبي على البقاء بعد رحيل كاسترو .. إلا أن هذه التوقعات لا تستبعد حدوث تغييرات في سياسات كوبا الاقتصادية أو السياسية ،خاصة أن واشنطن تضع كوبا في دائرة الاهتمام حالياً.

وكانت إدارة بوش قد جددت عرضها في يوليو ٢٠٠٦بعد مرض كاسترو مباشرة حول رفع الحصار التجاري المفروض على البلاد مقابل التزام هافانا بالقيام بإصلاحات ديمقراطية.

ورغم أن العرض الذي تقدمت به واشنطن لم يحمل جديداً عما قدمته منذ أربع سنوات.. إلا أن توقيت عرضه جعله يحمل دلالات مهمة، لأنه جاء بعد تخلى كاسترو عن السلطة لأول مرة مؤقتاً لصالح شقيقه راؤول.

وقد تضمن العرض الأمريكي رفع الحصار المفروض على كوبا منذ ٤٤ عاماً مقابل تطبيق عدد من الإصلاحات منها تكوين أحزاب سياسية، وإجراء انتخابات وإطلاق سراح المسجونين السياسيين ومطالب أخرى.

معروف أن الإدارات الأمريكية المتعاقبة قدمت ملايين الدولارات لدعم المعارضة الكوبية، وإسقاط نظام الرئيس الكوبي كاسترو إلا أنها فشلت في تحقيق أي تقدم في هذا الطريق... ولكنها بدأت في يوليو ٢٠٠٦م ما أطلقت عليه خطة "تعزيز الديمقراطية في كوبا" من خلال صندوق رأسماله ٨٠ مليون دولار لتمويل الجهود الرامية إلى ذلك.

وهو جزء من مقترحات لجنة دراسة أمريكية برئاسة كونداليزا رايس وزيرة الخارجية وكارلوس جونيريز وزير التجارة الأمريكي وضع خطط لكوبا بعد رحيل كاسترو.

ورغم أن راؤول شرع فور تسلمه السلطة من أخيه في تطبيق خطة عسكرية جديدة ضد أي تدخل أجنبي تضمنت تعبئة القوات المسلحة وعشرات آلاف شباب الميليشيات خوفاً من أي غزو أمريكي محتمل لكوبا بعد مرض كاسترو أو رحيله .. إلا أن هناك توقعات ألا يكون هناك في كوبا انتقال هادئ للسلطة حيث لا تخفي واشنطن دورها في هذا الصدد بعد أن عينت إدارة بوش شخصاً يدعى "كالب ماكاري" منسقاً للانتقال في كوبا، وقدمت له ميزانية قدرها ٥٩ مليون دولار لتسريع عمليات انتقال السلطة في كوبا وضمان الشخصيات الموجودة حالياً مثل راؤول أو كارلوس لاجي نائب الرئيس أو بيريز روكي وزير الخارجية .. فهل تنجح واشنطن؟

الفصل العاشر

قصة العلاقات الكويتية السوفيتية

بيت من رمال وجليد



حصل له ماحصل مع عبد الناصر في ١٩٥٤، فقد أراد علاقات طيبة مع واشنطن التي تزعم أنها نصير الحريات والشعوب المضطهدة ، وذهب بنفسه إلى واشنطن يخطب ودها باعتبارها أول جار ، لكنها سدت الأبواب في وجهه، وتعاملت معه بصلف وغرور تأباه نفسه الحرة، فماذا كان قراره؟

لقد ذهب إلى الباب المفتوح حينذاك وهو الباب السوفيتي الذي كان يحترم -من منطلقات إيديولوجية- نضال الشعوب ويساعد حركات التحرر كما هو يريد محاصرة الخطر الأميركي الذي يهدده من بعد انتهاء الحرب الكونية العالمية الثانية واختفاء النازية وظهور الطبعة الجديدة من الرأسمالية المتوحشة.

وتعد العلاقة الكوبية- السوفيتية نموذجاً لقدرة القائد الثوري على توظيف الظروف المحيطة به لمصلحة بلاده ،خاصة إذا كانت هذه البلاد فقيرة في مواردها الاقتصادية وتحتاج إلى دعم سياسي أو اقتصادي ففي عصر صراع الأفيال تحتاج الثورات الوليدة إلى ظهر يحميها أو قوة عظمى من اجل صيانة مشروعها من التهديد الذي تواجهه من دولة كبرى أيضا.

فكوبا دولة صغيرة متاخمة للولايات المتحدة، صحيح أن مساحتها تعادل

مساحة هولندا والدنمرك وبلجيكا مجتمعة إلا أن مواردها لاتكفيها، وقد ظلت تحت حكم ديكتاتوري وموال لجارتها الكبرى إلى أن قاد كاسترو انقلابه الناجح ،وأطاح بالدكتاتور "باتيستا"وأنشأ نظام حكم شيوعيا، ارتبط بعلاقة قوية مع الاتحاد السوفيتي البعيد عنه بآلاف الأميال لان اقرب الجيران ناصبه العداء بعد الثورة والقرارات الإصلاحية، ومن بينها قانون الإصلاح الزراعي، وتحكم الدولة في تصدير قصب السكر.

والواقع أن القيادة السوفيتية كانت تتابع ثورة كاسترو باعتبارها ثورة تحرر وطني يشارك فيها الشيوعيون وأبرزهم جيفارا وراؤول شقيق كاسترو ، في الوقت الذي كانت أميركا تدعم الدكتاتور باتيستا ، وبدا الأمر مثيرا للدهشة : كيف تدعم واشنطن حاكما غير مرغوب فيه من شعبه وتناصب الثوار العداء؟

لقد نشرت الصحف الأميركية ومن بينها نيويورك تايمز والتايم عدة مرات تقارير عن النشاط السري ضد كوبا، وفي ٢٤نوفمبر١٩٦٠نشرت مجلة"تايم" خريطة لكوبا حددت فيها مواقع العمليات المشبوهة التي يتم تدبيرها للإطاحة بالنظام الثوري في هافانا وصرح المعلق الأميركي وليام فراي استنادا إلى المراجع بان وكالة الاستخبارات المركزية" تعتزم تمويل وتسليح فتنة ضد كاسترو على غرار تلك التي حدثت في جواتيمالا".

وفي المقابل أوفد الاتحاد السوفيتي في سبتمبر ١٩٦٠ أول مستشار عسكري لمساعدة الحكومة الكوبية في القضاء على بقايا النظام السابق، وأبدت موسكو تأييدها لثورة كاسترو، واستعدادها للتعاون المطلق بما في

ذلك إمداد كوبا بصفقة أسلحة مقابل كميات من السكر الكوبي وصولاً إلى إنشاء قاعدة عسكرية سوفيتية في كوبا لحمايتها من أية تهديدات أمريكية محتملة.

خبراء روس في هافانا

ولقد أدت محاولة الغزو الفاشلة لكوبا من قبل المتمردين المدعومين أمريكيا في إبريل١٩٦١ في منطقة خليج الخنازير، إلى ترسيخ علاقة التعاون الكوبي السوفيتي عسكريا، واستمر توافد الخبراء السوفييت الذي ترأسهم الجنرال الكيسي ديمنتييف لمدة عام كامل اقتصرت فيه علاقات التعاون العسكري بين البلدين على إمدادات السلاح التقليدي والتدريب.

وفي يوليو١٩٦١ وبعد أسابيع قليلة من المحادثات التي أجريت في موسكو بين خروشوف وراؤول كاسترو، أعرب الطرفان عن مخاوفهما من احتمال تعرض كوبا لخطر الغزو مرة أخرى من قبل الولايات المتحدة. وهى المحادثات التي وافق خلالها الزعيم الكوبي على نشر الصواريخ النووية سراً في الأراضي الكوبية ودعمها ببطاريات صواريخ الدفاع الجوي بالإضافة إلى ٢٠ ألف مقاتل سوفيتي بدأوا بالفعل في الوصول إلى أراضي كوبا في أغسطس١٩٦١ .

وفي ٢سبتمبر من نفس العام أعلن الطرفان طلب كوبا لمساعدات عسكرية سوفيتية تتمثل في إمدادات السلاح والخبراء والفنيين لتدريب الجيش الكوبي،ولم يرد في البيان أي أشارة لأسلحة نووية.

ولقد أدى اكتشاف الولايات المتحدة لمواقع الأسلحة النووية إلى خلق

مواجهة أمريكية سوفيتية تعد أخطر مواجهة بينهما حيث حملت مخاطر الحرب النووية فيما اعتبرته الولايات المتحدة تهديداً نووياً مباشراً لأمنها، وهو ما عرف وقتئذ "بأزمة الصواريخ الكوبية"، وزاد من تصعيد الموقف إسقاط بطاريات الدفاع الجوي السوفيتية التي تم نشرها في أراضي كوبا لطائرة استطلاع أمريكية فوق الأراضي الكوبية.

الأمر الذي حدا بالولايات المتحدة، تحت رئاسة جون كيندي، إلى فرض حصار بحري محكم حول كوبا أدى في النهاية إلى اتخاذ القيادة السوفيتية قرارها بسحب الصواريخ وقاذفات القنابل النووية، بعد التوصل لاتفاقية مع الولايات المتحدة بالسماح للاتحاد السوفيتي بالإبقاء على وحدة عسكرية في كوبا سميت" لواء التدريب" واستمر الدعم العسكري السوفيتي لكوبا دون توقف منذ ذلك التاريخ حتى بلغ حجم المساعدات العسكرية السوفيتية لكوبا حوالي ١,٥بليون دولار سنوياً شملت التسليح والتدريب.

السكر مقابل البترول

وعلى صعيد التعاون الاقتصادي والتجاري، استوعب السوق المشترك للدول الشيوعية-كوميكون-والذي تمتعت كوبا بعضويته إلى أن تم حله في عام ١٩٩٠، حوالي ٩٠٪ من تجارة كوبا الخارجية، منها٧٥٪ مع الاتحاد السوفيتي فقط في صورة صفقات متكافئة بشروط تمييزية تحصل كوبا بمقتضاها على البترول والسلع المصنعة والغذائية، وتمد الاتحاد السوفيتي بالنيكل والموالح وثلث احتياجاته من السكر.

ووصل حجم التبادل التجاري وفقا لتقديرات جهاز المخابرات الأمريكي١٦,٤ بليون دولار عام١٩٨٩، وانخفضت في عام١٩٩٠ إلى ٣,٥بليون دولار.

وسعياً من الرئيس السوفيتي الأسبق جورباتشوف إلى إضفاء المصداقية لسياسة البريسترويكا، في تلك المرحلة الحرجة التي كانت تمر بها بلاده، ورغبة منه في خطب ود دول الغرب الصناعية الغنية، بحثاً عن المساعدات الاقتصادية والدعم الغربي لسياساته الإصلاحية، بدأ في عام ١٩٨٧ في العمل على تحجيم علاقات بلاده بكوبا والابتعاد بها عن سياسات كاسترو الشيوعية المتشددة فبدأ المسئولون السوفييت في مراجعة العديد من الشروط التجارية التفضيلية التي تمتعت بها كوبا من قبل ولسنوات طويلة، وإعادة النظر في حجم المساعدات الممنوحة لها، وخاصة في ظل الأزمة الاقتصادية والضائقة المالية التي كان يمر بها الاتحاد السوفيتي نفسه ،واحتياجه للمساعدات من الغرب الأمر الذي يجعل من الصعب المطالبة بتلك المساعدات في وقت يمنح فيه الاتحاد السوفيتي لكوبا هذا الكم الهائل من المساعدات الاقتصادية.

انقلاب جورباتشوف

ثم جاءت محاولة الانقلاب الفاشلة ضد جورباتشوف، وموقف الزعيم الكوبي كاسترو المؤيد لزعماء الانقلاب من الشيوعيين المتشددين، لترسم الفصل الأخير في تاريخ العلاقة الكوبية السوفيتية الحميمة، حيث أعلن

كل من جورباتشوف، وخلفه يلتسين رئيس جمهورية روسيا الاتحادية، والذي بدأ منذ ذلك الوقت دوره في ارتداء ثوب الزعيم القومي، أعلنا في ٥سبتمبر ١٩٩١أنه ليس من المنظور أن تستمر المساعدات السوفيتية لكوبا على نحو ما كانت عليه، وأضاف وزير الخارجية السوفيتي وقتئذ بوريس بانكن أن الوقت قد حان لإعادة تقييم العلاقة السوفيتية الكوبية.

وفي أول إعلان رسمي للاتحاد السوفيتي عن عزمه تعديل سياساته كلية تجاه كوبا صرح جورباتشوف في مؤتمر صحفي مشترك بمناسبة زيارة وزير الخارجية الأمريكي جيمس بيكر في١١سبتمبر٩١ أن بلاده تعتزم تعديل علاقاتها بكوبا لتصبح علاقات اقتصادية وتجارية عادية ذات نفع مشترك، مع إلغاء كافة العناصر والتي ولدتها ظروف وأوقات مختلفة.

وهو نفس المؤتمر الصحفي الذي أعلن فيه جورباتشوف للمرة الأولى في تاريخ العلاقات الكوبية السوفيتية قرار الكرملين بسحب القوات السوفيتية المتمركزة في كوبا والتي قدرها بحوالي١١ ألف مقاتل، وأضاف أن المحادثات مع الجانب الكوبي ستبدأ قريباً للنظر في سحب " لواء التدريب" المتمركز خارج العاصمة الكوبية هافانا ولم يضع الزعيم السوفيتي إطاراً زمنياً لإتمام عملية سحب القوات.

وبينما كان الاتحاد السوفيتي قد بدأ بالفعل في عملية سحب مستشاريه في مختلف المجالات العسكرية والمدنية من كوبا، ظل مجالٌ وحيد لم يشمله برنامج الإخلاء وهو الخاص بالتعاون النووي، حيث أبقى الاتحاد السوفيتي على مستشاريه العاملين في مشروع إنشاء أول محطة نووية لتوليد الطاقة

الكهربائية في كوبا خشية أن يؤدي ترك الأمر للخبرة الكوبية المتواضعة إلى كارثة نووية في المنطقة، تهدد أول ما تهدد الأمن الأمريكي، بما يمكن معه تفسير القرار السوفيتي بالإبقاء على خبرائه في المجال النووي في كوبا على أنه تمشياً وحفاظاً على المصلحة الأمريكية في المقام الأول.

ولقد كان من الممكن أن تستمر علاقات التعاون السوفيتي الكوبي برغم ما حدث من تطورات في صورة تعاون اقتصادي ولكن على أساس يختلف عن صورته السابقة، بشكل يخفف ولو جزئياً من وطأة الأزمة الاقتصادية الكبيرة في كوبا، إلا أن تداعيات الأحداث التي شهدها الاتحاد السوفيتي، والتي أدت في النهاية إلى تفككه وانهياره واستقلال جمهورياته لتشكل اتحاد الكومنولث الجديد، واختفاء جورباتشوف من دائرة صناعة القرار السياسي ليظهر بدلاً منه يلتسين الأكثر ميلاً نحو الغرب وابتعاداً عن الشيوعية، جاء كل ذلك مجتمعاً ليقضي على احتمال استمرار التعاون بين كوبا وروسيا-أكبر جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق- والتي حلت محل الاتحاد السوفيتي على الخريطة السياسية العالمية، بل وصل الأمر إلى حد توجيه يلتسين النقد العلني الحاد إلى كل من كوبا والصين لعدم احترامهما لحقوق الإنسان ،وذلك أثناء حضوره قمة الدول أعضاء مجلس الأمن التي عقدت في نيويورك في يناير١٩٩٢ ، وبدا أن الاتجاه اليميني الذي سيطر على مؤسسات الحكم في روسيا والذي اتجه نحو تخليص روسيا من التزاماتها الاقتصادية لم يتورع عن النفاق للغرب، وتحديدا أميركا والهجوم على أنظمة حليفة مثل كوبا وكوريا الشمالية والصين.

وهكذا... وبعد عقود ثلاثة متتالية من التعاون المثمر والمكثف في إطار المصلحة المتبادلة بين كوبا والاتحاد السوفيتي.. على أساس أيديولوجي واحد مشترك، وقت أن كانت كوبا تمثل ورقة رابحة في يد الحليف السوفيتي تستخدم في مواجهة النفوذ الأمريكي، تغيرت الأحوال وجاوزت الأحداث الأساس الأيديولوجي والبناء العقائدي الذي كان قد وضع كوبا ضمن منظومة المواجهة مع الرأسمالية الاحتكارية وصارت كوبا بين عشية وضحاها وكأنها عبء ينبغي أن يدفع ثمن طعامه بالعملة الصعبة، بعد أن فقد ما كان يحصل عليه من مخصصات ثابتة ساعدته على تحقيق أهداف الثورة وتنمية كوبا بحيث صارت قلعة علمية وتملك أفضل كليات الطب والهندسة في القارة برمتها.

وفي يناير ١٩٩٢عقد في كوبا مؤتمر بمناسبة الذكرى الثلاثين لأزمة الصواريخ شارك فيه وفد أمريكي برئاسة روبرت ماكنمارا وزير الدفاع الأمريكي الأسبق في حكومة جون كيندى وقت حدوث الأزمة، ولقد انتقد ماكنمارا مجدداً ممارسات حكومة كاسترو على صعيد حقوق الإنسان مؤكداً أن هذا الموضوع لا يحظى باهتمام الولايات المتحدة فقط، ،ولكن دولاً أخرى عديدة معرباً عن نهاية الصراع الأيديولوجي وثنائية القطبية ، بعد أن اختار العالم مسلك التفاهم والحوار والتعاون المشترك ، واختفى العملاق السوفيتي ، وأصبحت الولايات المتحدة قوة عظمى وحيدة في عالم اليوم.

الفصل الحادي عشر

كاسترو والعرب

نصف قرن سياسة

و٥٠٠سنة تاريخ

آرنستو خوميس باسكال صحفي ودبلوماسي كوبي معروف مثّل بلاده سفيراً فوق العادة لدى الجمهورية العربية السورية وهو يعتز بجذوره العربية التي ينتمي إليها من ناحية الأم ولو أن عهدها قد يعود لأحقاب ماقبل الفتح.، وقد حرر عدداً من المقالات حول الوجود العربي في الجزيرة الكاريبية ،نشرت على صفحات «بوهيميا» أوسع المجلات انتشاراً في كوبا ومنها المقالة التي نشرتها صحيفة البعث السورية،وتكشف عمق العلاقات العربية الكوبية.

ما من أحد ينكر أن العنصرين الاسباني والأفريقي هما أهم مكونات هذا المزيج البشري الذي يعطي القومية الكوبية قوامها وخصائصها ،بيد أن الدهشة قد تعتري الكثيرين إذا ماعلموا أن للعنصر العربي حيزاً لايستهان به في التركيبة السكانية التي نشأت وتطورت على أرض الجزيرة.

يمكن القول بأن وصول العناصر الثقافية العربية الإسلامية إلى كوبا يكاد أن يكون مرافقاً لمجيء الفاتحين الاسبانيين الاول عام ١٤٩٢، ذلك أن أولئك القادمين من شبه الجزيرة الأيبيرية جاؤوا بغالبيتهم العظمى من بلاد الأندلس، ولا يستبعد وجود من يحمل منهم الدم العربي جارياً في عروقه، هذا عدا عن أنهم كانوا حملة وناقلين للكثير من مظاهر تلك الحضارة العظيمة.

إن اثر الوجود العربي الإسلامي في اسبانيا، الذي امتد طيلة ثمانية قرون تقريباً، وكانت نهايته قبيل فتح العالم الجديد إنما تميزت بتجليات ثرية ومتنوعة، لكنها أكثر ما تتراءى في اللغة المحكية والعمارة والموسيقى والكثير من العادات والتقاليد التي غدت سمات راسخة في نفوس المستعمرين.

من المعترف به أن التطور الثقافي والعلمي لدى العرب كان قد بلغ مستوى لم تبلغه أوروبا في ذلك الزمن، ويتميز بشكل خاص بإتقان علوم الحساب والرياضيات، إلى جانب الجغرافيا وعلمي الفلك والملاحة البحرية، وفنون العمارة ،وهذا ناهيك عن النهضة الشاملة في مختلف فروع الأدب والشعر بشكل خاص.

إن ماوصل إلى كوبا من المؤثرات الهامة للتراث العربي جاء عن طريق الأسبان، وضمن ماهو اسباني ولهذا السبب ظل تأثير ذلك التراث مجهول الجذور والأبعاد بشكل عام.

ومن هنا، يمكن أن يفاجأ المواطن العربي إذا ماعرف أن عدداً لايستهان به من العبارات التي ننطق بها في حياتنا اليومية هو عربي الأصل والمنشأ والأمر لايقتصر على هاتيك الألفاظ التي تبدأ بالمقطع الهجائي«أل» مثل (ALmohda المخدة و Alcohol الكحول و Alcantara القنطرة) بحسب ما هو شائع،لذا يمكننا القول مجازاً أن هناك نسبة مئوية غير محددة مما يتكلمه الكوبيون تعود بأصولها إلى تلك اللغة بالغة الصعوبة، والتي تحدث وقعاً خاصاً على أسماع غير الناطقين بها. ومن اللغويين من يقدر ببضعة آلاف

عدد الكلمات العربية التي نقلها الأسبان إلى لغتهم.

على سبيل المثال لدينا عبارة Ogala أتت تعريفاً لجملة «إن شاء الله» وهي شائعة الاستعمال في كوبا، والرز الذي تتناوله في طعامك أصبحت Elarrz وكذلك السكر El azucarفيما نقلت كلمة فلان إلى fulano.

ما من شك بأن هناك عناصر ومصطلحات عربية كثيرة متواجدة في شبه الجزيرة الايبيرية، وليس لها استعمال في أميركا، ويمكن التأكيد بأنه لم تجر بعد أية دراسة معمقة حول المكونات العربية في اللغة الاسبانية المحكية في العالم الجديد، علماً بأن التأثير العربي جاءنا بالأساس عبر اللغة إياها التي حملت الثقافة والقيم الأخلاقية وربما كان أهمها الكرم العربي ، وان ما استشهدنا به لايتعدى كونه نزراً يسيراً من معين لاينضب من الكلمات الأكثر استعمالاً.

وخلّف الأسبان في كوبا ما لايحصى من الدلائل على التأثير العربي في هندسة العمارة وفنون البناء التي لاتزال شواهدها قائمة حتى أيامنا الحاضرة، وتتجلى في المباني القديمة وفي الأقواس على شاكلة حدوة الفرس،والباحات الداخلية للمنازل والشرفات المطلة من عمارات كثيرة تعود إلى العهد الاستعماري، وهذا إلى جانب عناصر الزينة ذات النقوش العربية والمصنوعة من الجص والخشب.

غير ما سبق فهنالك الكثير من العادات والتقاليد عربية الجذور وكذلك بعض الألحان والمأكولات وصلت إلى الجزيرة مع الغزو الاسباني، وقد يستغرب المرء أيضا إذا ما علم أن عناصر افريقية غدت ملازمة للثقافة

الكوبية ،وفي صلب مكوناتها إنما تعود إلى أصول عربية إسلامية حملها الملايين من العبيد الزنوج الذين تم نقلهم إلى ما سمي آنئذ بالعالم الجديد ذلك أن مجموعات من أولئك الوافدين كانت قد اعتنقت الإسلام إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر ،ولاسيما الذين قدموا من الساحل الشمالي لأفريقيا الغربية ،والذي يضم اليوم كلاً من: مالي والسنغال وجامبيا وغينيا أيضا.

بهذه الوسيلة وصلت كلمات عربية ما زالت تتردد في لهجات تلك المجموعات الأفريقية ،ولاسيما في أغانيهم وطقوسهم الدينية ويمكنك أن تسمع في زياراتك لمحلة «خواناباكوا» عبارات التحية التقليدية العربية «السلام عليكم، وعليكم السلام» تتردد في الأناشيد الدينية المعروفة باسم«خواخوانكو».

ويجب التنويه بأن هجرة عربية مباشرة إلى كوبا استهلت في أواخر القرن التاسع عشر، وبلغت الأوج خلال العقود الأولى من القرن العشرين، حيث كانت للوافدين الجدد مساهمات قيمة شملت مختلف مناحي الحياة الاقتصادية والثقافية والسياسية، بما في ذلك نضالات الشعب الكوبي ضد الاستعمار ومن أجل التحرر والعدالة الاجتماعية أيضا الهجرات العربية.

في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين حدثت هجرات عربية إلى كوبا هربا من الاضطهاد العثماني أو بحثا عن الرزق، وذلك بمجيء اللبنانيين والفلسطينيين والسوريين وبدرجة أقل المصريين والليبيين والجزائريين واليمنيين. يبدو أن أول ممثل عن هذه الموجة كان

يوسف جبور الذي وصل كوبا في العام ١٨٧٠، حيث تبين إحصائيات الهجرة أن ما بين ١٩٠٦ و ١٩١٣ كان ٣٠ بالمائة من العرب الذين وصلوا إلى كوبا، قد جاءوا مباشرة مما يسمى تركيا الآسيوية ومن بلدان أوروبية وأمريكية أخرى.

المهاجرون اللبنانيون كانوا أصحاب السبق في الهجرة عن أراضيهم بسبب الأزمة الاقتصادية العميقة التي أفلست المنتجين المحليين ، وبسبب اضطهاد الإمبراطورية العثمانية للمجموعات المسيحية ، خاصة المارونية منهم . أما الفلسطينيون فهاجروا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى بشكل أساسي ، وتشير الإحصائيات إلى أنه ما بعد عامي ١٩٢٠ و ١٩٣١ دخل كوبا ما مجموعه ٩٣٣٧ مواطناً عربياً من شرقي البحر الأبيض المتوسط .

منذ بداية وصولهم البلد ظهرت مشكلة تسمية المهاجرين العرب العامة الذين سجلوا في البداية ك" أتراك " بغض النظر عن انتمائهم العرقي الحقيقي . وبعد هزيمة الأتراك سموا بـ " السوريين ".

لقد فضلوا الاستقرار في المناطق الحضرية والتجارية من الجزيرة ،و في القرى المتطورة في صناعة السكر وتربية المواشي . وكانت المناطق السكنية الأكثر أهمية لهم هي مدينتا هافانا وسنتياجو دي كوبا وهما أهم الموانئ لوصول الناطقين بالعربية إلى الجزيرة . إضافة إلى المنطقة الوسطية لمدينة هافانا (سنتو هافانا الحالية) و الجزء التاريخي لها ،. إن الجيل الأول من المنحدرين من أصل عربي برز- ولا يزال -في مجال العلوم الطبية وأوجه مهنية أخرى .

لقد تميزت كتلة المهاجرين العرب بالتنوع الطائفي الخاص بالمنطقة : مسيحيون موارنة ، وأرثوذكس ، وآشوريون كالديون ، وآشوريون ، ومسلمون سنة وشيعة ودروز . وأكثرهم نشاطا دينيا كانوا الموارنة الذين كان لهم أربعة خوريون (كنائس)موارنة في مدينة هافانا يقيمون القداس باللغة العربية في الخوريات الموجودة في العاصمة. أيضا أقام الخوريون الموارنة طقوس الزواج والتعميد والطقوس الخاصة بموتى الجالية المسيحية العربية في كوبا.

حارة العرب في هافانا

شكل المهاجرون العرب حوالي٤٠جمعية اجتماعية أو ترفيهية ، وفي حالات استثنائية فقط كان لها مرام سياسية وتركز الجزء الأكبر منها فيما سمي بـ "حارة العرب في هافانا" التي امتدت من شارع "مونتي" كشارع رئيسي لها إلى غيرها من الشوارع مثل شارع مارنقولاس ، وشارع كوراليس ، وأنتون ريسيو ، وشارع فيجوراس . لقد تجمعوا أيضا في حارة "تيفولي" في مدينة سنتياجو دي كوبا .

ترك العرب آثارهم في مختلف مجالات الحياة السياسية والثقافية للجزيرة، أكثر من اثني عشر منهم انضموا بنشاط إلى الحروب الاستقلالية وترفعوا إلى رتب عسكرية مختلفة؛ كما انه خلال النضالات الثورية في المدن ضد الاستعمار الجديد، سجلت أسماء الكثير من المنحدرين منهم في قائمة شهداء الوطن . أما العلماء الناطقون باللغة العربية فقد قاموا بإنجازات لن تمحى من تاريخ الطب وفروعه ؛ والأمر كذلك في مجال الثقافة ، حيث

برزت إنجازاتهم في الموسيقى والفنون التشكيلية والشعر ، دون أن ننسى هؤلاء الذين برزوا في المحاماة وتعليم الفلسفة واكتسبوا شهرة على المستوى العالمي .

في الوقت الراهن يتجمع الوافدون الشرقيون والمنحدرون منهم في الجزيرة في الاتحاد العربي في كوبا (U A C)وهو منظمة غير حكومية تأسست رسميا في الرابع من شهر أبريل من عام ١٩٧٩ نتيجة عملية توحيد الجمعية اللبنانية في هافانا ، والجمعية العربية المركزية ، والجمعية العربية الفلسطينية في كوبا . ومثل ذلك الانصهار تحقيق أمنية قديمة لمسئولي الهيئات المذكورة : لم شمل العائلة العربية في كوبا ، وأداء عمل أفضل فيما يخص نشر الهوية والتقاليد والثقافة العربية والترويج لها.

يشكل الاتحاد العربي في كوبا أحد أعضاء اتحاد الجاليات العربية في أمريكا اللاتينية (FEARAB - AMERICA)البارزين والناشطين ، فيجري تبادلات أخوية مع الاتحادات العربية الموجودة في البلدان الأعضاء.

ويسعى الاتحاد العربي في كوبا للحفاظ على روابطه العائلية والتاريخية مع الوطن الأصلي لأجداده عبر علاقاته الثنائية، وهناك هيئة هامة أخرى تعمل في سبيل نشر إرث الثقافة العربية في كوبا، وهي " دار العرب " التابعة لمكتب مؤرخ مدينة هافانا، الذي أقيم في عام ١٩٨٣ والذي يحتضن في قاعاته متحفا عربيا تبرز من بين قاعاته الأكثر إبداعا قاعة عرض تاريخ المهاجرين العرب في كوبا .

هناك عناصر أخرى تضاف إلى تراث الثقافة العربية في كوبا لم تنجُ من

الميل والحب للعروبة في القرنين الأخيرين في الفن المعماري ، كالقصور والفنادق ذات شهرة ، أو عادة شراء مطرزات حائطية عليها رسوم ترمز إلى مشاهد البدو و المتاجرة، أو حتى استيراد أدوات وتماثيل خاصة بثقافة الإسلام، إن كل تلك المؤشرات تضاف إلى تلك الذكريات التي احتفظ بها أبناء العرب أنفسهم بما فيها القرآن والإنجيل باللغة العربية وحتى العود ، وهو أداة موسيقية عربية الأصل اندمجت في الموسيقى الكوبية الشعبية.

وتكتمل البصمات الثقافية العربية في الجزيرة بالتضامن التاريخي والمتزايد الذي لا زالت كوبا تمارسه مع مختلف الشعوب العربية في نضالها من أجل الاستقلال والعدالة . لقد ورث المواطن الكوبي الحالي من أفكار خوزيه مارتي تقديره العالي لحضارات عريقة كالحضارة العربية الإسلامية كانت مقوماتها العرقية - على حد قول المعلم خوزيه مارتي - "مخلوقات الأرض الأكثر خفة في الحركة والأكثر إثارة للإعجاب.

مسلمو كوبا
هل تمتعوا بحرية العقيدة؟

وبقيام الثورة في كوبا عام ١٩٥٩ حرص فيدل كاسترو على أن تمارس كل طائفة شعائرها الدينية ولم يكن كاسترو انتهج الماركسية بعد ذلك لم يحُرم المسلمون في كوبا من الاتصال بالعالم الإسلامي، لكن الحال تغير نسبيا بعد انتهاج النظام للماركسية حيث تراجع الاهتمام بالأديان لكن لم تتعرض أي طائفة للاضطهاد فقد تركت المسالة الدينية للأفراد، لاتتدخل

فيها الدولة سلبيا أو ايجابيا ،لكن هناك شهادات تفيد أن الجيل الإسلامي الذي ولد في ظل الثورة تعرض لأزمة دينية ثقافية كبيرة بسبب نظام شيوعي يدرّس الإلحاد في المدارس.

وذكرت بعض الأوراق الثقافية (من بينها ورقة بعنوان: جنة الماركسية في كوبا)أن النظام الثوري في هافانا لم يسمح بإنشاء أي مسجد للكوبيين على الإطلاق، واستثنى فقط البيت العربي في هافانا القديمة والذي ظل المكان الوحيد في كوبا الذي تسمح الحكومة بفتحه مدة ٣ ساعات كل يوم جمعة لأداء صلاة الجمعة بإحدى قاعاته للدبلوماسيين العرب والمسلمين في كوبا، بينما مُنع المسلمون الكوبيون من أداء باقي الفرائض فيه، ولم يعد بإمكانهم أداء صلواتهم إلا في المنازل بعيدا عن رقابة واعتراضات الحكومة.

وفي عام ١٩٨٢ اعتبرت اليونسكو البيت العربي من الآثار الإنسانية حيث جرى بناؤه بواسطة أحد التجار العرب في القرن السابع عشر وتبرعت قطر بمبلغ ٤٠ ألف دولار لتطويره ليضم مكتبة تحوي ١٢٠٠ كتاب، ومعرضا للتراث العربي ووثائق عربية من لبنان وصالة للمعارض وأخرى للمؤتمرات.

الوضع الحالي لمسلمي كوبا

ومنذ طرح كاسترو تطويرات على الماركسية١٩٩١ لاستيعاب المتغيرات المترتبة على انهيار الاتحاد السوفيتي يرى مسلمون في كوبا أن انفراجة دينية واسعة حصلت وقد سمح لأعضاء الحزب الشيوعي ببعض الممارسات الدينية مثل ارتياد الكنائس لكن لم يتمكن المسلمون من بناء أي مسجد

لهم وان سمح لهم بالصلاة في البيت العربي، كما لم تسمح الحكومة بإجراء أي تعداد لهم أو تعترف بهم كأقلية، ورفضت الطلب الذي تقدم به محمد يوسف مهاجر الأمين العام للمنظمة الإسلامية لأمريكا اللاتينية بالسماح بتمثيل مسلمي كوبا في اجتماعات المنظمة: في الوقت الذي اعترفت بالأقلية اليهودية البالغ عددها ١٣٠٠ نسمة وسمحت لهم ببناء ١١ معبدا تركت لهم فيها الحرية التامة لممارسة شعائرهم، كما سمحت لهم بإنشاء العديد من المنظمات والهيئات الخاصة بهم.

وفي الوقت الذي قام الرئيس الكوبي كاسترو بزيارة الفاتيكان عام ١٩٩٦ ثم استقبل البابا في هافانا عام ١٩٩٧ وما صاحبه من الموافقة على فتح كثير من الكنائس الكاثوليكية في كوبا كان الموقف من الإسلام على النقيض، فحين استقبلت الحكومة في مايو ٢٠٠٢ الأمين المساعد لمنظمة اتحاد العالم الإسلامي بمكة الشيخ محمد بن ناصر العبودي، رفضت طلبه السماح ببناء مسجد لمسلمي كوبا أو بتحويل بيت لكوبية اعتنقت الإسلام حديثا إلى مكان الصلاة بل واعتبرت الطلب "غريبا" لأن مواطنيها "شيوعيون" واقترحت على الشيخ العبودي أن يتقدم بهذا الطلب للحزب الشيوعي للنظر فيه!.

لكن صحافيين كوبيين زاروا مصر في خريف ٢٠٠٦ أكدوا لنا(المؤلف) أن الجالية الإسلامية في كوبا قليلة العدد وغير منظمة بعكس الطوائف الأخرى خاصة المسيحية كبيرة العدد، وتحظى بدعم دولي وان كاسترو يحترم المسلمين في كوبا وخارجها وان أفضل علاقاته خارج القارة هي مع

المسلمين من الجهود وبالتالي لايوجدموقف سلبي من بناء المساجد، خاصة أن هناك العديد من جمعيات الصداقة بين كوبا والدول الإسلامية وهي كثيرة أهمها جمعيات الصداقة مع لبنان وسوريا ومصر وتونس واليمن والعراق وإيران والأردن وليبيا، كما توجد جمعية الاتحاد العربي في كوبا للمهاجرين من لبنان وفلسطين وسوريا منذ عام ١٩٧٩، وتصدر مجلة "العربي" مرتين في السنة بالعربية والأسبانية ويمكن لهذه الجمعية أن تلعب دورا في تخفيف حدة المواقف الحكومية تجاه المسلمين هناك.

المرابي اليهودي والكيان الصهيوني

ظل كاسترو ينظر إلى الكيان الصهيوني على انه مخلب قط في يد الاستعمار الأميركي في المنطقة العربية ، لكن الوجود اليهودي في كوبا قديم وقد عمل بعضهم في تجارة الذهب وبورصة قصب السكر وعملوا أيضا في الملاهي الليلية ، وقد تغيرت العلاقات الكوبية الإسرائيلية ١٨٠ درجة بصعود كاسترو إلى الحكم وعلاقته المتميزة مع الزعيم العربي جمال عبد الناصر ، لكن بغياب ناصر ستعود العلاقات إلى درجة الصفر ،وسوف يدخل كاسترو في اشتباكات كلامية مع الرئيس أنور السادات ، فماهي خلفيات علاقة كاسترو والعرب؟ وكيف بدأت وتطورت علاقات كوبا مع إسرائيل وفي أي المسارات تحركت صعودا وهبوطا؟

العلاقات الكوبية الإسرائيلية- بدأت بصداقة حميمة بين حكومة العميل باتيستا وإسرائيل،الذي وفرلليهود الكوبيين حق الهجرة إلى إسرائيل، وكانت

لهم معاملة الأفضلية بين المهاجرين، فهم يستطيعون أخذ ممتلكاتهم الشخصية، ونفائسهم من المجوهرات والأرصدة المالية ،وكانت الطائرات الكوبية تنقلهم إلى إسرائيل، وكانت كوبا تعفيهم من رسوم المغادرة، وهى رسوم عالية على أي مهاجر إلا اليهودي ربما وجدت هذه التسهيلات لأن باتيستا كان يريد خدمة بريطانيا وأميركا ويضمن ولاء اللوبي اليهودي في كوبا والذي كان مسيطرا على القطاع المصرفي وبعض الأنشطة التجارية لكن هناك رأي آخر هو أن السلطات الكوبية حتى في ظل باتيستا كانت تدرك كراهية الكوبيين لليهود ففتحت لهم مجال الهجرة للتخلص من وجودهم في الشارع الكوبي الذي كان ينفر منهم ويسميهم الجيسانوس. - أي الدود!-

والواقع أن رجالاً أذكياء هم الذين مدوا هذا الجسر الودود بين كوبا وإسرائيل، وعلى رأس هؤلاء سليبر القائد السابق لحركة الشباب الصهيوني الشيوعي- الهاشومير هاتزاير- وهو من ترك كوبا إلى إسرائيل عام١٩٤٩!! كان سليبر زميلاً لكاسترو في الجامعة، وقد عاد لزيارة كوبا في أوائل الستينيات بعد أن أصبح فيدل سيد الموقف، ووثق سليبر علاقات الصداقة مع عدد كبير من أنصار فيدل كاسترو وأعوانه. فضمن لإسرائيل مثلاً مجموعة السرامايسترا- أي مجموعة المناضلين مع كاسترو في المقاطعة الشرقية، ومجموعات أخرى غير ماركسية كانت أكثر تعاطفاً مع إسرائيل من الحزب الشيوعي الشعبي الذي كان يتلقى توجيهاته من موسكو- ولم تكن موسكو راضية عن إسرائيل- وتراسل سليبر مع كارلوس رافاييل رودريجز-

وهو أحد المنظرين الكبار في الحزب الشيوعي الموحد ،ويسمونه "سوسلوف كوبا" وكانت الرسائل تدور حول تكوين جمعية صداقة كوبية إسرائيلية في كوبا تقابل جمعية تحمل نفس الاسم في إسرائيل ،وقد تحمس ردوريجز للفكرة، لكن علاقة كاسترو وناصر حجمت المحاولات الإسرائيلية المتكررة للدخول إلى المسرح السياسي الكوبي وفي الوقت نفسه فتح الباب أمام علاقة عربية متميزة على كل الأصعدة،لان كاسترو كان معجبا بثورة ناصر , وكان يردد أنه تأثر بها وتعلم منها ،وقد خطب ودها بزيارة راؤول كاسترو للقاهرة، وكذلك زارها جيفارا ونقلا لكاسترو انطباعات طيبة عن الزعيم العربي الذي يشكل ركنا مهما في حركة التحرر العالمية وحركة عدم الانحياز

ولما التقى بالرئيس جمال عبد الناصر عام١٩٦٠ في دورة الأمم المتحدة بنيويورك بدأت مرحلة جديدة ليس بين العرب وكوبا فقط بل مع القارة اللاتينية كلها يقول يورام شابيرا في كتاب (كوبا والعالم) إن الصحف الكوبية- وهي حكومية- كانت شديدة الإعجاب بالرئيس العربي عبد الناصر وقد وجدت فيه صفات مشتركة بينهما وهي عدم ارتباطهما بالشيوعية ولا المعسكر الرأسمالي وكلاهما سعى إلى بناء بلاده وفق مقتضيات الواقع وحسب الظروف وليس وفق نظرية سابقة التجهيز.

وفي السياق ذاته لم يبادر كاسترو إلى اتخاذ أي موقف عدائي ضد اليهود الكوبيين بل تم تعيين وزير يهودي في أول مجلس وزراء للحكومة الكوبية هو أنريك أولتسكي، وكان وزيراً للمواصلات وصحيح أنه لم يكن من الوزراء المهمين.. ألا آن تعيينه يعكس عدم صدام كاسترو مع اليهود آو حتى إسرائيل قبل أن

يتعرف على دورها الخطير في إطار المشروع الصهيوني الامبريالي.

واكتشف كاسترو فيما بعد أن إسرائيل لم تكن بعيدة عن الاحتكارات الأميركية التي نهبت ثروات بلاده، وأن عددا من الرأسماليين اليهود انحازوا إلى باتيستا ومولوا عملياته التخريبية ضد الثورة وتقديم دعم تكنولوجي إلى حكومة باتيستا، بما في ذلك تدريب فرق الموت التي شكلها باتيستا لقتل قتل الثوريين.

وكان رئيس النظام المستبد قد عين أول وزير مفوض في كوبا عام١٩٥٨،فأرسلت إسرائيل أول قائم بالأعمال إلى هافانا في نوفمبر عام ١٩٥٩،أي بعد خلع باتيستا!

كاسترو-ناصر
صداقة زادها النضال

وعندما زار القيادي السوفيتي البارز ميكويان كوبا في فبراير عام ١٩٦٠ تحولت كوبا صوب الكتلة الشرقية، وبالتالي بدأت تتعاطف مع القضايا العربية ضمن الصراع العالمي بين قوى الهيمنة وقوى التحرر، وتجاوز الموقف بين كوبا وإسرائيل العلاقات الخاصة بينهما إلى العلاقات بين المعسكرين العالميين الاتحاد السوفيتي الذي يدعم الثورات التحررية في العالم الثالث والولايات المتحدة التي تقف في الخندق الآخر.

وفتح كاسترو أبوابه لمؤتمرات كثيرة كانت إسرائيل تتعرض فيها للنقد والتجريح والهجوم مثلما حدث في مؤتمر القارات الثلاث- آسيا وأفريقيا

وأمريكا اللاتينية، الذي انعقد في يناير عام١٩٦٠ حيث أرسلت حركات التحرر وفودا لهذا المؤتمر ،طالبت بإدانة إسرائيل لأنها صهيونية استعمارية عنصرية فاشية، ونادي المؤتمر بالتصدي للتغلغل الصهيوني، وطالب بقطع كل العلاقات مع إسرائيل، وطردها من كل المنظمات والمحافل الدولية وتأييد المؤتمر للشعب الفلسطيني في استعادة حقه في أرضه التي احتلتها العصابات الصهيونية بقوة السلاح.

وفي مؤتمر تضامن دول أمريكا اللاتينية- في أغسطس١٩٦٧- خطب كاسترو في نهاية المؤتمر، فأدان العدوان الإسرائيلي المدعوم من الاستعمار الأمريكي. ضد مصر وسوريا والأردن ودعت إلى تطبيق القرار الدولي ,٢٤٢

وقال إن الولايات المتحدة هي المحرض لإسرائيل على العدوان لأنها تسعى إلى إقامة قاعدة أميركية متقدمة في الشرق الأوسط ثم أكد أن الدرس المستفاد من الشرق الأوسط وواقعه الأليم هو أن الدولة لا يحميها أحد إذا لم تستطع أن تحمي نفسها!

وفي يناير عام ١٩٦٨ انعقد المؤتمر الثقافي الدولي في هافانا، وشاركت فيه وفود ٤٥دولة من القارات الست، وتقدمت الوفود العربية بقرار إدانة للامبريالية والصهيونية، وهددت هذه الوفود بالانسحاب من المؤتمر إذا لم يصدر القرار، وقد اعترضت بعض الدول الأوربية على الصياغة الحادة للإدانة، وفي الكواليس والاتصالات الجانبية أوعز الوفد الكوبي لوفدي كوريا الشمالية وفيتنام بدعم القرار العربي!

وظلت الصحافة الكوبية تتعاطف مع العرب وتنتشر البيانات والتحليلات

والتعليقات المتعاطفة كلما زار مسئول عربي كوبا، أو العكس، وأرسلت الصحف الكوبية مراسلين لها في القاهرة ودمشق لنقل صورة حية عن منطقة خصبة في العالم، وبالمقابل كفت عن تعاطفها مع إسرائيل، بل وأصحبت كوبا عمليا قاعدة وملتقى المثقف والدبلوماسي العربي مع الدول اللاتينية ذات الفكر اليساري، وكانت الصحف الكوبية تتغنى بالقضية الفلسطينية، وتطنب في شرح شرعية كفاحها، بل أن بعض صحف كوبا راح يهاجم الدول العربية التي اعترفت بإسرائيل آو عقدت اتفاقات صلح معها في نفس الوقت الذي أشادت فيه بالدول الصامدة في مقدمتها منظمة التحرير الفلسطينية وسوريا ولبنان وليبيا والجزائر واليمن الديمقراطية.

تدريب الفدائيين الفلسطينيين

وزار كوبا في يوليو عام١٩٧٠ أول وفد من منظمة فتح، واتفق في هذه الزيارة على أن تتولى كوبا تدريب بعض الكوادر الفدائية الفلسطينية، وفي الوقت الذي رفعت فيه ١٧ دولة في أمريكا اللاتينية درجة تمثيلها الدبلوماسي مع إسرائيل إلى مستوى السفارة، وتدفقت علاقاتها الاقتصادية والتجارية والثقافية،كانت كوبا توثق علاقتها مع العرب وتقدم دعما غير محدود للفلسطينيين.

وفي مؤتمر عدم الانحياز الرابع الذي عقد في الجزائر في سبتمبر عام ١٩٧٣ أعلن كاسترو قطع علاقاته مع إسرائيل، وأهمية هذا القرار هو صدوره قبل الحرب مباشرة وقد أرسلت كوبا قوة عسكرية مكونة من ٧٠٠ جندي ظلوا على الجبهة

السورية في الخطوط الخلفية وجاء القرار صدمة ومفاجأة كاملة للحكومة الإسرائيلية ولسفير كوبا في تل أبيب التي أغلقت أبوابها غير مأسوف عليها.

وقالت صحيفة "الجرانما" الكوبية أن موقف كاسترو ينسجم مع عدائه للعدوان الأمريكي الإسرائيلي على العرب وان هذا العدوان هو فصل في كتاب الغطرسة الأميركية والامبريالية ، وتصعيد الموقف بقطع العلاقات له ما يبرره لأن إسرائيل رفضت الجلاء عن الأرض المحتلة وفق القرار الدولي ٢٤٢ الذي تضمن انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي التي احتلت في ٤يونيو١٩٦٧، ثم أن كاسترو استجاب لمشاعر دول عدم الانحياز في الجزائر، ودخل كاسترو بهذا الموقف التاريخ العربي كصديق وحليف بل و خطيب ضد امريكاوإسرائيل كلما سنحت له الفرصة ، وهو في هذا تجاوز الموقف السوفيتي الذي كان يحرص على الإعلان عن حق إسرائيل في الوجود داخل حدود آمنة.

وتوطدت علاقة ياسر عرفات مع كاسترو وصارت كوبا أهم مركز تدريب للكوادر الفلسطينية ومصدرا للسلاح، وقد انتظمت كوبا في التصويت ضد إسرائيل لصالح العرب، بل في بعض الأحيان كانت تعد قرارات إدانة لإسرائيل وتعرضها على القيادات العربية سواء في مجلس الأمن أو في الجمعية العامة للأمم المتحدة.

اليهود ومدرسة اينشتاين!

بلغ عدد اليهود في كوبا ثلاثة عشر ألف نسمة عشية الثورة..، فصار في عام١٩٧٥ ١٤٠٠يهودي فقط، منهم٣٠٪، تجاوز الستين من عمره وفي ٢٠٠٦

بلغ عددهم مائة يهودي أغلبهم من الشباب الذين لا يعرفون عن اليهودية إلا القشور لأنهم انخرطوا في طلائع الثورة، ولأن المرابي اليهودي اختفى وهو من يوفر للقيادة الروحية، ولم يكن كاسترو يمنع يهود كوبا من الاتصال بيهود العالم أو الحفاظ على تقاليدهم.

وكلما تطورت العلاقات العربية الكوبية إيجابيا صاعدة كانت العلاقات الكوبية الإسرائيلية تهبط وتتراجع ،ولعل أول دولة ارتبطت بكوبا في المنطقة هي مصر..التي بدأت بافتتاح مفوضية في كوبا عام١٩٥٨ وصارت المفوضية سفارة بعد عام، وقد أيدت مصر ثورة كاسترو لأن من مبادئ ثورة يوليو تأييد كل ثورات التحرر في العالم.. وإمعانا في التأييد اشترت السكر من كوبا لمواجهة المقاطعة الاقتصادية الأمريكية لها.، ودانت مصر غزو خليج الخنازير وأيدت انضمام كوبا إلى مجموعة عدم الانحياز.

وغضب كاسترو من النتيجة التي انتهت لها حرب ٦٧ وكان يتمنى أن تهزم إسرائيل التي هي رأس جسر استعماري في المنطقة ، وعرض كاسترو على عبد الناصر إرسال قوات كوبية لحماية الجبهة الداخلية، وشكره ناصر مؤكدا أن الشعب قادر على إزالة آثار العدوان وأن مصر بدأت رحلة إعادة بناء القوات المسلحة على أسس عصرية ،وهناك تحالف شعبي واسع مصمم على إزالة آثار العدوان.وعندما رحل ناصر أعلنت هافانا الحداد لمدة ثلاثة أيام، وحزن كاسترو كثيرا على زعيم صادق من اعز الرجال.

علاقة متوترة مع السادات

برحيل عبد الناصر دخلت العلاقات منعطفا خطيرا، ووقعت مشكلات عديدة بسبب تباين الرأي بين كاسترو المناضل اليساري المخضرم وبين السادات الذي رأي ضرورة تغيير المنهج الناصري حتى يسترد الأرض المحتلة وبناء دولة عصرية، وليس هنا مقام أو مجال تقييم المواقف،فقد حدث خلاف بين الرجلين بعد شهور قليلة من تولي السادات الحكم على خلفية قيام السادات في مايو ١٩٧١ بما اسماه"تصفية مراكز القوى" وهم مجموعة الناصريين كانوا معه في الحكم بقيادة علي صبري والفريق محمد فوزي وشعراوي جمعة، وشعر بعضهم ممن له علاقة صداقة مع الزعيم الكوبي كاسترو أن تغييرا جذريا في السياسة المصرية يحدث وهو تغيير عكس الاتجاه الذي اعتاده في زمن عبد الناصر ، واتسعت رقعة الخلافات بالتالي بين كاسترو والسادات وقد غضبت كوبا أيضاً من مصر لأنها ساعدت حكومة السودان في القضاء على الانقلاب الشيوعي بقيادة هاشم العطا الذي كاد ينتزع السلطة من الرئيس جعفر نميري!

وتوترت العلاقات أيضا بعد قرار السادات ترحيل أو طرد الخبراء الروس من مصر استعدادا للحرب ورأى كاسترو أن السادات ينحرف بمصر في اتجاه اليمين الأميركي ،غير أن العلاقات سرعان ما تحسنت نسبيا عندما نشبت حرب أكتوبر عام١٩٧٣ وقد أرسلت كوبا إلى سوريا ٧٠٠جندي كوبي كرمز تضامن ومشاركة، وإن لم يشتركوا في القتال فعلاً لكن كان هناك شعور كوبي بالفخر لانتصار القوات العربية في الحرب وأبرز التليفزيون الكوبي

مـشـاهد وفـقـرات مطولـة للانتـصـار في إطار الحـرب الأمميـة لهـزيمة الرأسمالية وعملائها .غير أن هذا التحسن سرعان ماتبخر،فقد غضب كاسترو من بدء مصر اتصالات خاصة مع الولايات المتحدة، وحذر في خطاب عام من الاتصال بوزير الخارجية الأميركي الداهية هنري كيسنجر- على وجه الخصوص- لأنه على حد قول كاسترو احد ابرز الوجوه المعادية للاشتراكية والاشتراكيين.،وتبادلت الصحف المصرية والكوبية الحملات الانتقادية، وبدا أن هناك فجوة بين براجماتية السادات ومبادئية كاسترو.

وبدأ السادات يجاهر برأيه المعارض للنشاط الكوبي في أفريقيا، وأدانت مصر مساندة كوبا لأثيوبيا ضد الصومال في حرب الأوجادين، وأحداث شابا بزائير.. وردت كوبا على هذا بإدانة كامب دافيد ومعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

وعندما انعقد مؤتمر عدم الانحياز في هافانا- قمةعام١٩٧٩- كانت هناك خطة من بعض الدول المعارضة لمنهج السادات لتعليق عضوية مصر في مجموعة عدم الانحياز، وفي البداية بدا أن كوبا تؤيد هذا الاتجاه، ولكن كاسترو أحس بمسئولية تاريخية جسيمة إن وافق على أن يحدث في هافانا مثل هذا الإجراء،وانحاز الزعيم الكوبي لمصر رافضا أي محاولة لعزلها حتى وإن ظلت هناك خلافات في المواقف والاتجاهات. وقد أحسن السادات استقبال هذا الموقف وأمر بوقف الحملات الدعائية ضد كوبا.

وحدثت في العلاقات المصرية الكوبية انفراجة بعد هذا المؤتمر، بدليل أن كوبا أيدت ترشيح مندوب مصر لمنصب المفوض العام لشؤون اللاجئين في

الأمم المتحدة، وبدليل أن مصر زادت ماتشتريه من السكر الكوبي من١٢٥ ألف طن إلى ١٩٠ ألف طن- وهذه الكمية ثمنها ٥١ مليون دولار(بأسعار ١٩٧٩) وهذا يعطي صورة لحجم العلاقة التجارية بين البلدين خاصة أن السكر ليس السلعة الوحيدة التي تشتريها مصر بينما تدنت العلاقة التجارية بين إسرائيل وكوبا إلى مليوني دولار.. ثم تلاشت العلاقة أو ماتت نهائيا .وفي المقابل شهدت العلاقات مع دول عربية أخرى انفراجة واسعة خاصة الجزائر التي حصلت على تأييد كوبي غير مسبوق، وليبيا واليمن الديمقراطي قبل أن يتوحد في العام ١٩٩٠.

وزادت رقعة التمثيل الدبلوماسي لكوبا مع العرب، فأقامت علاقات مع الكويت والأردن والعراق.، وفي يونيه عام١٩٧٧ أيدت جبهة البوليساريو في صراعها ضد المغرب، وأرسلت لها أطباء وكان رد فعل المغرب هو قطع علاقاتها مع كوبا في عام١٩٨٠.

ووقفت كوبا موقفاً محايداً من الانشقاقات في منظمة التحرير، وهى بهذا المسلك أبقت لنفسها دور الوسيط الذي يمكن أن يوفق بين الأطراف، وقد نجحت في هذه المهمة خاصة خلافات حركتي " فتح" و"الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين" بزعامة جورج حبش الذي ارتبط بصداقة عميقة مع كاسترو، كما حاولت الوساطة في الحرب بين العراق وإيران، وأرسل كاسترو العديد من الوفود لراب الصدع وقد أكد رفضه للحرب بين الجارين المسلمين مشيرا أن المستفيد منها هو أميركا وإسرائيل ،ومما يذكر أن لمنظمة التحرير الفلسطينية بعثة وسفيراً مقيماً في هافانا منذ السبعينيات .

وزار كاسترو في جولاته العربيةسورياولبنان وليبيا والجزائر والصومال واليمن، واحتفظ بعلاقات طيبة مع زعماء عرب بارزين من بينهم الرئيس الجزائري هواري بومدين والسوري حافظ الأسد والليبي معمر القذافي .

فلسطين عربية

يعتبر كاسترو من الزعماء القلائل الذين اهتموا، بالقضية الفلسطينية وقد تعرف عليها في وقت مبكر حينما كان يتابع الحركات التحررية في مصر والجزائر وهو مازال منفيا في المكسيك،فقد قرأ عنها ،والتقى بزعمائها وتعاطف مع الشعب الفلسطيني وقدم دعما سياسيا وعسكريا بعد الثورة وفق ماوفرته الإمكانات والظروف ، ودافع عن القرارين الدوليين ١٨١و٢٤٢ بعد أن أدان العدوان الصهيوني على العرب في ١٩٦٧، ويمكن أن نلمس ذلك في الخطاب الذي ألقاه وزير خارجية كوبا في اجتماع لجنة فلسطين في قمة دول حركة عدم الانحياز الرابع عشرفي ١٣ ديسمبر٢٠٠٦، وذكر فيه " بعد زمن قصير تكون ٥٩ سنة قد مرت على اعتماد الجمعية العامة للأمم المتحدة للقرار ١٨١ الذي يعترف بمشاركة فلسطين واقترح إقامة دولتين مستقلتين يمكنهما التعايش في أمن وانسجام .وبالرغم من الزمن الطويل والجهود المبذولة فإن إقامة دولة فلسطينية ذات سيادة يظل هدفا غير محقق .

واليوم بدل أن توضع حيز التنفيذ القرارات المتعددة للجمعية العامة، ومجلس الأمن التي تنص على انسحاب إسرائيل من الأراضي الفلسطينية

،ومختلف المناطق العربية المحتلة فإن القوة المحتلة تفرض سياسات جديدة بعيدة عن المساهمة في تشجيع أمن دائم وسلام عادل ودائم في المنطقة، وتكرس الوضع الراهن وتثبط الجهود التي يبذلها الشعب الفلسطيني من أجل حقه في تقرير مصيره.

نقد كوبي للفيتو الأميركي

ويواصل وزير الخارجية الكوبي شرح موقف بلاده الرافض للحلف الأميركي الإسرائيلي إن الممارسات الإسرائيلية التي لا رادع لها هي نتيجة الحماية التي تمنحها إياها الإدارة الأمريكية . وهي كذلك نتيجة ٣٠ فيتو بالإضافة إلى التهديدات التي لا تحصى من طرف القوة العظمى في مجلس الأمن والتي تلجأ إلى مثل هذا الإجراء اللاديمقراطي، والامتياز المطلق لكي يحول دون معاقبة جرائم الإدارة الإسرائيلية في الأراضي المحتلة أو تؤخذ بعين الاعتبار في مثل تلك المنظمات . إنه نتيجة الدعم المادي والمالي التي تقدمه واشنطن إلى قوة الاحتلال والذي يتضمن التزويد بالسلاح ويساهم في توسيع الترسانة النووية لهذه الأخيرة .

إن الاعتداء المستمر، واحتلال الأراضي ، والإعدامات غير القانونية ، والاختناق الاقتصادي ، وبناء مستوطنات غير شرعية في الأراضي الفلسطينية والخروقات الفادحة والمتتالية للحقوق الإنسانية للشعب الفلسطيني من قبل قوة الاحتلال الإسرائيلية يمثل أعمال إرهاب دولة حقيقي ، والذي ازداد تفاقما في الأشهر الأخيرة .

إن الوضع الحالي في الأراضي المحتلة يتميز بالهدر الخطير للحق الدولي وبخاصة للحق الدولي الإنساني . فالعقوبات الجماعية ، وبناء الجدار الفاصل غير الشرعي ، وغلق الحدود ، والحدّ الخطير من تنقل الأشخاص والبضائع ، وتدمير المساكن ،وأماكن العبادة والتعليم والثقافة والمعالم التاريخية ،تشكل ممارسة يومية من قبل الاحتلال الإسرائيلي . وقد ترتب على هذه الممارسات تدهور حادّ في ظروف معيشة الشعب الفلسطيني أفرزت وضعا إنسانيا متأزما في كل الأراضي الفلسطينية المحتلة بما فيها القدس الشرقية .

ويعود وزير الخارجية ينتقد الموقف الغربي من حركة حماس التي أفرزتها انتخابات ديمقراطية تنكرت لها الدوائر الغربية والصهيونية، لقد انتخب الشعب الفلسطيني في ٢٥ يناير ٢٠٠٦ حكومته الحالية ، في انتخابات حرّة وشفافة وديمقراطية ، مستعملا حقه المشروع في اختيار ممثليه، لكن عقب ذلك مباشرة نجد إسرائيل ، والولايات المتحدة، وأوروبا بمعاييرها المزدوجة التي تميزها تتنكر لشرعية تلك الإجراءات الديمقراطية، وتتفق على أن تضع حيّز التنفيذ ابتزازا ماليا حاقدا ضد الشعب الفلسطيني.

لقد استعملوا وقف المساعدة المالية كعنصر ضغط سياسي وسط الأزمات والصعوبات الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية المتدهورة التي يواجهها الشعب الفلسطيني.

ومنذ أمد قريب حين كان الضغط الدولي يتمركز حول الاعتداء الهمجي الإسرائيلي على لبنان في يوليو ٢٠٠٧ واصلت الآلة الإسرائيلية أيضا تدمير

الشعب الفلسطيني مفككة لحكومته وبرلمانه ومعتقلة على نطاق واسع لوجوه من حكومته وأعضاء من المجلس التشريعي الفلسطيني ، وهو عمل ينافي تماما الجهود المبذولة من أجل السلم والاستقرار في المنطقة .

ومضى وزير الخارجية الكوبي يحث الدول النامية على اتخاذ موقف ضد العدوان الإسرائيلي قائلا: " أمام هذه الوضعية المتجهمة ، يجب على حركة بلدان عدم الانحياز أن تتخذ إجراءات لكي يكون دعمها للإخوة الفلسطينيين ثابتا وحازما. إن الخرق الفادح والجماعي المتوالي لحقوق الشعب الفلسطيني ، بما فيه حقه في الحياة ، وحقه في حرية تقرير المصير يجب أن يوضع له حدّ .

وعلى الحركة أن لا تتوقف عن التنديد بالجرائم التي ترتكب ضد الشعوب العربية ، وبالخصوص ضد الشعب الفلسطيني ويجب أن تلح في المطالبة بحل النزاع في الشرق الأوسط بطريقة عادلة ودائمة ".

إنه لا يمكن تحقيق سلم عادل ودائم في الشرق الأوسط ما لم ينته الاحتلال الإسرائيلي غير الشرعي ، وما دام الشعب الفلسطيني لا يستطيع ممارسة حقوقه المشروعة .

كما لا يمكن للسلم أن يتحقق ما دامت لم تسترجع كل الأراضي العربية المحتلة في يونيو/حزيران ١٩٦٧، وما دامت لم تتوقف الاعتداءات الإسرائيلية ضد الشعب اللبناني ، وتضمن حقوق عودة اللاجئين الفلسطينيين، وإزالة المستوطنات الإسرائيلية.

وعاد الوزير الكوبي يؤكد على موقف الحكومة والشعب الكوبي الذي لا

يتغير إزاء النضال من أجل الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني، وكل الشعوب العربية ونؤكد مجددا على قناعتنا بأنه طال الزمان أم قصر لا بد من إقامة الدولة الفلسطينية السيّدة والمستقلة وعاصمتها القدس الشرقية.

إن شعبنا الذي فرض عليه الحصار المفضي إلى الإبادة منذ ٥٤ سنة من طرف حكومة الولايات المتحدة ، مقتنع بأنه لا يمكن لأيّ جدار ، أو حصار ، أو قمع مهما كانت درجته ولا إنسانيته أن يكسر أشواق التحرر إلى العدالة لدى الشعب الفلسطيني.. نجتمع بعد العدوان الغاشم الذي تعرض له شعب لبنان الشقيق، وقد شاهدنا المجازر اليومية التي يتعرض لها الشعب الفلسطيني. يتزامن أيضا انعقاد مؤتمرنا هذا مع تصاعد في أعمال الضغط على إيران لممارستها حقها في السيادة بتطوير برنامج للاستعمال السّلمي للطاقة النووية، و مع تهديد دول غير منحازة أخرى بـ "حروب وقائية" واعتداءات.

لهذا السبب ، يبدو لنا ضروريا الدفاع عن حقوقنا. التهديدات والمخاطر والصعوبات التي نواجهها هي متشابهة لها أصول مشتركة. يجب أن نظهر للعالم قدرتنا على مواجهة التحديات الكبيرة التي يفرضها علينا عالم يحكمه الأقوى. إن التنوع الذي يميز حركتنا ، بعيد عن أن يحولها إلى عقبة تفرضها علينا الاهتمامات، يجب أن تحفزنا على العمل موحدين على ضوء المبادئ والقرارات التي حددناها معاً.

دولة فلسطينية عاصمتها القدس

والمتابع السياسي لمواقف الرئيس كاسترو وحكومته من الصراع العربي الصهيوني سوف يكتشف بسهولة أن هذه المواقف تتطابق مع سقف المواقف الرسمية العربية وتتجاوزها في بعض الأحيان وباستثناء الدولة الفلسطينية على كامل التراب بما في ذلك حيفا ويافا وعكا وكل الأراضي التي احتلت عام ٤٨ ، وهو موقف القوميين العرب فان كاسترو شدد على حق اللاجئين الفلسطينيين في العودة ودعا إلى احترام القرارين الدوليين ٢٤٢ و٣٣٨ وضرورة الانسحاب الإسرائيلي الشامل من كل الأراضي التي احتلت في عدوان ٦٧ وهو موقف بكل صراحة أفضل وأقوى من مواقف بعض الدول العربية والإسلامية بكثير، وهذا ما نلمسه في البيان الصادر عن وزارة الخارجية بجمهورية كوبا في أعقاب العدوان الإسرائيلي على غزة حيث أعربت بكثير من القلق عن العملية العسكرية الجديدة ، واسعة النطاق التي بدأتها إسرائيل في الثامن والعشرين من يونيو ٢٠٠٦بقطاع غزه، بتعبئة ما يقرب من خمسة آلاف جندي، مئات الدبابات، وأدوات عسكرية أخرى، و في غضون ذلك،ضربت محطة كهرباء رئيسية بالمنطقة، تاركة نصف تلك الأراضي بدون كهرباء، و ضربت بالقنابل و بشكل عشوائي ، العديد من الكباري التي تربط بين الأماكن المختلفة بالقطاع، و أعادت احتلال أماكن هامة بجنوب الأراضي الفلسطينية، كما أجرت اعتقالات لشخصيات بارزة وعديدة بحكومة السلطة وأعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني.

لقد استخدمت إسرائيل حجة آسر جندي إسرائيلي من جانب المقاومة

الفلسطينية للاحتلال لشن هذا العدوان البربري ، غافلة بذلك أن الجيش الإسرائيلي قد قتل ، فقط في خلال شهر يونيو الجارى، ٥٢ فلسطينيا بما في ذلك ٩ أطفال، وفقا لما ذكرته المنظمات الدولية.

إن هذا العدوان اللاإنساني والإجرامي يأتي في لحظات توصلت فيها القوات السياسية الفلسطينية إلى اتفاق، وهو ماكان سيساهم في استئناف مفاوضات السلام بين الفلسطينيين والإسرائيليين، وفقا لقرارات الجمعية العامة ومجلس الأمن بالأمم المتحدة ذات الصلة.

وفي الوقت نفسه ، فإن وزارة الخارجية بجمهورية كوبا ترفض الاعتداء على المجال الجوى للجمهورية العربية السورية من جانب الطائرات العسكرية الإسرائيلية، فهو إلى جانب الفعل البربري ضد قطاع غزة، فإنه يعرض منطقة الشرق الأوسط مرة أخرى إلى عنف خطير واسع النطاق والسلام و الأمان الدوليين للخطر.

وتتصرف إسرائيل، كما في الماضي، بجبروت وحصانة من العقاب، يساندها الدعم الاقتصادي والعسكري ، وكذلك استخدام الولايات المتحدة للفيتو بمجلس الأمن وبالأمم المتحدة.

وتود وزارة الخارجية بجمهورية كوبا أن تعبر عن إداناتها الشديدة للعدوان العسكري الوحشي الإسرائيلي ضد قطاع غزة، و تنادى المجتمع الدولي والقوى المحبة للسلام للتحرك للمطالبة بالانسحاب الفوري وغير المشروط للقوات الإسرائيلية من قطاع غزه، وإيقاف إرهاب الدولة الإسرائيلي، والاحترام الذي لا يمكن الحيد عنه لحقوق الشعب الفلسطيني ، بما في

ذلك إقامة دولة مستقلة وذات سيادة، عاصمتها القدس الشرقية، وعودة اللاجئين والعودة غير المشروطة لكافة الأراضي العربية المحتلة في يونيو ١٩٦٧، كسبيل وحيد لتحقيق السلام العادل والشامل لكافة الشعوب هذه المنطقة المضطربة.(هافانا ٢٦يونيو٢٠٠٦).

الأسد: الأب والابن

العلاقات السورية من أقدم وأرقى العلاقات سواء على الصعيد الإنساني أو الصعيد السياسي، فالسوريون الذين فروا من الاضطهاد التركي ذهب بعضهم بحثا عن الأمن والرزق إلى جزيرة كوبا كما أسلفنا في سطور سابقة، واستطاعوا أن يندمجوا في المجتمع الكوبي وأن يشاركوا في انتفاضاته المتكررة، وهناك إشارات إلى أن والدة كاسترو من جذور لبنانية، غير أن أهم عنصر في العلاقة الوثيقة بينهما اليوم يقوم على أسس وضعها الرئيس السوري الراحل حافظ الأسد الذي ربطته صداقة الموقف مع كاسترو ، ولم يدخر القائد الكوبي فرصة إلا واستغلها للإشادة بالرئيس الأسد الأب ثم الابن لأنهما صمدا إزاء الاستنفار الأميركي ضد سوريا ولم يفرطا في حق بلادهما ووطنهما الكبير رغم الإغراءات الأميركيّة ولاتزال سوريا هي بلد الصمود وراعية المقاومة، لذلك نجد أن هذه العلاقة تجاوزت المنظور السياسي إلى آفاق ثقافية وحضارية مثل تلك العلاقة التي كانت حاضرة بين القاهرة وهافانا في الستينيات وقبل أن تحدث متغيرات عديدة في رؤية مصر للصراع مع إسرائيل، فقد عارض كاسترو اتفاقية كامب ديفيد

والعلاقة الخاصة بين القاهرة وواشنطن في عهد السادات الأمر الذي أدى إلى إفساد العلاقة بينهما، بينما ظلت علاقة كاسترو قوية مع سوريا الأمر الذي وصل إليحد أن أرسلت كوبا وحدة عسكرية قوامها ٧٠٠جنديا لكي تحارب مع القوات السورية في ١٩٧٣ كما سبق وذكرنا.

لبنان وحزب الله

وفي الشأن اللبناني نشير إلى إدانة كوبا للعدوان الإسرائيلي على لبنان، كوبا كانت – كالعادة – واضحة في إدانة العدوان وجاء في بيان وزارة الخارجية، علمت وزارة الخارجية بجمهورية كوبا بكثير من القلق عن العملية العسكرية الجديدة ، واسعة النطاق التي بدأتها إسرائيل في الثاني عشر من يوليو٢٠٠٦، ولكن هذه المرة ضد الجمهورية اللبنانية ، حاصدة أرواح عشرات المدنيين، ومدمرة للبنية التحتية للبلاد بما في ذلك ممر مهبط الطائرات بمطار بيروت الدولي ، متسببة في أضرارا شديدة بموارد مياه و كهرباء الشعب اللبناني.

كما فرضت حكومة إسرائيل حصارا بحريا و جويا على كافة أنحاء البلاد وهددت تهديا مباشرا وصريحا باستمرار هذا العدوان ، ودمرت الضواحي الجنوبية للعاصمة اللبنانية، في إشارة جديدة لسياستها الإبادية المعروفة ضد الشعوب العربية.

وكما تدين كوبا في العديد من المناسبات، فإن إسرائيل تتعدى مجددا ، على كافة مبادئ القانون الدولي، و هي بذلك تعتدى عسكريا على دولة ذات سيادة بحجة مختلقة و هي " حماية أمنها" و بدعم اقتصادي وعسكري واشتراك صارخ

و غادر من جانب حكومة الولايات المتحدة الأمريكية باستخدامها لحق الفيتو أمام إدانة مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة لهذا العدوان.

و تعبر وزارة الخارجية بجمهورية كوبا عن إدانتها الشديدة لهذا العدوان الإسرائيلي الوحشي ضد جمهورية لبنان وتحث المجتمع الدولي والقوى المحبة للسلام للتحرك من أجل مطالبة إسرائيل بوضع نهاية فورية لتلك الأفعال البربرية وإعادة الأراضي التي احتلتها في لبنان وأن تحترم المبادئ الأساسية للقانون الدولي.

تؤكد كوبا مجددا في هذه اللحظة الهامة، على تضامنها التام مع الشعب اللبناني ، الذي يعانى اليوم مرة أخرى إلى جانب الشعب الفلسطيني البطل من العدوان الغاشم والبذيء لنظام تل أبيب.

مع صدام حسين

احتفظ كاسترو بعلاقات طيبة مع العراق، رغم تحفظاته على مسلسل أخطاء الرئيس صدام حسين وبخاصة غزو الكويت والذي أدانته كوبا، وحاول الزعيم الكوبي إقناع القيادة العراقية بالانسحاب من الكويت قبل أن تبدأ حرب شرسة ضد بلاده لكن صدام لم يستجب،وهناك رسائل مهمة جرت بين الرئيسين عكست اقتناع كاسترو بأن الحرب على العراق قادمة لامحالة وأن اميركا تحينت الفرصة لاصطياد العراق ، ونقتبس هنا بعض ما ورد في الفصل الخامس والعشرين من كتاب "مائة ساعة مع فيدل".

• حرب العراق، هل رأيتم في أنها حتمية؟

-في فبراير عام ٢٠٠٣، أي قبل أسابيع قليلة من الحرب، كنت في ماليزيا للمشاركة في قمة حركة بلدان عدم الانحياز، وهناك، في كوالالمبور، تحدثت مطولاً مع أعضاء الوفد العراقي، ومع نائب الرئيس آنذاك طه ياسين رمضان. وقلت له: "إذا كان لديكم أسلحة كيماوية بالفعل، عليكم بتدميرها من أجل تسهيل عمل مفتشي الأمم المتحدة". كان هذا الأمر بالنسبة لهم الفرصة الوحيدة لتفادي الهجوم، وأعتقد أنهم فعلوا ذلك، هذا في حال أنهم امتلكوها يوماً كنت متيقنا أن أمر الهجوم كان محسوماً، ولو أن تلك الأسلحة لم تكن بحوزتهم.

• ما هو رأيكم بصدّام حسين؟

-في عام ١٩٩١، بعد غزو الكويت، انغلق على نفسه وبدا انه وصل إلى أزمة حقيقية، لقد صوّتنا نحن في منظمة الأمم المتحدة لصالح القرار الذي يدين ذلك الغزو،وبعثتُ لهُ برسالتين مع مبعوثين خاصّين، أنصحه فيهما بالتفاوض والانسحاب من الكويت قبل فوات الأوان.

في الرسالة الأولى، المؤرخة في الثاني من أغسطس ١٩٩٠، كتبت له:

"أتوجه إليكم بألم كبير نتيجة الأخبار التي وصلتنا اليوم عن دخول قوات من بلدكم إلى دولة الكويت.

بغض النظر عن الدوافع التي أدت إلى اتخاذ هذا القرار بالغ المأساوية، ليس بوسعي إلا أن أعبّر لكم عن قلقنا من العواقب الوخيمة التي يترتب عليها ذلك بالنسبة للعراق والكويت أولاً، ومن ثم بالنسبة لكل البلدان، إن

كوبا، وبالرغم من العلاقات الودّية التي تربطها بالعراق، لا يمكنها إلا أن تعترض على حل عسكري للنزاع الناشئ بين العراق والكويت.

إن رد الفعل المباشر المتولّد عند الرأي العام العالمي، الذي يستقي الأنباء من وكالات الأنباء متعددة الجنسيات، يخلق وضعاً بالغ الصعوبة والحساسية بالنسبة للعراق.

أظن أنه من المحتمل جداً أن تغتنم الولايات المتحدة وغيرها من الحلفاء الفرصة من أجل التدخل عسكرياً في النزاع وتوجّه ضربة صاعقة للعراق.بالإضافة لذلك، ستسعى واشنطن لتعزيز الدور الذي أسندته لنفسها كشرطي دوليّ وفي الخليج.

إن عامل الوقت في مثل هذا الوضع هو عامل حاسم، وعليه فإنني أتمنى عليكم، وعبر استخدام المساعي الحميدة التي تبذلها جامعة الدول العربية أو حركة بلدان عدم الانحياز، التي توجهنا إليها لهذه الغاية، أن تعبّروا عن استعدادكم لسحب القوات العراقية من الكويت والبحث عن حل سياسي وسلمي فوري للنزاع. من شأن خطوات كهذه أن تساهم في تعزيز الموقف الدولي لبلدان العالم الثالث في وجه الولايات المتحدة كشرطي وأن تعزز في ذات الوقت موقف العراق أمام الرأي العام العالمي.

الأمر الجوهري في هذه اللحظة هو تفادي التدخل الإمبريالي بحجة الدفاع عن السلام وعن سيادة بلد صغير من المنطقة، ويمكن لهذه السابقة أن تشكل نذير شؤم بالنسبة للعراق كما بالنسبة لكل العالم الثالث.

إن اتخاذ العراق لموقف واضح وإقدامه على خطوات حاسمة وفورية

لصالح الحل السياسي سيساعدنا على منع وإفشال المخططات العدوانية التي تضمرها الولايات المتحدة.

إن كوبا مستعدة للتعاون في أي مسعى يمكنه أن يساعد على الوصول إلى مثل هذا الحل.

إنني على ثقة بأن هذه الآراء التي أنقلها إليكم تعبّر عن الشعور الذي يكتنف في هذه اللحظات عشرات البلدان في العالم التي طالما نظرت إلى بلدكم باحترام وتقدير".

هكذا كانت خاتمة دعوتنا تلك إلى التوصل إلى حل عادل وعقلاني.

بعد وقت قصير من ذلك، في الرابع من سبتمبر من ذات السنة ١٩٩٠، ورداً على رسالة واردة من العراق، جددت التأكيد على الموقف المبدئي الذي تم التعبير عنه سابقاً، ودعوت إلى التوصل إلى حل سياسي لذلك الوضع العسير الذي كان مرشحاً للازدياد تعقيداً وسوداوية وأن يعود بعواقب وخيمة على العالم.

عدنا إلى إصرارنا. إحدى فقرات الرسالة الثانية تقول:

"قررت أن أكتب لكم هذه الرسالة التي آمل أن تقرأوها وتُمعنوا في مضمونها، مع أنني أجد نفسي مضطراً، بالنظر إلى هذا المضمون، لإطلاعكم على وجهات نظري حول الوقائع المريرة بالتأكيد، ولكنني أفعل ذلك على أمل أن تكون وجهات النظر هذه مفيدة في هذه اللحظة التي من واجبكم أن تتخذوا فيها قرارات دراماتيكية".

ثم أشرت في موضع لاحق:

"برأيي أن الحرب ستقوم بلا مفر إذا لم يكن العراق مستعداً للتوصل إلى حل سلمي عبر التفاوض على أساس الانسحاب من الكويت. يمكن لهذه الحرب أن تكون حرباً مدمرة بالنسبة للمنطقة، وبشكل خاص بالنسبة للعراق، بغض النظر عن الشجاعة التي يكون الشعب العراقي مستعداً للكفاح بها.

لقد تمكنت الولايات المتحدة من تشكيل ائتلاف عسكري؛وهو ائتلاف يشمل قوى عربية ومسلمة بالإضافة لحلف الناتو، وقد بلورَت على الصعيد السياسي صورة بالغة السلبية عن العراق أمام الرأي العام العالمي نتيجة وقوع الأحداث المذكورة، والتي بعث كل واحد منها رد فعل عميق وشعوراً بالعداء في الأمم المتحدة وفي جزء كبير من العالم. أي أنها قد توفرت الشروط المثلى التي تحتاجها مخططات الهيمنة والعدوان الأمريكية. بالمقابل، لا يستطيع العراق خوض صراع في خضم ظروف عسكرية وسياسية أسوأ من هذه. ومن شأن الحرب في هذه الحالة أن تقسم العرب على أنفسهم لسنوات طويلة؛ وستحافظ الولايات المتحدة والغرب على تواجد عسكري لا نهاية له في المنطقة، لتكون العواقب وخيمة ليس فقط بالنسبة للأمة العربية، وإنما بالنسبة للعالم الثالث أجمع.

إن العراق يعرض نفسه لحرب غير متكافئة، وذلك من دون مبرر سياسي متين ومن دون دعم الرأي العام العالمي، باستثناء التعاطف الذي تم إبداؤه طبعاً في كثير من البلدان العربية".

بهذا يمكن إيجاز رؤيتنا للقضية، ولم نتوقف عن حث صدام على تغيير موقفه:

"لا يمكن السماح بتدمير كل ما بناه الشعب العراقي على مدار سنوات

كثيرة، وكذلك إمكانياته المستقبلية الهائلة، على يد الأسلحة الإمبريالية المتطورة. لو وُجدت أسباب مبرَّرة ولا تُدحض لذلك، لكنت أنا آخر من يطلب منكم تفادي هذه التضحية.

إن تلبية مطلب الأغلبية الساحقة من البلدان الأعضاء في الأمم المتحدة التي تدعو للانسحاب من الكويت لا يمكن اعتباره أبداً بمثابة عار على العراق إن واجبكم أن تتخذوا فيها قرارات دراماتيكية".

بغض النظر عن الأسباب التاريخية التي يرى العراق بأنها تحضره فيما يتعلق بالكويت، الواقع هو أن الأسرة الدولية تعترض بالإجماع تقريباً على الخطوة المتّخذة، وإلى هذا التوافق الدولي تستند الإمبريالية لتحقيق هدفها المتمثل بتدمير العراق والاستيلاء على موارد الطاقة في كل المنطقة.

ولكن أي من هذه الجهود لم يثمر.

● **هل تعرفتم إلى صدّام حسين شخصيّ؟**

-نعم، في سبتمبر من عام ١٩٧٣ كنت في العاصمة الجزائرية للمشاركة في قمة لحركة بلدان عدم الانحياز، وكنت متوجهاً بعدها إلى هانوي تلبية لدعوة من الحكومة الفيتنامية، لم تكن فيتنام محررة بالكامل بعد وذهب إلى العراق جاء صدّام لاستقبالي في مطار بغداد، في تلك الحقبة كان هو نائباً للرئيس، لم يكن رئيساً للعراق بعد، كان قائداً لحزب البعث بدا لي رجلاً مستقيماً، كان ودوداً، وتجوّلنا في المدينة، رائعة الجمال، وذات الشوارع الواسعة، والجسور القائمة على نهري دجلة والفرات لم أقض في بغداد إلا يوماً واحداً، وكنت هناك عندما بلغني نبأ الانقلاب العسكري في تشيلي على الليندي...

● من وجهة النظر العسكرية، ما هو حكمكم على النظام الدفاعي الذي استخدمته القوات العراقية في تلك الحرب؟

-لقد تابعنا باهتمام كبير تلك الحرب التي بدأت في شهر مارس٢٠٠٣ لماذا لم يقاوم العراق؟ إنه لُغز. لماذا لم يفجّر الجسور لكي يؤخّر تقدم القوات الأمريكية؟ لماذا لم يقوموا بتفجير مخازن الذخيرة والمطارات قبل أن تسقط بيد الغزاة؟ كل هذه الأسئلة هي لغز كبير، مما لا شك فيه بأن هناك قادة خانوا صدّام نفسه.

● جميع البلدان أغلقت سفاراتها في العراق عشية الحرب إلا أنتم.. إلى متى بقيتم في بغداد؟

-سفارتنا هي آخر سفارة بقيت في بغداد. حسناً، إلى جانب سفارة الفاتيكان. فحتى الروس غادروا، لم يكن إلا بعد دخول القوات الأمريكية إلى العاصمة العراقية أن أوعزنا بمغادرة بغداد. لم يكن بوسعنا أن نطلب من الأشخاص الخمسة الذين كانوا في سفارتنا أن يدافعوا عن المقرات في وجه جيشين. وقد حصل دبلوماسيونا على تصريحات وتمكنوا من مغادرة العراق بدون أي مشكلة، وقد تم تسليم الوثائق لهم من قبل منظمة دولية، وليس من قبل الأمريكيين.

● كيف ترون حضرتكم تطور الأوضاع في العراق؟

-برأيي أن المقاومة الشعبية ستزداد تصعيداً ما لم يتوقف احتلال العراق، سيتحول ذلك إلى جحيم، وسيظل كذلك، ولهذا فإن الهدف الأول يجب أن يكون نقل السيطرة الفعلية إلى الأمم المتحدة فوراً والشروع بعملية استعادة لسيادة العراق وإقامة حكومة شرعية، تأتي ثمرة قرار الشعب العراقي. ولكن يجب أن يكون قراراً حقيقياً، شرعياً، وليس ثمرة انتخابات تجري في ظل

احتلال عسكري نيوكولونيالي. ويجب كذلك الكف فوراً عن التقاسم الفاضح لثروات العراق.

وقد جرت مياه كثيرة في النهر قبل ان تندد كوبا بإعدام الرئيس العراقي السابق صدام حسين ،ووصفته بأنه اغتيال ارتكبه الاحتلال وحماقة سياسية ،وطالبت بإنهاء احتلال العراق.

وقالت وزارة الخارجية الكوبية في بيان: إن إعدام صدام "حماقة سياسية وعمل غير قانوني في بلد زجّ به إلى صراع داخلي تعرض فيه ملايين المواطنين للنفي أو فقد أرواحهم".

ووصفت الوزارة عملية الإعدام بأنها "اغتيال ارتكبته القوة المحتلة" في إشارة إلى الاحتلال الأمريكي والموالين له.

وحول إعدام صدام فجر أول أيام عيد الأضحى المبارك ،قال البيان: إن "العالم ذُهل أن يحدث إعدام صدام في يوم إسلامي مقدس يُظهر فيه المسلمون الرحمة".

وطالب البيان بإنهاء الاحتلال الأمريكي لبلاد الرافدين وسحب قوات الاحتلال ،مشدداً على أنه "حان الوقت أيضًا لأن يتوقف القتل والمعاناة اللذان يتعرض لهما مئات الآلاف من الشبان الأمريكيين" ،في إشارة للخسائر الفادحة التي مُني بها الاحتلال جراء عمليات المقاومة.

الفصل الثاني عشر

أولاد كاسترو

يقودون التغيير الثوري

في القارة اللاتينية

وهل يفيد الندم؟

سؤال قفز إلى ذهن الرئيس الأميركي الأسبق نيكسون وهو يستقبل كميات من الطماطم والبيض الفاسد ألقاها عليه متظاهرون غاضبون في عدد من العواصم اللاتينية يصيحون " يسقط اليانكي"بينما سيارة الرئيس الأميركي تهرول في الشوارع بحثا عن مكان آمن بعيدا عن غضب المواطنين.،

الإجابة على السؤال كانت عند كاسترو الذي سأله الصحفيون عن سر هذه التظاهرات الشعبية ومن يمولها ، قال:

-عندما تحترق ذقن جارك..فعليك أن تقص شعر ذقنك فورا.

ومعنى ذلك أن شعوب أميركا اللاتينية تضامنت مع كوبا وكاسترو ضد الهيمنة الأميركية ونجح كاسترو في الوصول إلى الجماهير العريضة حتى وان كانت بعض الحكومات اللاتينية وقعت في غرام واشنطن.

ولايختلف اثنان -حتى أكثر معارضيه تطرفا- أن فيدل كاسترو دخل التاريخ في القارة اللاتينية من باب الفخر والمجد ،وصار أنموذجا يحتذيه شباب القارة ليس السياسيون الراغبون في الوصول إلى السلطة عبر الثورة وإنما أيضا الشباب الجامعي المكافح الذي وجد في سيرة كاسترو وجيفارا وراؤول قدوة حسنة.

وبرغم كل المحاولات الأميركية لإفساد العلاقات بين كاسترو وقادة القارة من خلال إغراء البعض وترهيب البعض الآخر إلا أن العلاقة ظلت في خطها العام متصاعدة وولادة بالمزيد من قيادات الرفض والتحدي للمشروع الأميركي الإمبراطوري في القارة.

وأثبتت التطورات التي شهدتها القارة في العقد الأول من القرن ٢١أن"كاسترو ليس ديناصورا ستالينيا "كما حاولت مجلة النيوزويك الاميركية وصفه، وإنما هو قائد يتطور مع المتغيرات ويراجع مواقف الثورة لكنه لايتراجع عن ما يعتقد انه الحق لمجرد إرضاء الشهوة الأميركية، وهو يسترد ثقته في قناعاته و يستعيد عافيته ومكانته كلما ظهرت تيارات ثورية في دول القارة تسعى إلى الاستقلال والتنمية.فشافيز الزعيم الفنزويلي ذو الشعبية الكبيرة في العالم العربي يمدحه باستمرار ويعتبره الأب الروحي للثورة في أميركا اللاتينية ، أما الزعيم البوليفي الشاب ايفو موراليس صاحب الاحترام الوافي في أوساط السكان الأصليين للقارة فهو لايمل من استشارة كاسترو حتى في أدق الأمور انطلاقا من ثقة متبادلة تكاد لاتتوفر كثيرا في العالم اليوم.

أولاد كاسترو يتكاثرون

أولاد كاسترو في القارة اللاتينية تزايدوا بشكل يدعو إلى التوقف والتأمل هناك نيستور كيرشنر في الأرجنتين واناسيولولا دا سيلفا في البرازيل، وميشيل بشيليه في شيلي ورافاييل كوريا في الإكوادور، وقبلهم جميعا الزعيم النيكارجوي دانيال اورتيجا والزعيم الفنزويلي شافيز، كل هؤلاء يشكلون

فريقا متناغما في إطار الوحدة والتنوع بين دول القارة، وهم يشكلون قطارا يتحرك بقوة في اتجاه وحدة لاتينية ذات طابع اقتصادي وتكنولوجي يحقق المصالح المتبادلة، ويفك أو يكسر حصار يمكن أن تفرضه قوى عظمى.

والمهم هنا هو إدراك الشعوب اللاتينية عدم جدوى السياسات الاقتصادية التي تروج لها واشنطن بشدة خاصة اتفاقيات التجارة الحرة والتي نجح كاسترو في إبراز مساوئها ، الأمر الذي دفع الشعوب إلى تغيير الهيئات الحاكمة في الدول الموالية لواشنطن واستبدالها عبر صندوق الاقتراع بحكومات تتبنى برامج وطنية مستقلة.

ولا ينكر الباحث المحايد أن علاقات كوبا الرسمية مع بعض دول القارة اللاتينية في العقود الخمسة المنصرمة اتسمت بدرجة من فتور ظاهري بسبب موقف الولايات المتحدة المتشدد تجاهها،وتدخل واشنطن لإرهاب أي دولة تقيم علاقات مع كوبا، وحرصاً من معظم دول القارة على عدم إفساد علاقاتها الحيوية بالعملاق الأمريكي، لكن مع ذلك ظل التواصل الكوبي اللاتيني مستمراً بفعل الروابط الجغرافية والتاريخية والثقافية.

وإذا كانت العلاقات الرسمية مرت بمراحل فتور وبمراحل أخرى انتعاش إلا أن الشارع اللاتيني وبدون استثناء ظل يؤيد كاسترو، ولا يخفي إعجابه بالزعيم البطل، ولعبت المنظمات الشبابية والطلابية والعمالية دورا مهما في إبقاء دور كاسترو متوهجا في الأوساط الشعبية ، وشكلت الدبلوماسية الشعبية التي مارستها كوبا على الصعيد الجماهيري أهم آلية للتواصل بين شعوب القارة بصفة عامة ومع كوبا بصفة خاصة.

ففي الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر وزراء خارجية بلدان أميركا اللاتينية،في مطلع الستينيات لحصار كوبا انعقد في هافانا مؤتمر للشباب اللاتيني شارك فيه ٨٠٠شاب يمثلون المنظمات والاتحادات العمالية والنقابية ومناضلون بارزون، من بينهم: رئيس اتحاد عمال أميركا اللاتينية"لومباردو توليدانو" ورئيس جواتيمالا السابق"جاكوبواربينز" ورئيس المركز النقابي الموحد في شيلي "لوتاريوبليست".

واتخذ المؤتمر قرارات بتأييد كوبا ،واستنكر قرار منظمة الدول الأميركية بتجميد عضوية كوبا . والواقع أن كاسترو سعى للوصول إلى الجماهير ليس في بلاده فحسب، وإنما في القارة برمتها ويلاحظ في حقبة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي اهتمام الزعماء الثوريين بإلقاء الخطب الطويلة نسبيا والتي تشرح للمواطنين أبعاد المخططات التي تحيط بالثورة وبرز في هذا المجال عبد الناصر في مصر وكاسترو في كوبا وتيتو في يوغسلافيا.

ولايمكن إغفال البعد الكاريزمي في شخصية كاسترو التي لها وهجها المتميز، تقول مجلة " نيوز ويك"الإميركية" إن صورة مع مؤسس اليسار السياسي في أميركا اللاتينية تساهم إلى حد كبير في إعطاء مصداقية للرئيس لدى أتباعه، فقد قام الرئيس البرازيلي لولا على سبيل المثال بخطوة كبيرة لإنهاء الحصار الأميركي على كوبا عام ٢٠٠٣ عندما زار هافانا والتقى الزعيم كاسترو خلال أول سنة له في الحكم ، وحصلت تلك الزيارة عندما كان الرئيس البرازيلي يواجه انتقادات لاذعة في بلده بأنه ينكث بالتعهدات التي وعد بها في حملاته الانتخابية لتعزيز النمو الاقتصادي ومساعدة فقراء

البلاد، وقد ساهمت زيارته لكوبا في رفع أسهمه في الأوساط الشعبية التي تثق في كاسترو اكثر من أي زعيم آخر".

وثمة من يرى أن هناك متغيرات دولية وأخرى محلية ساهمت في تخفيف الضغوط الأميركية على كوبا، وبالتالي إتاحة مساحة من الحركة أمام كاسترو، وابرز المتغيرات انتهاء الحرب الباردة واختفاء الاتحاد السوفيتي كمصدر للخطر على اميركا، وبالتالي تراجع الخطر الكوبي الذي كانت تتخيله المؤسسات الإستراتيجية الأميركية، في ظل اعتقاد آخر بحدوث تعديلات على الخطاب الثوري الكوبي لجهة تقليص مساحة التحريض مقابل زيادة مساحة عرض النموذج الكوبي المستقل.

الدب الروسي يرقص على الجليد

سوف يمضي وقت حتى تتكشف الحقائق كاملة حول قرارات جورباتشوف الغريبة "البروسترويكا والجلاسونست " وهل صدرت بناء على مصلحة الوطن أم هناك تأثيرات أجنبية وتحديدا من الاستخبارات الأميركية على قيصر الكرملين حينذاك، خاصة وقد جرت محاولات داخل الحزب الشيوعي السوفيتي لإحباط تلك التحولات لكنها باءت بالفشل ، ولاحظ المراقبون أن الإدارة الأميركية دعمت جورباتشوف ويلتسين وبوتين ضد أي محاولة لإعادة حلف وارسو والكتلة الشرقية مرة أخرى ،وعلى أي حال فإن الخريطة العالمية شهدت تغيرات جذرية بانسحاب الدب الروسى إلى الجليد،

وانكفاء واحدة من أكبر قوتين في العالم مادى إلى ترك المسرح السياسي لهيمنة قطب واحد على العالم.

ومع انهيار الاتحاد السوفيتي وتوقف الدعم المخصص لكوبا في الثمانينيات كان للدول اللاتينية دور لا بأس به في حماية الاقتصاد الكوبي من الانهيار التام من خلال المساعدات التي قدمتها تلك الدول للإبقاء على الاقتصاد الكوبي حياً،وفي ضوء التغيرات التي شهدها العالم مؤخراً، خرجت الأصوات اللاتينية لأول مرة في أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات لتنتقد علنا السياسة الأمريكية تجاه كوبا، وتطالب بوقف الحظر الاقتصادي ضدها، وربما ساعد على ذلك مشكلة المديونية الخارجية الضخمة التي تعاني منها غالبية دول القارة، وتولد إحساس عام بالغبن والظلم تجاه تلك الدول من قبل الدول الغنية الدائنة والمؤسسات المالية الدولية، وما هو معروف من نفوذ أمريكي مؤثر على هذين الصعيدين.

ولأن كاسترو نجح في الصمود أمام المحاولات الأميركية الدائمة لعزل بلاده، فإن كوبا حافظت على هالة استقلال يفتقر إليها الكثير من دول أميركا اللاتينية التي جارت موجة العولمة، وقد سار على نهجه العديد من النظم الثورية ربما كان أهمها جبهة الساندينستا في نيكارجوا في التسعينيات، والتي قابلتها واشنطن بحملة عدائية شديدة ودعمت جبهة الكونترا المناوئة لها بالمال والسلاح والدعاية السياسية حتى تمكنت من إسقاط السانينستا في الانتخابات ١٩٩٠، ولن تتمكن الساندينستا من العودة إلى الحكم إلا بعد ١٦ سنة فشل فيها الخط النيوليبرالي في إنقاذ البلاد من الفقر والمرض والجوع.

يضاف إلى تلك العناصر ما أشرنا إليه من خصوصية وتاريخية الزعيم الكوبي فيدل كاسترو والشعبية الكبيرة التي لايزال يتمتع بها على صعيد المواطن اللاتيني العـادي، فـلا يزال ينظر إليـه على أنه البطل الشـعـبي "الفولكلوري" الذي تحدى العملاق الأمريكي ،وظل حيا لسنوات طويلة ،تبدل فيها نحو ٨ رؤساء أميركيين بين ديمقراطي وجمهوري.

وحدة الكاريبي ضد العولمة

واجهت الدول الكاريبية تحدّي البقاء والتقدم في خضم أعمق أزمة اقتصادية واجتماعية وسياسية تعانيها أميركا اللاتينية والعالم الثالث، وفي لحظات تهدد فيها العولمة "النيوليبرالية" بتدمير ليس فقط حق الشعوب الفقيرة في النمو، وإنما أيضاً تنوعها الثقافي وهوياتها الحضارية والملاذ الوحيد أمامها هو التكامل والتعاون، ليس فقط بين الدول فحسب، وإنما كذلك بين مختلف الهيئات والمنظمات الإقليمية.

هذاأمرلامفرّمنه لمواجهة الآثار الجانبية لنظام دولي مجحف وتمييزي، ينزل العذاب على وجه خاص بالدول الصغيرة ،ولهذا فقد دعم كاسترو بكل حماس جمعية دول الكاريبي منذ تأسيسها ووقع اتفاق تجارة وتعاون اقتصادي بين المجموعة الكاريبية (كاريكوم) وكوبا.

وقال كاسترو في خطاب جماهيري في ٢٠٠٢" إن وطننا يدعم وسيدعم دائماً حق البلدان الصغيرة والضعيفة بأن تحظى بمعاملة خاصة وتفضيلية للوصول إلى التجارة والاستثمارات؛ وبتلقي موارد مالية إضافية وبشروط متميزة؛ وبأن

تحصل مجاناً على تكنولوجيات نظيفة وفاعلة، بشروط ملائمة."وأضاف:

"ستعترض كوبا دائماً على سرقة مهنيي وأطباء وممرضات ومعلمي البلدان الكاريبية من قبل البلدان الغنية، وسترفض الاستهلاك المتمادي والمتخم من قبل مجموعة صغيرة من البلدان الغنية، التي تسمّم البحار والهواء، مخضعةً الحياة في بلداننا الجزيرة الصغيرة لأخطار جسيمة."

وأشار إلى نتائج وثمار العلاقات التعاونية بين كوبا ودول الكاريبي، وقال:"نجدد التزامنا الثابت والأكيد بالتعاون مع أشقائنا في الكاريبي. إن بلدنا مستعد لمشاطرتهم إنجازاته المتواضعة. فمع أنه تخرج من كوبا بين عامي ١٩٦١ و٢٠٠٢ الآلاف من الطلاب في أكثر من ٣٣ اختصاصاً، منهم ٨١٨ من المستوى العالي، قادمين من ١٤ بلداً من المجموعة الكاريبية، فإن هذا الرقم يجب رفعه وسيتم رفعه سنوياً. في الواقع أن مراكز التعليم العالي أصبحت حالياً في متناول يد آلاف شباب الكاريبي، ومن بينهم حوالي ألف طالب في الطب، بدون أي تكلفة.

وتساهم كوبا حالياً بأكثر من ١٥٥١متعاوناً مدنياً في بلدان أعضاء في المجموعة الكاريبية. من هؤلاء ٩٦٤ في مجال الصحة، وأكثر من ثلثيهم على شكل تبرع بالخدمات".

لقد كافح الكاريبي بكل ما لديه من قوة لكي تكون كوبا عضواً في معاهدة" كوتونوو"، والكاريبي هو رائد الجهود التضامنية من جانب مجموعة بلدان أفريقيا والكاريبي والمحيط الهادئ التي قررت في عام ١٩٩٨ ضم كوبا إلى المجموعة كعضو مراقب، ثم كبلد عضو اعتباراً من عام ٢٠٠٠ .

قلوبهم مع كاسترو
وأياديهم مع بوش

ولقد بدا التأييد اللاتيني لكوبا، وبالتبعية لزعامتها، بشكل واضح خلال أعمال القمة اللاتينية الأولى التي عقدت في مدينة جواد لاهارا، ثاني أكبر مدن المكسيك في ١٨يوليو ١٩٩٢، والتي شارك فيها زعماء١٩دولة لاتينية بالإضافة إلى أسبانيا والبرتغال، حيث توجه مسئول كبير بالخارجية المكسيكية إلى هافانا لتوجيه دعوة شخصية لكاسترو للمشاركة في أعمال القمة، أعقب ذلك زيارة قام بها عمدة مدينة جوادا هارا، وهى مدينة ذات طابع كاثوليكي متشدد، ليؤكد لكاسترو ترحيبه ومدينته بزيارة الزعيم الكوبي الشيوعي.

وبالفعل شارك كاسترو في أعمال القمة والتقى خلالها بالعديد من زعماء القارة اللاتينية ، وأعلنت كل من كولومبيا وشيلي إقامة علاقات قنصلية مع كوبا تمهيداً لإعادة العلاقات الدبلوماسية الكاملة، كما أعيدت لعضويتها في منظمة الدول الأمريكية التي طردت منها عام١٩٦٢ استجابة للضغوط الأمريكية، وصرح سكرتير عام المنظمة بأن الوقت قد حان للنظر في استرداد كوبا لعضويتها في المنظمة ،مشيراً إلى اختلاف عالم التسعينيات عن عالم الستينيات.

ولم يقتصر التأييد الذي ظفرت به كوبا على الدول اللاتينية فقط، حيث وصف فيليب جونزاليس رئيس وزراء أسبانياالاسبق الحظر الاقتصادي الأمريكي ضد كوبا لمدة ثلاثين عاما بأنه خطأ تاريخي، وأكد معارضته التامة للحظر وعزم بلاده على مواصلة الحوار مع كوبا لكون العلاقة بين

البلدين علاقة شعوب وليس حكومة.

وسوف يمر عقد من الزمان حتى يرفع الاتحاد الأوروبي وبإلحاح من رئيس وزراء اسبانيا التقدمي زاباتيرو العقوبات الدبلوماسية التي فرضت على كوبا، وهو القرار الذي صدر بأغلبية ساحقة في ربيع ٢٠٠٣،وأحرز كاسترو انتصارا دبلوماسيا خلال قمة لدول الكاريبي ال١٥، واصدر الحاضرون في ٢٠٠٥بيانا يدعو إدارة بوش إلى ترحيل منفي كوبي مسجون ومتهم بالتخطيط لتفجير طائرة تابعة للخطوط الكوبية عام ١٩٧٦ .

يقول الدكتور ادواردو فيليبو الباحث في جامعة العلاقات الدولية في واشنطن" إن العودة إلى لقاءات زعماء القارة في المؤتمرات وتصريحاتهم تكتشف انه وبرغم روح التضامن مع كوبا التي سادت المؤتمر، جاء تأييد الدول اللاتينية لكوبا تأييداً مشروطاً بضرورة تخلى كاسترو عن ايديولوجيته الثورية الانقلابية، وإرساء الديمقراطية واحترام حقوق الإنسان وإطلاق الحريات وتحرير الاقتصاد الكوبي، وهى المبادئ التي وافق كاسترو على إطارها النظري بتوقيعه على الإعلان الختامي للقمة الذي تضمن هذه المبادئ."

ويمكن تفسير التأييد اللاتيني لكوبا في هذا التوقيت المتزامن مع بروز الولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة في عالم اليوم، وتأثير ذلك المباشر على القارة اللاتينية بحكم قربها وتواصلها الجغرافي مع العملاق الأمريكي، على أنه من قبيل التحيز اللاتيني التقليدي، فضلاً عن ظاهرة التحدي للولايات المتحدة بهدف تأكيد ثقل القارة اللاتينية واستقلالية سياساتها وإرادة دولها السياسية عن الإدارة الأمريكية التي تضع مصلحتها القومية في المقام الأول بما قد

يتعارض في أحيان كثيرة مع المصالح المنفردة أو الجماعية للدول اللاتينية .ومن هنا يمكن أن نفهم لماذا شن رئيس كوستاريكا اوسكارارياس هجوما عنيفا ضد كاسترو إلى حد أن شبهه بدكتاتور شيلي الراحل اوجستو بينوشيه.

ومثل هذه التصريحات تكشف عن عمق التغلغل الأميركي في القارة وتمكنها من استقطاب وتجنيد قيادات صارت موالية لها تعمل بتناغم في إطار مشروعها الرامي إلى بقاء القارة في يد أميركا.

والحيلولة دون اتجاه الدول اللاتينية نحو التكامل الاقتصادي من خلال إنشاء تكتلات .اقتصادية ، كمجموعة "ريو "ومجموعة "الانديز" والسوق الكاريبي والسوق الجنوبي، يمكن لها فيما بعد أن تندمج في إطار تكتل اقتصادي واحد للدول اللاتينية ودول الكاريبي، أصبح من الضروري للقارة اللاتينية خلق التجانس المطلوب بين دولها، وتجنب خروج أي منها عن الإجماع، سعياً لتحقيق ذلك الهدف المتماشي في مجمله مع مقتضيات العصر الحالي.

آفاق تعاون بين كوبا وبوليفيا

عبر رسالة وجهها كل من الجمعية والوطنية ومجلس الدولة لإيفو موراليس، اعترف الشعب الكوبي بأن تحديات جديدة وكبيرة تواجه هذا الأخير وشعبه، وهو أحد أفقر شعوب قارتنا وأكثرها تعرضاً للاستغلال، مما يجعلهما بحاجة لأكبر قدر من التضامن الأمريكي اللاتيني والعالمي.

وعبّرت الحكومة الكوبية في إطار المداولات عن استعدادها لرعاية برنامج يمكنه أن يسمح في مجال طب العيون بتأمين العناية سنوياً بخمسة ملايين

مريض أمريكي لاتيني وكاريبي فقراء، ممن تشير التقديرات إلى أن عليهم الخضوع لعمليات في العيون.

كما عبّرت كوبا عن استعدادها للتعاون فوراً مع الجهود التي يبذلها الرئيس الجديد لمحو أميّة كل أبناء وطنه الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة.

أما إيفو موراليس، رئيس بوليفيا المنتخب بأغلبية ساحقة، فقد عبّر عن عزمه على مواجهة الفقر والنهب اللذين يعانيهما هذا الشعب المناضل.

وانطلاقاً من عزم البلدين على النضال من أجل وحدة واندماج شعوب أمريكا اللاتينية والكاريبي الشقيقة ومن أجل الصداقة والسلام بين كل شعوب العالم، كخطوات تسبق تولّي الرئيس إيفو موراليس لمنصبه وتنفّذ حالما يتولى القائد البوليفي إيفو موراليس لرئاسة بلاده ومعها الصلاحيات القانونية والدستورية لمنصبه، اتفقا على إجراءات التعاون التي سيتم تنفيذها لاحقاً بعد الثاني والعشرين من كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦:

أولاً: تشكيل هيئة كوبية-بوليفية غير تجارية تؤمن إجراء عمليات العيون ذات الجودة والمجانية لجميع أولئك المواطنين البوليفيين الذين يفتقدون للموارد الاقتصادية اللازمة لتغطية التكاليف الباهظة لهذه الخدمات، وبهذه الطريقة الحيلولة دون فقدان مئات الآلاف من البوليفيين سنوياً لنظرهم أو تعرضهم لمشكلات خطيرة فيه، وهي في كثير من الأحيان مشكلات تلحق الشلل بالوظيفة البصريّة.

ثانياً: تساهم كوبا بأحدث المعدات التكنولوجية وما يلزم من أخصائيي طب العيون في المرحلة الأولى، والذين سيوفّرون عناية ماهرة بالمرضى

البوليفيين، وذلك بمساعدة شبان بوليفيين يتأهلون من المدرسة الأمريكية اللاتينية للعلوم الطبية، بصفة مقيمين، أو غيرهم من الأطباء أو المقيمين البوليفيين أو القادمين من بلدان أخرى.

ثالثاً: تغطي كوبا رواتب هذا الطاقم المتخصص.

رابعاً: توفر بوليفيا المنشآت اللازمة لتقديم هذه الخدمة، والتي يمكنها أن تكون أبنية للاستخدام الطبي أو يجري تكييفها لهذه الغاية.

خامساً: المركز الوطني لطب العيون، الذي جهزته كوبا مؤخراً لإجراء عمليات للنظر وزودته بطاقم متخصص عدد من أفراده هم أطباء بوليفيون أو مقيمون متخرجين من المدرسة الأمريكية اللاتينية للعلوم الطبية، والذي أجرى حتى الآن عمليات لـ ١٥٣٦ بوليفيا، سيتمتع بشكل إضافي بمركزين لإجراء العمليات، أحدهما في كوتشابامبا والآخر في سانتا كروز. ستكون عند مركز لاباز لطب العيون القدرة على إجراء عمليات لمائة مريض يومياً، بينما تبلغ قدرة مركزي كوتشابامبا وسانتا كروز خمسين عملية كل واحد، لتبلغ القدرة الإجمالية لهذه المراكز إجراء عمليات في العيون لما لا يقل عن خمسين ألف مريض سنوياً. يمكن رفع هذه القدرات إذا ما قررت بوليفيا تقديم خدماتها في طب العيون لمرضى فقراء من بلدان مجاورة قريبة على المراكز البوليفية.

سادساً: تعرض كوبا على بوليفيا خمسة آلاف منحة دراسة لتأهيل أطباء وأخصائيين بالطب العام التكاملي أو غيره من مجالات العلوم الطبية؛ ألفان في الفصل الأول من عام ٢٠٠٦، ممن أخذوا بتلقي الدورات الأساسية في كوبا؛ وألفان في الفصل الثاني من العام نفسه، وألف في الفصل الأول

من عام ٢٠٠٧ وخلال السنوات التالية يتم الأخذ بتجديد الفرص الممنوحة عبر مسجّلين جدد. ولا يندرج ضمن هذه المنح الشبان البوليفيون الـ ٤٩٧ الذين يتلقون علومهم حالياً في الطب في كليات العلوم الطبية الكوبية.

سابعاً: تقدّم كوبا لبوليفيا تجربتها والمواد التعليمية والوسائل الفنية اللازمة لبرنامج محوٍ للأميّة يشمل جميع المواطنين المؤهلين لذلك، مع بذل كلا البلدين الجهد في سبيل تنفيذ هذا البرنامج خلال ثلاثين شهراً اعتباراً من شهر تموز/يوليو ٢٠٠٦.

ثامناً: تنقل كوبا لبوليفيا تجربتها في مجال توفير الطاقة.

تاسعاً: تقدم كوبا أكبر دعم ممكن لتطور بوليفيا في كل أنواع الرياضة التي تهمّ شعبها.

عاشراً: يستطلع الطرفان سبل التبادل الأكاديمي والعلمي والثقافي بين شعبي بوليفيا وكوبا على أرفع المستويات.

حادي عشر: يتم النظر في أشكال تعاون أخرى مفيدة ونافعة وبنّاءة بين البلدين.

تسعى هذه البرامج لبلورة وقبول التعاون الدولي، مع أن البلدين يتعهدان بالقيام بها بجهودهما الخاصة.

يشكل هذا الاتفاق بداية عملية واسعة للتكامل تقوم على أساس مبادئ التضامن والمعاملة بالمثل.

فيدل كاسترو روز رئيس مجلسي دولة ووزراء كوبا

إيفو موراليس رئيس بوليفيا المنتخَب

حوارات تطبيع العلاقات
بين واشنطن وهافانا

ومن ناحية أخرى سعت الدول اللاتينية، في التسعينيات وقبل وصول شافيز إلى السلطة في كاراكاس وعلى وجه الخصوص مجموعة الثلاثة التي تضم كلا من فنزويلا وكولومبيا والمكسيك، إلى بذل الجهود سعياً للتوفيق بين كوبا والولايات المتحدة ، وتطبيع العلاقات الدبلوماسية بينهما من خلال مبادرات عكست حرص حكومات القارة على إنهاء التوتر التاريخي بين هافانا وواشنطن ففي إحدى القمم للمجموعة في مدينة كوزمل المكسيكية عقد رؤساء الدول الثلاث جلسة محادثات مطولة مع الزعيم الكوبي كاسترو أعقبها إصدار إعلان مشترك تضمن تعهد دول المجموعة ببذل جهود الوساطة بين كوبا والدول ذات الخلافات معها في إشارة ضمنية للولايات المتحدة- من خلال إيجاد المدخل الملائم للحوار الذي يؤدي في النهاية إلى تطبيع العلاقات في المنطقة ،وهو التعهد الذي علق عليه كاسترو بأنه لايرى إمكانية لتطبيع العلاقات ارتباطاً بتصور الولايات المتحدة لنفسها كمن يمتلك العالم أجمع، موضحاً أنه إذا ما أرادت الولايات المتحدة إبداء حسن النية فعليها أن تنهي حصارها الاقتصادي ضد كوبا دون شروط وترد الأراضي الكوبية التي- تحتلها- في إشارة إلى قاعدة جوانتانامو.

لقد بات واضحاً أن هناك توجها عاماً لدى الدول اللاتينية لإنهاء أزمة العلاقة الكوبية الأمريكية من خلال التحرك بالتوازي على صعيدين أولهما في حث وتشجيع كوبا على التخلي عن الشيوعية وإرساء أسس الحرية

والديمقراطية والانفتاح الاقتصادي.

والثاني بالاستمرار في جهود الوساطة لإصلاح العلاقات الكوبية الأمريكية وإقناع الولايات المتحدة برفع الحظر الاقتصادي عن كوبا، وذلك مع الإبقاء على القنوات مفتوحة لضخ المساعدات والاستثمارات لإنقاذ كوبا من خطر المجاعة والانهيار الاقتصادي التام. وتدرس بعض الدول اللاتينية حالياً إمكانية الدخول في مشروعات استثمارية في كوبا بينما صرح كاسترو بإعطاء الأولوية والمعاملة التفضيلية للمستثمرين من دول أميركا اللاتينية، وان الأمل الوحيد هو الاعتماد على النفس وتطوير القدرات اللاتينية سواء في المجال التكنولوجي أو إنشاء سوق مشترك لتبادل السلع، خاصة مع تنوع إمكانات القارة بين ثروة نفطية وغاز في فنزويلا وبوليفيا وثروة معادن في الإكوادور وإنتاج صناعي متطور في البرازيل التي كادت أن تدخل النادي النووي لولا أخطاء بسيطة يمكن تفاديها مستقبلا، وإمكانات بشرية وعلمية في كوبا والأرجنتين، الأمر الذي يعني إمكانية خروج القارة من اسر الهيمنة الأميركية إذا امتلكت البديل الذاتي.

الفصل الثالث عشر

الأحلام لها أجنحة

كاسترو وتوحيد أميركا اللاتينية



عندما كان كاسترو في غرفة العمليات الجراحية في نهاية ٢٠٠٦ خرج شافيز على العالم بتصريح قصير أكد فيه أن الزعيم الكوبي الذي طالما خاض معارك ضد الاستعمار والهيمنة يخوض الآن معركة شجاعة. ضد المرض، وفي الواقع كان شافيز يشير إلى ميلاد جديد وشجاع يولد من غرفة عمليات كاسترو، ميلاد ثورة بيضاء تغير الأوضاع بنضال سلمي أو رياح راديكالية تؤرخ لفجر جديد، وهي رياح حبلى بالتغيير وإن تفاوتت من حيث مصدرها واتجاهها وسرعتها سواء تلك التي تهب من فنزويلا وبوليفيا أو الأخرى القادمة من الأرجنتين والبرازيل وهو ما يعرف بيسار الوسط.

يتميز النمط الجديد لنضال شعوب أميركا اللاتينية بميزتين أساسيتين:

دور الشعوب: يكتسب نضال هذه الشعوب ثوبا جديداً يعيد لها دورها في صياغة التغيير والإمساك بمصيرها .من خلال الإقبال الجاد على صناديق الاقتراع لاختيار من تراه صالحا للتعبير عن مصالحها دون إغراء أو تهديد، ومن هنا وصل إلى الحكم في أميركا قادة راديكاليون يتبنون برامج ثورية طموحة لمصلحة الكتلة الصامتة أو التي كانت كذلك.

القيادة: ظهور ونجاح قيادات وأحزاب وهياكل سياسية، من نمط جديد، تنطلق من تربتها الطبيعية وثقافتها الوطنية وتعبر عن مصالح الفقراء والمهمشين وتلتحم مع جماهيرها في نضالاتها ومعاناتها اليومية.وتستفيد من التراث النضالي في القارة وتستلهم من سيمون بوليفار وكاسترو خلاصة النضال من أجل الحرية والكرامة.

أول الغيث .. فنزويلا

شافيز هو المبتدأ والخبر ، وهو نقطة التحول في المسار الجديد فقد شهدت فنزويلا، منذ أن تولى هوجو شافيز رئاسة الجمهورية عام ١٩٩٨، تحولاً جذرياً شمل كافة المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية. فللمرة الأولى في تاريخ البلاد يتم استثمار عائدات النفط لتأمين الخدمات الاجتماعية (الرعاية الصحية والتعليم وتوفير المياه الصالحة للشرب والمواد الغذائية للفقراء وضمانة الأمن الغذائي للمجتمع والطاقة الكهربائية) وغيرها من الخدمات الأساسية للمواطنين.

قدم شافيز رؤيته لمستقبل القارة في لقاء تاريخي مع كاسترو في ٢٠٠٤ انتهى بالاتفاق على بلورة تصور نهوضي تكاملي للقارة واصطلحا على تسميته" البديل البوليفاري" والثورة البوليفارية الثانية ، والتي تؤمن أن نتائج وعائدات هذا التحول (وهذه السياسات) لا تعود بالنفع على المواطنين الفنزويليين فحسب، بل على مجمل القارة اللاتينية. ويشكل هذا التضامن الإقليمي والأممي البعد الأساسي الذي يميز الرؤية هذه الاتفاقيات التي

اعتبرها المراقبون الحل اللاتيني الذي سوف ينقذ القارة من خطر الهيمنة الأميركية واستغلال الشركات الاحتكارية، كما هي البديل اللاتيني لمواجهة الهيمنة والعولمة، وهي خطة استلهمت نضالات واحد من أنبل من أنجبتهم القارة هو سيمون بوليفار الذي يعتبره المؤرخون محرر القارة في القرن التاسع عشر، وعطاءات كاسترو غير المحدودة لدول القارة .

انضمام بوليفيا

وبعد الاتفاق الثنائي بين كاسترو وشافيز بات منطقيا انضمام دول أخرى يقودها راديكاليون ففي ٢٩ ابريل ٢٠٠٦ انضم الرئيس البوليفي ايفو موراليس في العاصمة الكوبية"هافانا" اتفاقية "البديل البوليفاري لأميركا والكاريبي" " ALBA ألبا"، وتبعها بقرار تأميم مصادر الطاقة في بلاده .وهو ماخيب توقعات المراقبين السياسيين الأميركيين الذين ظنوا أن موراليس لن يؤمم قطاع الغاز فإذا به يفعلها ويؤمم أيضا قطاع المعادن.

وكان الزعيمان الكوبي (فيدل كاسترو) والفنزويلي (هوجو شافيز) قد دشنا هذه الاتفاقية يوم ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤ . كخطوة في اتجاه وحدة القارة اقتصاديا، ويحدو المحللين تفاؤل كبير في أن تلحق بهذه الاتفاقية كل من الإكوادور والبرازيل ونيكارجوا والبيرو والمكسيك وشيلي.

ولعله من المفيد هنا أن نعرض نص الرسالة التي وقعها موراليس في هافانا معلنا انضمامه إلى البديل البوليفاري مع كاسترو وشافيز وكان الرئيس الفنزويلي انضم للاتفاقية قبلها بعام، ومن يقرأ نص رسالة

التوقيع على الاتفاقية يمكن أن يكتشف بوضوح ثقافة فكرية عالية اتسم بها موراليس وهي نتاج طبيعي للثقافة السياسية المنتشرة في القارة، وقد ساهم كاسترو بإثراء هذه الثقافة من خلال خطبه التي كانت تستمر ساعات يشرح فيها لمواطني بلاده وأبناء القارة طبيعة المخطط الإمبريالي وكيفية التعامل معه.

فشل النيوليبرالية

إن تنفيذ المشاريع والسياسات النيوليبرالية أدت إلى انتشار وتعميق التبعية والفقر ونهب موارد الطبيعة وعدم المساواة في منطقتنا.

وإن التكامل الحقيقي بين دول أمريكا اللاتينية والكاريبي يغدو شرطا لا بد منه لتحقيق التنمية المستدامة والأمن والسيادة الغذائيين من أجل تلبية احتياجات شعوبنا.

وإن وحدة عمل دول أمريكا اللاتينية والكاريبي على أساس مبادئ التعاون والتكامل والمساعدة المتبادلة والتضامن فقط سيمكننا من صون الاستقلال والسيادة والهوية، والتصدي بنجاح للتوجهات التي تسير في طريق الأحادية في العلاقات الدولية والمزاعم الهيمنية، وذلك عبر تعزيز اتفاقية تجارية للشعوب.

وإن النضال من أجل الارتقاء بالجنس البشري والصداقة والتضامن والسلم بين شعوب العالم ينبغي أن تلتزم به جميع الحكومات التزاما أخلاقيا.

وبعد اقتناعي بضرورة تشجيع الاندماج الحقيقي التضامني

والتكاملي بين دولنا وشعوبنا، نود باسم حكومة جمهورية بوليفيا المساهمة في هذه العملية بمبادرة الاتفاقيات التجارية بين الشعوب، وتبني الأهداف والمبادئ والمفاهيم الأساسية التي يستند إليها الخيار البوليفاري من أجل شعوب قارتنا الأمريكية/ ALBAوالواردة في الإعلان المشترك الذي وقعه في هافانا بتاريخ أربعة عشر من ديسمبر ٢٠٠٤ كل من رئيس مجلسي الدولة والوزراء لجمهورية كوبا ورئيس جمهورية فنزويلا البوليفارية.

حرر في هافانا

بتاريخ ٢٩ أبريل

هكذا تشكلت النواة الأولى لانطلاقة "الالبا " التي تعكس نمطا جديدا من الاشتراكية العلمية في طبعتها اللاتينية التي أشار إليها شافيز وهي تدمج بين الحلم العام والطموحات الفردية ، وتعطي للمبادرات الاقتصادية الفردية فرصتها كاملة في نفس الوقت الذي تؤمن للدولة والقطاع العام مجال قيادة الاقتصاد الوطني وفق رؤية أخلاقية واجتماعية وحضارية تنطلق من أهمية رفع مستوى الطبقات الكادحة وترقية أحوال المناطق المهمشة، وهذه المعاني نلمسها بوضوح في البيان التالي الصادر عن الرئيس كاسترو.

بيان مشترك

بمناسبة الزيارة الرسمية التي قام بها إلى كوبا الرئيسان هوجو شافيز وإيفو موراليس أيما التي تتراوح بين ٢٨ إلى ٢٩أبريل ٢٠٠٦ جرى حوار واسع مع رئيس مجلس الدولة في جمهورية كوبا بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لاتفاقية تنفيذ الخيار البوليفاري لشعوب قارتنا الأمريكية ALBA التي تم إغناؤها بمقترح اتفاقيات التجارة الخاصة بالشعوب TPC.

وشمل هذا الحوار دراسة الوضع الدولي الراهن لاسيما التحديات التي تواجهها شعوب أمريكا اللاتينية والكاريبي في الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الراهن الذي يتسم بتصاعد نضالات الشعوب في وجه السياسة النيوليبرالية الفاشلة وبإيجاد سبل وطرق جديدة لتحقيق التنمية المتميزة بالعدالة الاجتماعية، وفي إطار تكامل أمريكي لاتيني وكاريبي حقيقي وتضامني.

في الحوار الذي جرى بين الرؤساء الثلاثة تم تناول موضوع الخيار البوليفاري لشعوب قارتنا الأمريكية/ ALBAالذي تستند إليه علاقات التبادل والتعاون القائمة بين جمهورية فنزويلا البوليفارية وجمهورية كوبا، والذي بدأ تطويره وتنفيذه منذ ديسمبر ٢٠٠٤ بنتائج ممتازة لكلا البلدين.

وتبادل الرؤساء الآراء حول المبادرة التي طرحها الرئيس إيفو موراليس بخصوص اتفاقيات التجارة الخاصة بالشعوب/ TPCالتي تعد أدوات للتبادل التضامني والتكاملي بين الدول، و تهدف لخدمة الشعوب في وجه

اتفاقيات التجارة الحرة التي ترمي لزيادة جبروت وهيمنة الشركات المتعددة الجنسية.

لقد تمت دراسة احتياجات شعبه التنموية والتحديات التي تواجه حكومة الرئيس إيفو موراليس بعد ثلاثة أشهر بالكاد من تسلمه الحكم بعد انتصار انتخابي ساحق سمح وللمرة الأولى للمجتمعات الأصلية وشعوب السكان الأصليين بالوصول للسلطة في البلاد. ولدى الرؤساء الثلاثة قناعة مشتركة بأن التضامن والمساعدة المتبادلة والتعاون بين شعوبهم بعيدا عن المنفعية والربح التجاري أمر حاسم.

وفي حالة بوليفيا بالذات سوف يساعدها ذلك التضامن على التقدم في المهمة المعقدة التي أمامها وهي تغيير الوضع الراهن الذي تعيشه والذي يتسم بالشح في الخدمات الاجتماعية الأساسية كالتربية والصحة واستغلال مواردها الباطنية مثل الغاز والنفط وغيرهما، وفي تطوير إمكانياتها في الزراعة وفي تأهيل الموارد البشرية لصالح الفقراء وضحايا الاضطهاد والتهميش.

أجمع الرؤساء على الرأي القائل بأن التكامل الحقيقي الجديد المدعوم بمبادئ المساعدة المتبادلة واحترام الحق في تقرير المصير الذاتي بإمكانه فقط أن يوفر حلا مناسبا على مستوى العدالة الاجتماعية والتنوع الثقافي والمساواة والحق في التنمية الذي تستحقه الشعوب وتطالب به، حيث يتم فهم هذا التكامل كنوع من العلاقات السياسية والاقتصادية تختلف كثيرا عن العلاقات التي تقام في إطار اتفاقية

منطقة التجارة الحرة للقارة الأمريكية ALCA واتفاقيات التجارة الحرة TLC.

وللأسباب آنفة الذكر اتفق الرؤساء الثلاثة على انضمام جمهورية بوليفيا التي يمثلها الرئيس إيفو موراليس لعملية بناء وتنفيذ الخيار البوليفاري لشعوب قارتنا الأمريكية على أساس تنفيذ اتفاقيات التجارة الخاصة بالشعوب بين الدول الثلاث، وعلى تكرار البيان المشترك بين حكومتي جمهورية كوبا وجمهورية فنزويلا البوليفارية الصادر بتاريخ ١٤ ديسمبر ٢٠٠٤ والذي طرحت فيه مجموعة المفاهيم الأساسية الأولى التي يستند إليه الخيار البوليفاري ALBA، والتي يتبناها الرئيس إيفو موراليس ويعتمدها.

النيوليبرالية
نظرية الخراب الجميل

فما هي النيوليبرالية ؟ وكيف وصلت إلى أميركا اللاتينية وما هي النتائج التي تسعى إلى تحقيقها وما الذي تحقق بالفعل؟

تظهر إحصائية صدرت في مطلع ٢٠٠٧ تناقضات الليبرالية القديمة والجديدة من حيث التفاوت الطبقي بين الأغنياء والفقراء في المجتمع الأميركي، وأشارت مجلة" فوربس" إلى أن أصحاب البلايين ارتفع عددهم إلى أكثر من ٤٠٠ في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٦، وبحسب مكتب دراسات السوق"ني إن إس"فان مالا يقل عن ٨.٩ مليون أسرة أميركية كانت تملك في

٢٠٠٥ ثروة تفوق قيمتها المليون دولار، لكن في مقابل ذلك ارتفع عدد الفقراء إلى أن تدخل مجلس النواب وصوت في يناير ٢٠٠٧ على زيادة الحد الأدنى للأجور للمرة الأولى منذ ١٩٩٧ ليرتفع من ٥,١٥ الى٧,٢٥ دولار في الساعة.

وقال بارني فرانك النائب الديمقراطي ساخرا من نتائج الليبرالية" إن ارتفاع الأمواج أمر جيد ان كنا نمتلك مركبا ، لكن إذا كنتم فقراء وليس بوسعكم امتلاك مركب فتذكروا أنكم تقفون حفاة في المياه وقد تغرقون عند ارتفاع الأمواج".

إذا كانت أميركا وهي العريقة في تطبيق الليبرالية وفي مجتمع الوفورات تعاني من مشكلة زيادة أعداد الفقراء ويتدخل مجلس النواب ليحمي مصالح صغار العمال فكيف يكون الحال في الوطن العربي أو أميركا اللاتينية؟

لايختلف كثيرا تاريخ ونضال شعوب أميركا اللاتينية عن ماجرى في المنطقة العربية والعالم الثالث،ثمة رواية واحدة لمؤلف واحد هو الاستعمار الأميركي الحديث، وان جرى تمثيلها في مسارح مختلفة وبإبطال مختلفي الألوان والرايات.

وهو تاريخ يتنازعه مشروعان متناقضان: الأول: مشروع نهضوي يتمثل في الاستقلال والسيادة والوطنية والانطلاق نحو التنمية والازدهار والرفاهية؛ والثاني: هو مشروع الاستعمار والهيمنة ونهب موارد البلاد واستغلال الشعوب وقهرها واحتجاز تنميتها وتعميق تخلفها.

اتسعت رقعة الرفض في أوساط شعوب العالم الثالث، وبخاصة في أميركا اللاتينية لموجة الاتجاهات الاقتصادية النيوليبرالية كمدرسة اقتصادية في المركز الرأسمالي (الولايات المتحدة) والتي برزت في سبعينيات القرن الماضي متزامنة مع اشتداد الأزمة البنيوية التي يجتازها النظام الرأسمالي.

وترتكز النيوليبرالية، فلسفياً، على الحماية القصوى للملكية الخاصة (وفي هذه الحقبة للملكية الفكرية بشكل خاص) ورفض تدخل الدولة في التخطيط أو توجيه الاقتصاد. وتقوم على حماية حقوق رأس المال، وبالدرجة الأولى حقوق الشركات الكبرى متعددة الجنسية، "بتحرير" الأسواق العالمية ،والتحرك بحرية مطلقة بين الشعوب والبلدان واختراق حدودها دون قيد أو شرط. وفي مقابل هذا "التحرير"، تفرض هذه السياسات كافة أشكال القيود والحواجز على حرية الأفراد (الفقراء والمعدومين والمهمشين) وتحركاتهم (الهجرة من أجل العمل وكسب العيش والسفر والتنقل).

والغاية من هذا كله هي الإبقاء على الأجور المنخفضة ،وتصفية الإنجازات والمكتسبات التي أحرزتها الطبقة العاملة والطبقات الشعبية عبر عقود طويلة من النضال.

تهدف النيوليبرالية، أيضاً، إلى إزالة أو تقليص الخدمات التي توفرها الحكومات لشعوبها ، وإلغاء الضوابط التي تفرضها الحكومات على الشركات الكبرى من أجل حماية المجتمع والمستهلك، وإحلال هذه الخدمات

بسلع "وخدمات" تبيعها الشركات الرأسمالية الكبرى (خصخصة الخدمات الاجتماعية والموارد الطبيعية). ورغم إدعاءاتها وترويجها لقدرتها على "تخفيض النفقات الحكومية"، فان هذه النفقات ما فتئت في ازدياد مستمر على مدى العقود الثلاثة الأخيرة.

منطقة التجارة الحرة للأميركيتين

وقعت كل من الولايات المتحدة وكندا والمكسيك اتفاقية "نافتا" سيئة الصيت في يناير ١٩٩٤، وأردفت ذلك باتفاقية التجارة الحرة للأمريكيتين"في ديسمبر ١٩٩٤ والتي أصبحت معروفة للملأ عام ٢٠٠١ تسعى هذه الأخيرة إلى "محو أو الحد من الحواجز التجارية بين شعوب الأميركيتين (باستثناء كوبا وفنزويلا) "، إلاّ أن جهودها تعثرت وواجهت موجات شديدة من المعارضة الشعبية، وقد فشل إجماعها الذي عقد في الأرجنتين (يناير ٢٠٠٥) في الوصول إلى أي إجماع سواء بسبب البنود المجحفة بمصالح الفقراء أو لأن الدول التي طبقتها دخلت في أزمات بالجملة انتهت بإطاحة الحكومات التي كانت قائمة على تطبيقها.

تنظر شعوب القارة اللاتينية إلى هذه الاتفاقيات على أنها تمثل مصالح رأس المال والشركات الكبرى متعددة الجنسية ومخطط توسعي للعولمة في نصف الكرة الغربي.

ولا تلبي مشاريعها وبرامجها حاجات شعوب المنطقة بل تنصاع لمصالح الشركات متعددة الجنسية وتسعى إلى "التحرير" المطلق لسلع هذه الشركات وخدماتها (مثل محو أو تخفيض الجمارك، خصخصة كاملة لكافة الصناعات، احتكار وتمركز حقوق الملكية الفكرية، التقليل من تأثير القيود التي تفرضها قوانين العمل وحماية البيئة، والحد من هجرة الفقراء إلى الولايات المتحدة وكندا وغيرها من المشاريع).

أما الترجمة العملية لهذه المشاريع فتتمثل في:

. زيادة استثمارات هذه الشركات التي تزيد من استغلال العمال والفلاّحين والفقراء وتهميشهم.

. مصادرة الأراضي من أصحابها ومزارعيها، مما أودى بمصادر عيش الملايين منهم الذين ارتحلوا إلى المدن والمناطق الصناعية بحثاً عن لقمة العيش. وقد عمق هذا من فقرهم واغترابهم عن بيئتهم الطبيعية وتهميشهم اجتماعيا.

. تخفيض المخصصات الحكومية للخدمات الاجتماعية (الرعاية الصحية، التعليم وغيرهما).. تصفية الإنجازات والمكتسبات التي حققها العمال والطبقات الشعبية عبر نضال مرير وطويل (فرض قوانين تلغي أو على الأقل تحد من حقوق العمال في أجور الحد الأدنى، ساعات العمل، العمر الأدنى للعامل وغيرها). الحد، وفي بعض الحالات، إلغاء برامج الغذاء والإسكان والدواء وتطوير المدارس والجامعات.

سمات البديل البوليفاري

لم تجلب اتفاقيتا NAFTA و FTAA الشعوب الاميركتين سوى المزيد من الأزمات الاقتصادية والتخلف وأشكال تجميلية من التنمية المرتهنة والاستهلاكية والمشوهة. ورغم إخفاقاتها وانفضاح إدعاءاتها في تخفيض الفقر والجوع والبطالة ،وتعثر مساعيها التوسعية في نصف الكرة الغربي الذي لم يحرز أي تقدم منذ عام ٢٠٠٣، ما زالت هذه الاتفاقيات تتربع على رأس أولويات الإدارة الأميركية منذ عام ١٩٩٤واكتسبت أهمية اكبر في ظل قيادة اليمين الأميركي المحافظ في واشنطن حيث تشكل النيوليبرالية الإطار الاقتصادي للمجموعة الحاكمة في البيت الأبيض.

فما زال ٤٣٪ من سكان أميركا اللاتينية يعيشون تحت خط الفقر في حين يعيش خمس القارة (٩٧ مليونا) على أقل من دولار واحد يومياً، كما تؤوي هذه القارة ما يقارب ٢٢٢ مليون جائع وفقير، و٥٠ مليون عاطل عن العمل، ٢٠٠ مليون مواطن يتعرض للموت جرّاء الأمراض والأوبئة الفتّاكة، وملايين لا تحصى من الأميين.

ما هي "ألبا"؟

وكيف تساهم في تطوير القارة؟وكيف يستفيد من فكرتها السياسي العربي،خاصة في الدول التي تعاني من اختلال اقتصادي؟

لم تكن هذه الفكرة جديدة على أي نحو ، فقد وردت غير مرة في خطب كاسترو التي كان ينتقد فيها اتفاقية المناطق الحرة التي وقعتها أميركا مع عدة دول لاتينية،ويهاجم النمط الإمبريالي الأميركي خاصة الشركات

متعدية الجنسيات التي ساهمت في نهب ثروات القارة،حيث تسع شركات أميركية تحتكر استخراج وتكرير وتجارة النفط اللاتيني، وهو مادفع شافيز ثم موراليس إلى تأميم صناعة وتجارة النفط في بلديهما.

لكن الجديد هو توفر البيئة النضالية والإنسانية بين زعماء راديكاليين جدد برزوا على المسرح السياسي اللاتيني أعطوا حيوية فكرية لاجتهادات كاسترو كما حولوا بعض هذه الأفكار إلى إجراءات، ويشار في هذا السياق إلى قرار شافيز تأميم الكهرباء أيضا، واتجاه رافاييل كوريا إلى إلغاء اتفاقية التجارة بين بلده الإكوادور والولايات المتحدة وإنهاء القاعدة الأميركية فيها.

ومن هنا جاءت اتفاقية "ألبا" رداً على اتفاقيات نافتا NAFTAو"منطقة التجارة الحرة للأميركيتين" FTAAومجمل السياسات النيوليبرالية التي تقوم على ضمانة الربح الأقصى للشركات متعددة الجنسية والانفلات من كافة القيود والضوابط الاجتماعية والانسانية لا بل والحضارية.

وجاءت "ألبا" للدفاع عن المواطنين وحمايتهم وأسست برامجها على الاقتصاد الموجه لبناء مجتمع أفضل، وانحازت جذريا للعدالة والمساواة الاجتماعيتين ولتوفير الرفاهية للقطاعات المحرومة في البلدان الفقيرة والمتخلفة (أغلبية المجتمع).

يمكننا إيجاز المرتكزات الرئيسية للبديل البوليفاري للقارة اللاتينية "ألبا" بما يلي:

١) محو الفقر وكافة أشكال التهميش الاجتماعي والاقتصادي. ويمثل

إيجاد آليات محو الفقر نقطة الانطلاق في البديل البوليفاري.

٢) تعزيز قيم المساواة بين الناس والعدالة الاجتماعية ورفاهية الطبقات الشعبية (الأكثر قهراً في المجتمع).

٣) الاقتصاد الموجه: اعتماد التعاون الاقتصادي القائم على اقتصاد موجه اجتماعيا كبديل لنقيضه المشروع الرأسمالي الأميركي المتمثل في الاتفاقيات النيوليبرالية، والتأكيد بأن التنمية في هذه البلدان لن تتحقق إلاّ بمحاربة هذه الاتفاقيات والسياسات الرأسمالية بكافة تجلياتها وآلياتها.

٤) إن مصالح شعوب القارة والكاريبي مصالح مشتركة لا تتحقق إلاّ بإزالة الفوارق بين بلدان المنطقة عبر الاندماج الإقليمي. ويتحقق هذا الاندماج بالدرجة الأولى من خلال التضامن مع البلدان الفقيرة والمتخلفة في نصف الكرة الغربي بهدف إعانتها على استنهاض بنيتها التحتية.

ثنائية الخبز والحرية

لتحويل التوجهات المشار إليها في اتجاه الطبقات الأكثر فقرا في القارة لم يكن هناك مفر من التنمية على أساس التكامل مع الجيران بعد أن ثبت أن التنمية المستقلة في إطار كيانات صغيرة"الدولة"لا يوفر إمكانية النهوض الحضاري الشامل لاسيما في عصر الكيانات الدولية الكبرى ، وفي ظل يقوم البديل البوليفاري من حيث المبدأ على عقد اتفاقيات إقليمية بين دول القارة التي ترى انسجاما بين احتياجها للتكامل مع جيرانها أو التبادل الاقتصادي والتنمية وإقامة التوازن بين هذه المجتمعات وإزالة الفوارق

(اللاتماثل) بينها. وبعبارة أخرى شق درب جديد في التنمية الاقتصادية والاجتماعية يستند إلى تعزيز القطاعات الإنتاجية المحلية والوطنية أي "التنمية من الداخل" كما تسميها وثائق الثورة البوليفارية (مثل الزراعة والصناعة على نقيض "المناطق الصناعية الحرة" أي المحتلة التي تنشأها الشركات المتعددة الجنسية بين كتل من دول أميركا اللاتينية والكاريبي، لدعم النمو والمعروفة عالمياً باسم "ماكيلادورا " والتي لا تسهم في استنهاض القوى المنتجة (الزراعية والصناعية) في البلدان الفقيرة ولا تعالج الأسباب الجذرية للفقر وآليات محوه ،كما أنها لا تعمل على بناء اقتصادات حية ومستديمة. وهذا الاتجاه مأخوذ بدرجة أو أخرى من تطويرات مدرسة النظام العالمي التي تدعو الدول القريبة جغرافياً وذات الأنظمة المتقاربة فكرياً وسياسياً إلى العمل المشترك لتحقيق تنمية متوازنة فيما بينها.

ترفض "ألبا" أساليب التشغيل على نمط "مناطق التجارة الحرة" التي شاعت في البلدان الفقيرة والتي لا تمثل إلا أشكالاً رأسمالية مبتكرة لاستغلال العمال الملونين الفقراء. وعليه، تشجع "ألبا" إقامة مشاريع تشغيلية محلية (وطنية) زراعية وصناعية بحيث تبقى الأرباح في البلاد ويعاد استثمارها في التنمية المحلية بدل تسربها إلى خارج البلاد كما هو حاصل في الدول التي تبنت الخيار الرأسمالي المفتوح.

الفصل الرابع عشر

كوبا..ماذا بعد ؟

فنجان قهوة في صحة كاسترو

مر نصف قرن على الرواية التالية ، استيقظ خوسيه في الصباح وهو في غاية الإرهاق، وخوسيه هذا مواطن كوبي لايختلف عن أي كوبي عاش مع الثورة وفي ظلها، رأسه يشتعل بالأفكار المشوشة، جسده ممتلئ بشظايا الأرق، لايكاد يعرف كيف يتعامل مع التهديد المزمن بالغزو الذي يمارسه الرئيس الأمـيـركي ضـد بلاده،وهو يشك في إمكانيـة أن تنفـذ واشنطن وعيدها، ربما لأنها تعرف النتيجة مسبقا ،لكن الصحف وأجهزة الإعلام المرتبطة بالاحتكارات لاتزال تواصل بث الأخبار عن المهاجرين الكوبيين الفارين من البلاد، ويعيشون في ميامي على بعد تسعين ميلا فقط من الجزيرة المحاصرة ،ولديهم ثروات طائلة ، ويوجهون الإذاعات والمحطات التليفزيونية لحث الكوبيين على الانتفاضة ضد النظام الثوري الحاكم في هافانا ،بقيادة الزعيم فيدل كاسترو ، والذي تعتبره البيت الأبيض العدو الأول لها ، والذي يقع في حديقتها الخلفية مسلحا بأفكار ثورية شابة حتى وهو في الثمانين من عمره خمسون عاما مرت(١٩٥٦-٢٠٠٦) لاشىء تغير باستثناء اسم الرئيس الأميركي الذي يوجه التهديدات، كان اسمه جون كيندي من الحزب الديمقراطي في الستينيات فصار اسمه جورج بوش الابن

من الحزب الجمهوري في ٢٠٠٦،عدا ذلك استقر المشهد اليومي إلى درجة الملل ، جوزيه يستيقظ مرهقا على أنباء انقلاب تخططه واشنطن، وحملات دعائية عن كوبيين عائدين لتحرير الجزيرة من الثورة وزعيمها كاسترو الذي تعتبره واشنطن (قائد الشر) في أميركا اللاتينية،والمدهش هو أن كاسترو استطاع أن يصبح قطبا يجذب إلى مداره ثورات وقيادات لاتينية أخرى في فنزويلا ونيكارجوا والبرازيل وشيلي والإكوادور وبوليفيا، ما يؤشر لهزيمة ساحقة لمشروع الهيمنة الأميركي على القارة.وصار الأب الروحي للثورة ليس في أميركا اللاتينية فحسب بل في العالم كله، وقد أنجب ثوارا يرثونه ويواصلون الحركة الاستقلالية والتنموية بعيدا عن الاحتكارات العالمية والاستثمارات الأميركية لاسيما في مجالات النفط والسلاح والاتصالات.

عندما ولدت الثورة الكوبية عبر مخاض الدم والعرق والدموع كان العالم كله يمر بمرحلة تحرر وطني في دول الجنوب في آسيا وأفريقيا وأميركا اللاتينية،وكان ثمة قطبان دوليان دخلا في حرب باردة قوامها سباق تسلح واستخدام معطيات التكنولوجيا في إنتاج وتخزين أسلحة الدمار الشامل ، والسعي إلى استقطاب الأنصار على امتداد رقعة الشطرنج الدولية في لعبة النفوذ والمطاردة والحصار،وكان طبيعيا أن يظهر تكتل عالمي جديد يعبر عن قلق الشعوب الصغيرة من حمى النفاس النووي، الذي يهدد بحرب كونية تدفع الشعوب البائسة ثمنها ،، وتأكل الأخضر واليابس .

ولا ينسى أبناء هذه المنطقة كيف دفعوا ثمنا غاليا من حريتهم

واستقلالهم ووحدة أراضيهم بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد قسم المنتصرون أملاك الرجل المريض (الخلافة العثمانية) وجاءت اتفاقية سيكس بيكو لترسم خريطة جديدة للوطن العربي ومزقته إلى كيانات صغيرة ، لكي تحول دون أي مشروع وحدوي واستقلالي في المنطقة العربية، وفي تلك المرحلة كانت هناك سيناريوهات أميركية لتقسيم الوطن العربي إلى ٥٢دولة، غير أن لندن وباريس اعتمدتا التقسيم المعروف حاليا .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية بكارثة جديدة، فقد أسس منتجو السلاح وتكرير النفط في أوروبا وأميركا شركة اسمها (إسرائيل) لكي تستنزف الإمكانات العربية في حروب ، وتصرفهم عن متابعة المخططات الاستعمارية وأساليب النهب المنظم لثروات المنطقة ، ولولا ظهور النفط في المنطقة ماتحركت القوى الغربية لإثارة الفتنة ورعاية هذه الشركة المكلفة، ودعمها بأحدث الأسلحة مستغلة التناغم بين الصهيونية والأطماع الرأسمالية، وهذا ما اعترفت به مادلين أولبرايت وزيرة الخارجية الأميركية في عهد كلينتون عندما سئلت لماذا لم تتدخل الإدارة الأميركية لإنقاذ ملايين البشر من المذابح الجماعية في رواندا بينما سارعتم إلى التدخل لإنقاذ الكويت من فم صدام حسين؟ فقالت: لأن رواندا لا يوجد فيها نفط، في الجانب الآخر ، كانت كوبا أول منطقة دخلها نظام الرق١٥١١و كانت أول منطقة تستقبل العبيد الأفارقة الذين جلبهم تجار الرقيق الأسبان في رحلات موت جماعية إلى المستعمرات الجديدة، و كانت قبل الأخيرة في إلغائه١٨٦٦، وصارت هافانا في وقت ما عنوانا لشبكات الدعارة المنظمة وعصابات المافيا

وبيوت القمار التي تديرها يد شركات أميركية كانت ممنوعة من ممارسة تلك النشاطات القذرة في المدن الأميركية ووجدت في هافانا مكانا آمنا، فتحالفت مع حكام تابعين من أمثال "باتيستا" الذي أسقطه الثوار بزعامة كاسترو وجيفارا ١٩٥٦وبدلا من أن تنشط الولايات المتحدة استثماراتها في المجالين الزراعي والصناعي وتفتح أبوابها للثوار الذين يقودون اقرب الجيران ، راحت تمارس حصارا اقتصاديا خانقا اشتكى منه حتى بعض رجال الأعمال الأميركيين الذين وجدوا حكومتهم تقلص فرص الاستثمار المربح في الجزيرة لمصلحة شركات السلاح.

ومثلما وقعت الأمة العربية في براثن الاحتلال العثماني قرابة ٤٠٠سنة والذي طبق أكثر الأساليب استبدادا وتخلفا في الحكم ونهب ثروات المنطقة، وحال دون إقامة نهضة تنموية مستقلة بل وساهم -مع الغرب- في إحباط مشروع محمد على (١٨٠٥-١٨٤٠)الذي تزامن مع انطلاقة النهضة اليابانية ، وبلغت اليابان قمة التطور وصارت قوة عظمى اقتصاديا وعسكريا قبل أن تهزم في الحرب العالمية الثانية، وغرقت الأمة العربية في غياهب الاستبداد الشرقي بطابعه التركي، فقد وقعت كوبا في براثن الاحتلال الاسباني قرابة أربعمائة عاما(١٤٩٢-١٨٩٨) والذي لم تتخلص منه الا بحرب استقلال دامية لتسقط في قبضة الاحتلال الأميركي الذي اندحر بعد الثورة الاشتراكية.وقد سيطرت على الإدارات الأميركية المختلفة فكرة العداء لكوبا ، وإذا كان ذلك مفهوما خلال الحرب الباردة بدعوى أن نظام الرئيس كاسترو متحالف مع الاتحاد السوفيتي، وأنه يشكل تهديدا للأمن القومي الأميركي

بالنظر إلى أزمة خليج الخنازير في مطلع الستينيات من القرن الماضي، فإنه من غير المفهوم استمرار العداء الأميركي والتحرش بكوبا والسعي إلى عمل انقلاب يطيح بالنظام الثوري في هافانا، إلا إذا وضعنا كاسترو في مكانه الصحيح باعتباره أنموذجا يمكن تكراره في القارة اللاتينية ، وهذا ما حصل بالفعل فقد ظل كاسترو مرعبا ومفزعا للإدارات الأميركية المتعاقبة سواء أكانت جمهورية أو ديمقراطية حتى وهو في فراش المرض والشيخوخة ، ورغم بلوغه الثمانين سنة، وانتشار عدد من الأمراض في جسده استدعت أن يكلف شقيقه ورفيق رحلة كفاحه راؤول إدارة الأمور التنفيذية في البلاد إلا أن الاستخبارات المركزية الأميركية ظلت تتآمر عليه وعلى نظامه من دون كلل أو ملل، وظل الأسد العجوز يتنفس ثورة واستقلالا كمحارب يأبى أن يتخلى عن سلاحه وهدفه.

وهكذا ظلت الماكينة الإعلامية الأميركية تعمل في اتجاه التشكيك في مرحلة ما بعد كاسترو ، وتحرض الفئات الاجتماعية والسياسية على التحرك ضد نظام كاسترو الذي فشلت مئات المحاولات للإطاحة به ونظامه وأفكاره، وربما ليس معروفا إلا للقليلين أن الثورة الكوبية على عكس الثورتين الروسية والصينية لم تهتد بأي نظرية مقدما بل وصلت إلى النصر من خلال تبنى مطالب الجماهير سواء على صعيد التغيير الاجتماعي ورفع الظلم عن كاهل الناس أوالمطالب الديمقراطية كبديل للاستبداد والقمع، ومن ثم لم تكن الاشتراكية اختيارا بين الايديلوجيات بقدر ماكانت ضرورة للتغيير والانعتاق، لذلك يلاحظ أن القائمين على

الثورة في كوبا والمستفيدين منها وبالتالي المدافعين عنها من العبيد الذين كان التجار جلبوهم من أفريقيا، ونجحت قيادة كاسترو في تكوين جبهة من العمال والفلاحين والعاطلين صارت جيش الثورة ، وجدارها الاجتماعي وسوف تتصدى هذه الجبهة لمحاولات انقلابية عديدة دبرتها الاستخبارات الأميركية ضد الثورة ، وقدمت تضحيات هائلة دفاعا عن الثورة وقائدها ومبادئها.

ولم تكن صدفة أن كوبا ظلت مخلصة للاشتراكية انطلاقا من شعار روزا لكسمبورج (الاشتراكية او الموضى) فقد أدرك كاسترو أن خطط التنمية التي قادها عبر نصف قرن يمكن أن تتبدد إذا تم تحول فجائي إلى الرأسمالية، وهذا ما حصل في الاتحاد السوفيتي نفسه بعد انقلاب جورباتشوف١٩٨٥إذ صارت البيروسترويكا عنوانا للانفلات والفوضى والفساد، وبرزت طبقة رأسمالية انتهازية ساهمت في إغراق البلاد في الأزمات،ليس في موسكو وحدها، وإنما في كافة العواصم في أوروبا الشرقية التي كانت تنتهج الاشتراكية العلمية كنظرية في التقدم، ومثلما قال ابن خلدون في مقدمته الشهيرة فان النظام المحكم يؤدي حتما إلى الفوضى في حال تفككه.

لقد رفع كاسترو شعاره المعروف (الاشتراكية أو الموت) ودافع عنه دفاعا مستميت انطلاقا من أن ظروف كوبا لاتحتمل العبث الرأسمالي واحتكار فئة قليلة من الناس على الثروة، ورغم الأزمة الرهيبة التي حصلت بعد تخلي روسيا (وريث الاتحاد السوفيتي) عن برامج الاستيراد من كوبا ما

يعني افتقاد كوبا مليارات الدولارات فجأة إلا أن كاسترو أقنع شعبه بضرورة مواصلة العمل لمواجهة هذه الأزمة بنفس الروح التي واجهوا فيها أزمات ومؤامرات سابقة، لعل أهمها المؤامرات الأميركية التي أنفقت عليها واشنطن ملايين الدولارات من أجل إسقاط النظام، وهو محاولته فيما بعد مع الرئيس الفنزويلي هوجو شافيز، وكانت نجحت في عام ١٩٧٣في تدبير مؤامرة ضد الرئيس المنتخب سلفادورالليندي من خلال انقلاب دموي أدى إلى وصول الديكتاتور بونشيه إلى الحكم لينفذ أطماع المصالح الأميركية، ويعتبر بونشيه من أكثر الحكام فسادا عبر التاريخ وهو صناعة أميركية بامتياز.

بطل تراجيدي

لماذا يناصبوننا العداء..نحن لانمتلك أسلحة نووية ولا فوائض مالية وليس لنا أطماع في بلد آخر.. هل سمعتم أن كوبا هاجمت إحدى جيرانها أو غزت دولة أخرى.. هل وصل إلى أسماعكم أننا خططنا لاغتيال احد رؤساء أميركا أم هم الذين يدبرون لنا الشرور؟

أسئلة قالها كاسترو في إحدى خطبه التي تجاوزت ثلاث ساعات وراح يتذكر كيف أن قمة الحضارة الحديثة التي تمثلها الولايات المتحدة انتهت إلى غزو أفغانستان والعراق وتهديد عدد من الدول بينها كوبا بعقوبات متنوعة الأشكال والدرجات.وهو بذلك يردنا إلى العالم الشهير ألبرت اينشتين صاحب نظرية النسبية عندما سئل عن نوعية الأسلحة التي يتوقع

استخدامها في الحرب العالمية الثالثة فأجاب: لست متأكدا من طبيعة أسلحة الحرب العالمية الثالثة، ولكنني لا أشك للحظة واحدة في أن أسلحة الحرب العالمية الرابعة ستكون هي السكاكين والأحذية .إن العالم يتجه إلى مرحلة البربرية بدلا من الليبرالية أو التقدم، بدليل صعود المحافظين الجدد في أميركا بما يمثلونه من أفكار متطرفة .ونظرة فوقية استعلائية لاعلاقة لها بالإنتاج العلمي والثقافي للإنسانية، فقد مارست الإدارات الأميركية المتعاقبة حصارا سياسيا واقتصاديا على كوبا ليس له مبرر إلا أنها انتهجت أيديولوجية مختلفة عن واشنطن، ولكن في مقابل الهمجية الأميركية قدم كاسترو أنموذجا في البساطة والتواضع فضلا عن الصمود والتمسك بالمبادئ، ونجح في الإفلات من عشرات المحاولات للنيل منه ؟، واستفاد كثيرا من خبرة الشعب الكوبي المعلم ، الذي نفذ عدة انتفاضات وثورات ضد الظلم والاستعمار ، وقد كان جولين شاعر كوبا الكبير يعبر عن الشعب عندما قال ، قبل اندلاع الثورة بشهور:

" إن الاستعمار يعتبرنا مصدر تموين لاينضب لجيوشه، وهو بحاجة إلى عرقنا ودمنا، ولكنه لايفهم بماذا نفكر ، فالغيظ يعمي بصره أمام مقاومتنا الغاضبة،فهو لايسمع النشيد الظافر المتصاعد من أعماق محنتنا"

فيدل كاسترو أيقونة عبر الأزمات لكل من يسعى إلى تحقيق الهدف مهما كانت التضحيات ، فهو بلا أطماع شخصية، انطلق مع عدد من رفاقه للهجوم على قاعدة " مونكادا" في ٦يوليو ١٩٥٣،ما الذي دفع كاسترو وشقيقه راؤول إلى تغيير مسار حياتهما والمخاطرة بأرواحهما من اجل

تحرير كوبا من سيطرة العميل " باتيستا"؟

لقد كان في مقدوره أن يصبح محاميا مشهورا يتحصل على دخل كبير ويتمتع بحياة رغدة ، لكنه اختار الطريق الصعب حيث كاد أن يلقى حتفه غير مرة وهو يقاتل في الأحراش مع الثوار ، وقد تعرض للاعتقال ونال أقسى أنواع التعذيب ، ثم تعرض إلى النفي خارج البلاد ، فلماذا اختار كاسترو شظف العيش؟

واقع الحال أن كاسترو لم يرسم لنفسه الطريق الذي مشى فيه فالأقدار هي التي اختارته للمهمة الكبيرة والتاريخية، ولم يكن سوى استجابة إنسانية للحظة النضوج الشعبي في اتجاه حلم الخلاص من الظلم، وعلى طريقة الأبطال الإغريقيين في التراجيديا القديمة سار كاسترو في الطريق بنفس المنهج وبإصرار غريب ،فهذا الرجل لم يترك (البدلة الكاكي) حتى بعد أن صار رئيسا للجمهورية يتوفر لديه ثروة كبيرة لم يمد يده عليها وهو يذكرك بما قاله مايلز كوبلاند مسؤول الاستخبارات الأميركية في الشرق الأوسط في الخمسينيات في كتابه الشهير " لعبة الأمم" عن الزعيم العربي جمال عبد الناصر " خطيئة هذا الرجل انه بلا خطيئة"، فقد تعبت الاستخبارات الأميركية في البحث عن ثغرة إنسانية يمكن إن تتسلل إليه من خلالها من دون جدوى، ويبدو أن تعاليم السيد المسيح قد اختلطت داخله مع الثقافة الماركسية وكونت سياجا أخلاقيا يحميه من الهفوات التي تستغلها الدوائر المحيطة بالحاكم، ومن خلالها تسيطر عليه.

فيدل لم يكن فقيرا فقد كان ينتمي إلى الطبقة الوسطى، لكنه انحاز إلى

الفـقـراء ولـم يكن أمـيـا لكنه تعـاطف مع الأمـيين والمحـرومين وأبناء السـبـيل،وهو ترعـرع في كنف والديه اللذين ينتسبان إلى صـغـار مـلاك الأراضي من المهاجرين الأسبان، تلقى تعليمه في المدرسة التحضيرية ، وفي عام ١٩٤٥ التحق بجامعة هافانا ودرس القانون وتخرج فيها عام ١٩٥٠، ثم عمل كمحام في مكتب محاماة صغير واكتسب خبرة أهلته أن يفكر في الترشيح إلى البرلمان غير أن الانقلاب الذي قاده " باتيستا "أدى إلى إلغاء الانتخابات البرلمانية المزمع عقدها ، وأدرك كاسترو أن لا أمل في التغيير عن طريق البرلمان، لأن الحاكم يستطيع أن يحل البرلمان في أي وقت فهو يتمتع بسلطات مطلقة، وحاول الشاب أن ينظم تظاهرة احتجاجية ضد الاستبداد والديكتاتورية لكن السلطة قمعت التظاهرة بعنف، ودار حوار مع بعض الناشطين شارك فيه أخوه راؤول وانتهى إلى اتفاق بإنشاء خلية للكفاح المسلح.

خمسون عاما من الكفاح المتواصل ، لم يسترح خلالها المحارب كاسترو بل ظل على عناده يصدر المواقف اليسارية القوية ضد الهيمنة والعولمة، وصار الرجل عنوانا للاستقلال الوطني ليس في القارة اللاتينية، وإنما في العالم الثالث كله، والكثير من القادة يعتبرونه القدوة لهم ، ولأن كوبا قاومت المحاولات الأميركية الدائمة لعزلها ، فإن هذا البلد يحافظ على هالة الاستقرار يفتقر إليها العديد من دول أميركا اللاتينية التي سارت في موجة العولمة والاقتصاد الحر، وتعرضت لتقلبات الرأسمالية التي بلاحد، واضطرت إلى الاستدانة من الخارج أكثر من مرة حتى أدمنت الاقتراض،

لكن كوبا التي تعاني اقتصاديا مثل عديد من الدول في العالم الثالث تستطيع أن تفتخر بأنها بلد غير مديون ولا مرتهن للخارج، وبلاشك هناك انتقادات للتجربة الكوبية وهناك أزمات ومشكلات، بل ثمة انتقادات ضد كاسترو باعتباره مازال متمسكا بنظرية سقطت في العالم كله إلا كوبا، ويعتقد مراقبون كُثر أنه إذا غاب كاسترو غابت معه تجربته، ولكن الحقيقة هي أن كاسترو أسس منهجا في الحكم وفي الإدارة وفي القيادة يمكن اختصاره في عدة حقائق بسيطة وهي حقائق كبيرة أهمها الانحياز الدائم للمطحونين والفقراء والسعي إلى رفع مستوى المعيشة لكل فئات الشعب، فهي أكبر بلد في أميركا اللاتينية يصدر الأطباء إلى القارة، وقد انتهت الأمية نهائيا من كوبا وتتمتع الجامعات الكوبية بسمعة طيبة وقد تخرج فيها عشرات الزعماء المشهورين في القارة،وصارت كوبا دولة بارزة على خريطة الرياضة العالمية من خلال عشرات الأبطال الأوليمبيين في الملاكمة والكرة الطائرة وكرة السلة، وليس من شك أن كاسترو دخل التاريخ من بوابة المجد كمناضل من الطراز الأول ، وسوف يظل أسطورة من وزن تيتو ونهرو وماوتسي تونج وعبدالناصر وجيفارا وهم جميعا من قادة التحرر الوطني، الذين انتهجوا التجربة والخطأ لحل مشكلات الواقع والتعاطي معها بحرية وبدون قيود أيديولوجية.

وصحيح أن كاسترو انتهج الماركسية أو الاشتراكية العلمية كنظرية للتطور في كوبا، إلا أنه أدخل عليها تطويرات كثيرة من خلال انغماسه في أرض الواقع، واكتشاف القوانين المحركة للمجتمع الكوبي وفق الثقافة

السائدة والأفكار وحكم السنين، وهذا ما نلمسه في علاقة الاشتباك التي حصلت بينه والكنيسة، فقد ولد لأبوين مسيحيين ومارس الطقوس المسيحية فترة طويلة في شبابه قبل أن يلتحق بالماركسية، وقد أقصته البابوية في الفاتيكان عن المذهب الكاثوليكي في يناير١٩٦٢ باعتباره مرتدا عن الكاثوليكية، لكنه استوعب موقع الدين في حياة الشعوب بعد أن شاهد تعطش الشعب البولندي لرؤية البابا في مطلع التسعينيات ، وكيف أن الشعب البولندي ظل متمسكا بالمسيحية رغم كل الإجراءات التي اتخذتها السلطات الشيوعية الحاكمة على امتداد نصف قرن.

وقد تحسنت علاقته بالبابوية عندما أعطى الحرية للشعب الكوبي في ممارسة الشعائر الدينية، ولم يمانع في انضمام الكاثوليك إلى الحزب الشيوعي الكوبي، وأطلق حرية بناء الكنائس والمساجد ، ولم يمانع في قيام بعض الجماعات الدينية بنشر أفكارها في وسائل الإعلام العامة بينما كان في الماضي يرفض ذلك من منطلقات أيديولوجية ،وهذا ما يؤكد انفتاحه الثقافي والسياسي على الأفكار، واستجابته للانتقادات التي وجهت إلى الحزب الشيوعي الكوبي باعتباره الحزب الوحيد الرسمي في البلاد.

كاسترو ..شاب في الثمانين

صباح الثاني من ديسمبر٢٠٠٦، استيقظت هافانا وأخواتها على أنغام الموسيقات العسكرية التي دشنت العرض العسكري الضخم ، والذي شارك فيه ٣٠٠ الف عسكري ومدني كوبي، وذلك في ختام احتفالات البلاد لمناسبة

بلوغ قائدها فيدل كاسترو الثمانين من عمره.

يوم الاحتفال كان كاسترو يرقد في فراش المرض ليواصل الغياب عن إدارة شؤون الدولة أربعة شهور متواصلة ، وبدا السؤال منطقيا عن مستقبل كوبا بعد زعيمها الكبير.

وجاءت إجابة أولى الشأن من خلال الاطلاع على وجوه المشاركين في الاحتفال ، ثمة ثلاثة رؤساء من دول أميركا اللاتينية وهم البوليفي ايفوموراليس ورئيس نيكارجوا دانيال أورتيجا ورئيس هاييتي رينيه بنعال ، فضلا عن صديق الرئيس الكوبي الكاتب الكولومبي الشهير جبرائيل جارسيا ماركيز، وغاب نجم ساطع هو الرئيس الفنزويلي هوجو شافيز الذي ما كان يمكن أن يغيب لولا أنه يخوض انتخابات رئاسية شرسة في بلاده، وكانت هناك وفود تمثل أغلبية دول القارة مايعكس حضور الزعيم الذي قاد بلاده والقارة إلى الاستقلال والتقدم، والذي يصعب تعويضه على حد قول كارلوس لاجي نائب الرئيس الكوبي الذي قال"لايمكن أن يكون هناك فيدل آخر..لا أحد يستطيع تقليده.. الجميع سيسيرون على نهجه "، أما فيليب بريس روكي وزير الخارجية الكوبي فقال"إن كاسترو سيعود إلى المعركة حتى لو أن أعداء الثورة الكوبية يعدون الدقائق ويتمنون رحيله".

وعندما وجه المرشح الرئاسي في كاراكاس هجوما إلى منافسه شافيز متهما إياه بأنه يسعى إلى نسخ النموذج الكوبي حرفيا، وإقامة ديكتاتورية ذات حزب واحد، رد شافيز بأن ثورة كوبا ليست للتقليد وإنما للاستلهام،وكاسترو نفسه سيكون أول من يوصيني بعدم نسخ النموذج

الكوبي، فكل دولة لها ظروفها ، وكل مرحلة لها معطياتها، وأهم مافي ثورة كاسترو هو إصرارها على الاستقلال ورفض الهيمنة مع الشفافية ومنع الاستغلال ، وهي قيم إنسانية وجدت طريقها إلى التطبيق في أميركا اللاتينية على يد كاسترو.

وفيما كان كاسترو يخوض مرحلة النقاهة بعد عملية جراحية ألزمته الفراش كانت أميركا اللاتينية تتغير أو تواصل التحول في اتجاه المنهج الاستقلالي الذي كرسه كاسترو عبر رحلة كفاح طويلة وصعبة، لقد حقق الرئيس الفنزويلي نجاحا ساحقا في انتخابات الإعادة ، وهو الصديق الصدوق لفيدل كاسترو ، وعاد دانيال أورتيجا إلى الحكم بعد ١٦ سنة من الغياب عن حكم نيكارجوا، وتمكن المناضل اليساري رافئييل كوريا(٤٣سنة) من الفوز في جولة الإعادة في الانتخابات الرئاسية في الإكوادور، متقدما على منافسه الفانوبورا قطب تجارة الموز.

وتوالت انتصارات الاتجاهات الديمقراطية الثورية التي تستلهم خبرة كفاح القائد اللاتيني فيدل كاسترو ومنهجه، الأمر الذي جعله يقترب من رؤية حلمه الكبير في توحيد القارة اللاتينية يتحقق، فقد رفع شافيز شعارات ثورية مناهضة للشيطان الأكبر جورج بوش الابن، وشاركه قادة جدد وصلوا إلى الحكم عن طريق الانتخابات الشفافة، وعبر اختيار جماهير الطبقات الوسطى والكادحة.الراغبة في فرصة تعليم مجاني وفرصة عمل كريمة.

يقول جوزيف كونتريراس المحلل السياسي لمجلة النيوزويك :" كل من

يشك في قيمة اليسار في أميركا اللاتينية ماعليه إلا أن ينظر إلى ماحدث في فنزويلا مؤخرا، حيث فرض الرئيس المحتد هوجو شافيز تغيرات أساسية عدة على علم البلاد مستعينا بمشرعين مطيعين ، وسيتضمن العلم الجديد مدية كبيرة وقوسا ونشابا وفواكه وإزهارا استوائية ، اعترافا بفضل فلاحي البلد، ومنه ستسطع ثمانية نجوم بدلا من سبعة، وقد أضيفت النجمة الأخيرة تكريما لبطل الاستقلال الفنزويلي في القرن الـ ١٩ سيمون بوليفار، والأهم أن الحصان الأبيض الذي كان يواجه اليمين -نحو الماضي- وفقا لشافيز -سوف ينظر الآن إلى اليسار".

ويمضي الكاتب الأميركي:" هذا ما تفعله معظم بلدان المنطقة اليوم، بدءا من البرازيل وصولا إلى بوليفيا، والرمز الذي استفاد أكثر من غيره من المنظور الجديد ليس حصانا إنما الأسد المتربع على عرش اليسار فيدل كاسترو. منذ فترة قريبة كاد القائد الكوبي الذي بلغ الثمانين يفقد نفوذه في الساحة الأميركية اللاتينية ، وإذا نظرنا إلى العام ٢٠٠٢كان شافيز حليفه الوحيد في أميركا اللاتينية، فقد اعتبره جيرانه ديناصورا ستالينيا ولى زمنه ، ولكن منذ ذلك الحين بدأ كاسترو يستعيد مكانته، فشافيز والرئيس البوليفي الجديد ايفوموراليس يمدحانه بشكل علني في خطاباتهما؛ وقد كانت هافانا أول محطة لموراليس في جولته على العواصم الأجنبية بعيد انتخابه حتى الرؤساء الأكثر تقليدية بمن فيهم نيستور كيرشنر من الأرجنتين، ولويز ايناسولولا داسيلفا من البرازيل لم يعودوا خائفين من أن تلتقط الكاميرات صورهم وهم يصافحون الرجل القوي في

الكاريبي ويبتسمون له، وقد قال كاسترو مبتهجا بعد فوز موراليس: إن الخريطة تتغير."

كاسترو الحاضر دائما

وراء التغيرات العديدة التي تشهدها القارة اللاتينية اليوم تبدو صورة كاسترو حاضرا ليس فقط كبطل تراجيدي مثل سبارتاكوس محرر العبيد في روما القيصرية، وإنما كصاحب منهج ورؤية لاتينية خاصة للفكر اليساري صارت ملهمة للثوار، وإن اصطبغت عند الجيل الجديد بنكهة ديمقراطية، لذلك فقوة اليسار في أميركا اللاتينية اليوم لم تعد مرتبطة بشخص كاسترو قدر ارتباطها بمنهج في التغيير والحكم والإدارة رسمه القائد الكوبي وطوره قادة جدد، الأمر الذي اعتبره مراقبون أميركيون " عودة الروح إلى الأسد العجوز " الذي ظل يقاوم العولمة متمسكا بالشعارات اليسارية الأولى أو البكر رغم أن أصحابها الألمان ومن بعدهم الروس هجروها في غمضة عين.

لقد بدأت عودة كاسترو -حسب رؤية مجلة النيوزويك-في ربيع ٢٠٠٥ عندما رفع الاتحاد الأوروبي بإلحاح من رئيس وزراء اسبانيا اليساري خوزيه لويس رودريجز زباتيرو العقوبات الدبلوماسية التي فرضت على كوبا في ربيع ٢٠٠٣ احتجاجا على الحملة لقمع المنشقين في الداخل، وأعادت الحكومات المعتدلة في أورجواي وبنما العلاقات الدبلوماسية الكاملة مع كوبا في وقت لاحق من عام ٢٠٠٥، وأحرز كاسترو انتصارا دبلوماسيا خلال

قمة حديثه لدول الكاريبي الـ ١٥، واصدر القادة الحاضرون بيانا يدعو إدارة بوش إلى ترحيل منفي كوبي مسجون متهم بالتخطيط لتفجير طائرة تابعة للخطوط الكوبية عام ١٩٧٦.

وحتى رئيس يميني مؤيد للإدارة الأميركية مثل رئيس كولومبيا الفارو اوريبي فيليز يرى منافع في وجود علاقة عمل مع كوبا، وقد قبل أواخر عام ٢٠٠٥ بعرض كاسترو استئناف محادثات السلام في هافانا مع إحدى أهم فصائل المقاتلين الماركسيين الكولومبيين.وفي نوفمبر ٢٠٠٥ عرض فيلم وثائقي مؤيد لكوبا بشكل علني موضوعه الحظر التجاري الأميركي في بيونس ايريس بدعم من معهد الأفلام التابع للحكومة الأرجنتينية.

والواقع أن كاسترو استفاد كثيرا من أخطاء الإدارة الأميركية التي وصلت الى درجة الخطايا، يقول جايمي سوكليكي، مدير معهد الدراسات الكوبية في جامعة ميامي:" في العقد الماضي ، لم نركز على أميركا اللاتينية كما يجب.. وكاسترو هو المستفيد الكبير من ذلك"وتقول مجلة النيوزويك الأميركية" لقد أثارت مقاربة إدارة بوش الهجومية في السياسة الخارجية احتقارا عميقا في كل إنحاء المنطقة: واحتراما ممزوجا بالحسد للقائد الذي يعارض أميركا باستمرار".

لقد نجح كاسترو في عبور أزمة اقتصادية شديدة جراء الحصار الأميركي الأوروبي طويل المدى، وكذلك الأزمة المترتبة على التحول في الكتلة الاشتراكية الأوروبية بقيادة روسيا، حيث كانت كوبا تصدر إنتاجها الصناعي والزراعي إلى هذه الكتلة، وانتهج سياسة الاعتماد الذاتي والاكتفاء الذاتي،

وإعادة توظيف الإمكانات الاقتصادية في اتجاه ترشيد الاستهلاك الحكومي والحزبي وإعطاء قدوة للمواطنين في الصبر والتواضع.

وفي دول أميركية أخرى لايرون فائدة في السياسة التجارية التي تروج لها واشنطن بشدة وبداوا يخرجون من السلطة السياسيين المؤيدين لأميركا في الانتخابات المتتالية، عدم رضا إدارة بوش الواضح عن موراليس-خلال محاولته الفاشلة للوصول إلى رئاسة بوليفيا عام ٢٠٠٢- أعطت زخما مؤكدا لحملته في المرة التالية حيث حقق نجاح كاسحا ضد منافسه الموالي للخط الأميركي.

يقول المحلل السياسي البوليفي كارلوس تور انزو:" لقد عزز الأميركيون إلى حد ما مسيرة ايفو السياسية ،إن إدارة بوش غير قادرة على استيعاب التغيرات التي حصلت في القارة".

وفي التغيير الذي حصل في نيكارجوا بعودة حكم الساندينستا ثمة أبعاد متنوعة، محلية وإقليمية مهمة، لأن الثوار الذين فقدوا سلطتهم في زمن انهيار المعسكر الاشتراكي وتراجع المد اليساري، عادوا إليها في زمن تراجع هيبة القطب الأميركي المتفرد وعودة الروح والسلطة إلى اليساريين في معظم أرجاء القارة اللاتينية عبر الصناديق الانتخابية وبمنطق العملية الديمقراطية المعتمدة أميركياً، لقد تعرض النظام اليساري في نيكارجوا بعد استيلائه على السلطة مباشرة إلى حرب أميركية ضارية لم توفر وسيلة لإسقاطه من حرب الكونترا الدموية إلى عمليات التخريب والتدمير إلى الحصار والتجويع، إلى المؤامرات والدسائس الداخلية إلى الدعم المباشر لمرشحي اليمين والتي أدت عام١٩٩٠ إلى هزيمة الساندينيين.

في ظل الظروف الجديدة قاد اورتيجا أنصاره في النضال من موقع المعارضة، وبدون مكابرة تعلموا من دروس تجربتهم في السلطة(السلبيات والإخفاقات) ومن فشلهم في اجتياز تجربتين انتخابيتين لينسجوا منها عناصر الفوز في المعركة الانتخابية الأخيرة.

ولانصرف النظر هنا عن التحول الفكري الذي حصل في جبهة الساندينستا من الماركسية اللينينية إلى اشتراكية ديمقراطية معتدلة، أو أن اورتيجا في نسخته الجديدة استوعب المتغيرات وتفاعل معها بعكس الرئيس الأميركي جورج بوش الابن الذي يرفض أن يتعلم، ويصر- وبخاصة في الشرق الأوسط- أنه على حق والآخرون على خطأ.

وعلى المستوى الإقليمي فإن التطور النيكاراجوي يعني مباشرة أن الولايات المتحدة خسرت موقعا جديدا في مجالها الحيوي الأقرب بحيث تساقطت -كأحجار الدومينو- معظم الأنظمة الموالية لواشنطن في أميركا اللاتينية، وبالتالي فإن حركتها لم تعد مطلقة ولا وصايتها شاملة ولامصالحها مقدسة في القارة، وفي المقابل فإن المعسكر اليساري اللاتيني الجديد قد تعزز بانضمام نيكارجوا إليه، وأن لاعبا ماهرا وصلبا هو اورتيجا قد انضم إلى فريق الثوار في الحديقة الخلفية لأميركا مع زعماء كبار من وزن كاسترو وخليفته شافيز.وكل ذلك يؤشر إلى أن التصاعد مستمر في المشاعر المعادية لسياسة الولايات المتحدة ورموزها ومصالحها والمتداخلة تماما مع المواقف المناهضة للرأسمالية المتوحشة والعولمة الظالمة التي تسود بلدان أميركا الجنوبية وتنتشر في بقية القارات.

دعم الثورات اللاتينية

ومن منطلق التكامل بين الثورة الكوبية وباقي الحركات الاستقلالية في القارة اللاتينية، وباعتبار أن أي مشروع ثوري في القارة مناهض للولايات المتحدة يصب بالضرورة في مدار ومجال الأمن القومي الكوبي عمل كاسترو بدأب على تشجيع ودعم الاتجاهات الثورية ليس في القارة وحدها وإنما في القارة الأفريقية والآسيوية أيضا.

فقد قامت هافانا في ستينيات القرن الماضي بإرسال الأسلحة والعتاد إلى الحركات اليسارية في كولومبيا وبوليفيا وغيرها من البلاد في محاولة لحصار النفوذ الأميركي في كل أنحاء أميركا اللاتينية، وفي سبعينيات القرن الماضي ساند كاسترو الثوار الساندينيين في نيكارجوا، وعام ١٩٨٠ توسط لتوحيد جيوش المنظمات الثورية الخمس في السلفادور التي تقاتل ضد النظام العسكري الحاكم المدعوم من أميركا، وأنجزت كوبا انتصارات مهمة على كافة الأصعدة الثورية، وصار اسم كاسترو في القارة كلها مشفوعا بالمجد والكبرياء، تقول مجلة النيوزويك الأميركية" في ظل الأجواء السياسية السائدة حاليا فإن صورة مع مؤسس اليسار السياسي في أميركا اللاتينية تساهم إلى حد بعيد في إعطاء مصداقية لدى أتباعه، فقد قام الرئيس البرازيلي سيلفا بزيارة غالى كوبا بعد عام واحد من توليه الحكم وفي ظل تدهور شعبيته لأسباب اقتصادية فإن صورته مع كاسترو ساهمت في إعادة ثقة المواطنين فيه.

يقول ويليام ليوجراندي وهو خبير في الشؤون الكوبية ويترأس كلية العلاقات العامة في الجامعة الأميركية في واشنطن" الكثير من هذه

الحكومات المنتخبة كاسترو الزعيم أو الأب الروحي للتقدم والحرية في القارة وسواء اختلفت مع منطلقاته أو اتفقت فلاشك أن كاسترو يتمتع بنوع من الكاريزما التي تثير إعجاب الجميع بما فيهم خصومه فهو قائد من نوع مدهش ، يستطيع أن يسرق قلوب الجماهير بخطبه البسيطة والمسلية التي تستمر عدة ساعات فلايمل الجمهور ولا يغادر قاعة المؤتمر مهما طال الوقت".

ولأن كوبا قاومت المحاولات الأميركية الدائمة لعزلها، فإن البلد يحافظ على هالة استقلال يفتقر إليها الكثير من دول القارة خاصة التي سايرت موجة العالمية أو العولمة، ولايعني ذلك بالضرورة أن تقلد هذه الدول النموذج الكوبي في الاقتصاد حرفيا بل تستلهم منطق الاستقلال بدلا من التبعية ، والاكتفاء الذاتي بدلا من الاستيراد من الخارج، وبالفعل فإن صيت كاسترو في بعض الأوساط اللاتينية ارتكز على موقفه كثيرا وليس على إيديولوجيته خلال الـ ٤٧ عاما التي حكم فيها كوبا بعد أن أطاح بدكتاتور كان يحظى بدعم واشنطن، وأسس تجربة اقتصادية قامت على أكتاف الدولة وهناك من سعى إلى الاستفادة من نموذج كوبا وليس نقله حرفيا وهنا يبدو شافيز الذي أمم قطاع النفط وموراليس أمم قطاع الغاز وكوريا في الإكوادور يمهد لإلغاء اتفاقية التجارة الحرة مع واشنطن لأنها أضرت بحقوق الفلاحين، وهذا كله لايعني إلغاء دور القطاع الخاص في الدول الثلاث السابق ذكرها ، وإنما ترشيد دوره في إطار الاحتياجات الوطنية وليس الارتباطات الخارجية، وقد تكون ميشيل باشيليه عضوا قياديا مخضرمة في الحزب الاشتراكي الشيلي الذي له تاريخ عريض وقدم من

قبل قيادات عظيمة أبرزهم سلفادور الليندي والشاعر بابلونيرودا، لكنها وعدت بعد حفل تنصيبها كأول رئيسة بالمحافظة على سياسات السوق الحرة التي جعلت من شيلي مقصدا للمستثمرين الأجانب إلى بلادها.

وقد اتبع لولا في البرازيل إجراءات اقتصادية متوازنة بين الملكية العامة والنشاط الاقتصادي الخاص، وسددت حكومته أخيرا الديون المستحقة لصندوق النقد الدولي، وحصل نشاط متوازن بين الانفتاح على الخارج والتنمية الداخلية، وقال فرناندو انريكي كاردوزو وهو حاكم البرازيل قبل سيلفا في مذكراته التي صدرت تحت عنوان" رئيس البرازيل العرضي":لا خطر حقيقيا من تكرار النموذج الكوبي في الاقتصاد، إن كل شيء تغير بما في ذلك كوبا نفسها وما كان يمكن تطبيقه بالأمس يستحيل تطبيقه اليوم،وكاسترو الذي قاد اشتراكية ملتزمة هو نفسه الذي يدعو القوى اللاتينية إلى الاستثمار في بلاده إن الاعتماد المتبادل يعني فتح الحدود أمام الاستثمارات".

واقع الحال أن أهل هافانا أدرى بشعابها ، فقد قدم كاسترو أنموذجا جديدا في الطهارة الثورية عندما شن هجوما في خريف ٢٠٠٥ ضد الفساد المستشري في دواوين الحكومة ، وظاهرة السوق السوداء لبيع السلع الاستهلاكية المهربة من الجمعيات التعاونية، وتكوين طبقة من أصحاب الاقتصاد الأسود ، مايعني أن اشتراكية كاسترو لم تنتج مجتمع الملائكة، فالأخطاء رفيق الإنسان في رحلته مهما كان نوع النظام السياسي .ومع ذلك هناك مايشير إلى أن الجدية المشفوعة بالعدالة تنتج انجازات مهمة، فقد ذكر مسئول حكومي كوبي أن إيرادات كوبا من النقد الأجنبي سجلت زيادة بلغت أكثر من ٣مليارات دولار هذا

العام، فيما يرجع بشكل أساس إلى قفزة في صادرات الخدمات.

وقال المسؤول إن ارتفاع أسعار صادرات الأدوية والمستحضرات الطبية، نتجت منه زيادة تبلغ أكثر من ٥٠٠مليون دولار عام ٢٠٠٦ عن صادرات العام الذي سبقه التي بلغت ملياري دولار، فيما قفزت إيرادات الخدمات بأكثر من ملياري و٥٠٠مليون دولار إلى حوالي سبعة مليارات و٥٠٠ مليون دولار وأنفقت كوبا في مايبدو معظم الزيادة في الإيرادات على البنية التحتية وشراء المعدات، ويشمل هذا مليار دولار أنفقت على شبكة للطاقة ومئات الملايين من الدولارات على مشروعات للمياه والمواصلات.

وذكر وزير الاقتصاد والتخطيط الكوبي خوسيه رود ريجز أن الواردات زادت أكثر من ٢٧٪مقارنة بعام ٢٠٠٥ ، وأن معدل النمو في كوبا بلغ ١٢٪مقارنة ب١١٪في العام السابق، على أساس صيغة منقحة محليا، لتقدير القيمة السوقية للخدمات الاجتماعية المجانية والسلع والخدمات الطبية ، ويأتي ذلك في وقت شددت فيه الولايات المتحدة حصارها الاقتصادي على كوبا المضروب منذ خمسة عقود،وكان الناتج المحلي لكوبا قد هبط بنسبة ٣٥٪ عندما انهار الاتحاد السوفيتي في عام ١٩٩٠، مما حرمها دعما هائلا، ونتج عنه نقص في الأغذية والطاقة ووسائل النقل ورؤوس الأموال.

الماركسية في غرفة الإنعاش

في ٣١يوليو ٢٠٠٦ أُدخل كاسترو إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية في الأمعاء، وصدر عنه بيان تلاه مساعده جاء فيه "أنه أجهد نفسه أثناء رحلة

لحضور قمة أميركا اللاتينية في الأرجنتين، وزيارة لمدينة التاجراسيا حيث عاش رفيقه ارنستو تشي جيفارا، والاحتفال بذكرى الهجوم الذي قاده عام ١٩٥٣ على ثكنة عسكرية، وإن الإجهاد سبب له أزمة معوية حادة ، مع نزيف مستمر أجبره على الخضوع لعملية جراحية معقدة".

المراقبون اعتبروا أن حالة فيدل الصحية سر من الأسرار الكبرى، وفسروا ذلك بأن الاستخبارات الأميركية دأبت على تسريب أخبارا كاذبة إلى وسائل الإعلام بغية إحداث ارتباك في الأوضاع الداخلية، وضمن هذه التقارير مانشرته النيوزويك أن كاسترو يعاني داء باركنسون الخطير، لكن كاسترو عاد إلى شعبه يؤكد أن صحته مستقرة وحالته المعنوية جيدة، لكنه يسلم أمر قيادة البلاد إلى رفيق كفاحه شقيقه راؤول(مواليد ١٩٣١)، بما في ذلك قيادة الحزب الشيوعي والقوات المسلحة ورئاسة الوزراء، الأمر الذي يعني استمرار الثورة، وولد سبعة من بين كل عشرة كوبيين في ظل الثورة، وبالتالي هم لايعرفون أي نظام آخر غير النظام الذي شيده كاسترو ،رغم أن الاستخبارات الأميركية سعت إلى تصفية كاسترو جسديا منذ عام ١٩٥٩ وتعرض إثر ذلك لنحو ٦٣٧ محاولة اغتيال . نعم ستمائة محاولة، وهو أكثر زعماء العالم ربما عبر التاريخ تعرضا لمحاولات اغتيال ما يدخله موسوعة جينز للأرقام القياسية، ومعظم هذه المحاولات الفاشلة كانت من تدبير الاستخبارات الأميركية.

وكما هو الشأن بالنسبة لتفاصيل حالته الصحية لايعلم الكوبيون الكثير عن الحياة الأسرية لزعيمهم، سوى أنه مر بثلاث زيجات غير موفقة، وأن ابنه البكر عالم في شؤون الذرة، بينما تعيش ابنته " ألينا" التي فرت من

كوبا عام١٩٩٢ كلاجئة سياسية في اسبانيا، وحاولت الدوائر الإعلامية الأميركية استغلال قصتها للإساءة إلى الزعيم غير أن الشعب الكوبي لم يلتفت إلى هذه النوعية من الدعاية الرمادية المعتادة . وقال رئيس الجمعية الوطنية "البرلمان": أن الزعيم سوف يقاتل المرض والشائعات الأميركية حتى اللحظة الأخيرة، لكن اللحظة الأخيرة بعيدة جدا".

من هو راؤول؟

ولد في عام ١٩٣١ ومر بنفس مراحل مر فيها شقيقه حتى المدارس والجامعة التي طرد منها، ولذلك لم يتمكن من مواصلة الدراسة بسبب النشاط السياسي المعارض، واشترك في الهجوم على قلعة "مونكادا" واعتقل وسجن ونفي مع فيدل، لكن موهبته برزت خلال تشكيل أول منظمة سرية لقيادة الثورة، حيث برزت كفاءته في التخطيط وبناء شبكة الاتصال السرية بين العناصر، ولم تتمكن أجهزة التجسس النظامية اكتشافها أو اختراقها، وتولى مسؤولية إدارة المواصلات المركزية، وكان يقود كتيبة مؤلفة من ٢٠٠ ثائر حملت اسمه، كما كان مسؤولا عن خطة توزيع القوات الفدائية فور النزول إلى الشاطئ الكوبي بعد رحلة المنفى الطويلة، ومن أشهر كلماته" في الماضي القريب كان الاستعمار الأميركي المشرف على اقتصاد أكبر قسم من بلدان أميركا اللاتينية ، وكان يهيمن هيمنة سياسية تامة على مصائر هذه البلدان، أما الآن فلم يعد ذلك ممكنا، إن مثال كوبا أجبر المستعمرين على طرح قفازاتهم الحريرية، وغرز أنيابهم ومخالبهم الدامية في أجساد شعوب أميركا الوسطى.، لقد أكرهت الثورة الكوبية

المستعمرين الأميركيين على طرح قناعهم، ولكن بالإضافة إلى الثورة الكوبية فإن خوفهم وطمعهم في الحفاظ على امتيازاتهم واستثمار الشعوب بجشع أجبراهم على اللجوء إلى تدخلات عسكرية جديدة.

ويتسم راؤول بنوع من الصمت العميق والبعد عن الأضواء والعمل الجماهيري ، وهو يختلف كثيرا عن شقيقه فيدل الموهوب في فن الخطابة.

ويعتبر راؤول من الرعيل الأول الذي فجر الثورة، وشارك في كل معاركها وتعرض للسجن وهو في الثانية والعشرين من عمره، وتعرض للنفي والفصل من الدراسة وهو نموذج للمناضل الحقيقي، وهو أول مساعد لرئيس الحكومة بعد الثورة، والأمين المساعد للحزب الشيوعي الكوبي، وهو منذ بدايات النظام الوزير الصلب للقوات المسلحة الثورية،وهي صمام أمن النظام إذا غاب كاسترو، قال عنه فيدل"بلا شك إنه الرفيق الذي يتمتع بأكبر سلطة بعدي، وبأفضل خبرة، وبالتالي فإنه يتحلى بكل الصفات التي تخوله ليخلفني".

وتحت قيادته أخذ الجيش الكوبي حيزا متزايدا في القطاعات السياسية والاقتصادية وفضلا عن أنه كون جيشا محترفا وعقائديا يؤمن بمبادئ الثورة فإنه أدخل الجيش في منظومة الإنتاج الوطني خاصة في مجال السياحة، حيث شيد عددا من القرى السياحية والفنادق والمستشفيات والمصانع الصغيرة ويقوم بإدارتها بغية توفير موارد مالية للإنفاق على الجيش والمساهمة في زيادة الدخل الوطني.

وينظر إليه المراقبون باعتباره أكثر براجماتية، وهو على اطلاع واسع بالتجارب الاشتراكية في العالم ورغم أنه درس بتمعن تجربتي فيتنام وكوريا

الشمالية، إلا أنه معجب بشكل خاص بالنموذج الصيني الحديث الذي منح مساحات واسعة للقطاع الخاص إلى جانب القطاع العام، وحقق معدلات تنمية غير مسبوقة، ووصل فائض ميزانها التجاري مع واشنطن ١٥ مليار دولار سنويا، وهو لايمانع في توسيع رقعة الاستثمارات المحلية والأجنبية في بلاده إذا لم تكن مربوطة بأهداف أجنبية مشبوهة.

وإزاء واشنطن يفضل راؤول المواجهة والحرب الكلامية، على غرار فيدل مع انه أبدى في بعض الأحيان مؤشرات غير متوقعة على الانفتاح، مثل رغبته المعلنة عام ٢٠٠١ عن إمكانية التطبيع مع واشنطن إذا تخلت عن أهدافها العدوانية ضد بلاده.

ورغم ذلك جاهرت واشنطن بالعداء له قبل أن تعود وتخطب وده، ففي أعقاب الإعلان عن توليه مسؤوليات شقيقه المريض، نفت إدارة الرئيس بوش ما رددته وسائل إعلامية غربية حول فرص تحسين في العلاقات،وقال نوني سنو الناطق باسم البيت الأبيض"محاولة راؤول فرض نفسه على الشعب الكوبي لن يترتب عليها أي فارق بالنسبة لنا" وزاد"لاخطط لدينا للاتصال بهم إلا إذا تغيروا" وبطبيعة الحال فإن التغيير الذي تريده واشنطن هو الانحراف بالثورة صوب البيت الأبيض.هل هذا وارد؟

لا أعتقد أن تغييرا دراماتيكيا يمكن أن يحدث في كوبا على غرار الدول التي تنقلب من اليسار إلى اليمين بمجرد غياب الزعيم، ونستند هنا على عدة معطيات هي:

١-أن النظام السياسي الذي رسمه كاسترو يستند إلى قاعدة عريضة من

المواطنين الذين تربوا في أحضان الثورة وعاشوا على إنجازاتها هناك جيل بلغ الخمسين من العمر تفتحت عيونه على الثورة ومن الصعب أن يدير ظهره لها بمجرد غياب القائد.

٢-أن الحزب القائد في هافانا وهو الحزب الشيوعي استفاد من أخطاء الآخرين، وسعى إلى الانفتاح على المعارضة، والتسامح مع السجناء السياسيين ، وهكذا يمكن أن نفهم قرار الإفراج عن هيكتوربالاثيوس بعد ٣سنوات من سجنه وقبل ٢٢سنة من انتهاء العقوبة وهو قرار يشجع على الاعتقاد بأن الانفتاح السياسي في كوبا ليس شعارات من ورق بل إجراءات واقعية.

٣-هناك قوى إقليمية وزعامات تسير على نفس خط كاسترو وهم أولاده في القارة وأبرزهم شافيز الذي أعلن دعمه لكوبا في كل الأوقات، وهو الصديق والابن المخلص لكاسترو، بمعنى أن المحيط الإقليمي لكوبا حاضنة "للكاستروية" سواء على الصعيد السياسي الذي يحبط أي مؤامرات خارجية أو على صعيد الإجراءات والاتفاقات التي تجبر أي نظام سياسي على احترامها لأنها اتفاقات دولية من جهة وتحقق مصلحة الشعب من جهة أخرى ونقصد هنا اتفاقية(الالبا) أو ما يسمى البديل البوليفاري.

٤- أن المعارضة الكوبية التي تقيم على الأرض الأميركية وتحظى برعاية الاستخبارات الأميركية لاتثق في أميركا ووعودها ، وهم يدركون أن العودة بكوبا إلى الصفر أمر مستحيل ،فمنذ عشر سنوات عقدت حركة" الحواريين" ندوات واجتماعات وتوصلت إلى ما أطلق عليه تسمية" الوفاق الكوبي" وأكد ممثلو هافانا ميامي(حيث تقيم كوادر المعارضة) احترامهم للوفاق الوطني

الذي يرفض أي تدخل أجنبي في شؤون البلاد.

٥-يدرك الأميركيون اليوم أكثر من أي وقت مضى أن التدخل في شؤون الدول تحت أي مبرر لايحقق سوى المزيد من الخراب، ولديهم تجربة مرة في العراق وأفغانستان ولن يصدقهم العالم ولا الشعب الأميركي نفسه إذا ساقوا أي مبرر للتدخل في كوبا لذلك بادروا إلى تخيف اللهجة العدائية ضد النظام في كوبا ،وأهمية تحقيق انفراجة مع نظام لم يركع طوال نصف قرن تقريبا من الحصار الشامل ولم يغير مبادئه رغم أن الاتحاد السوفيتي الذي كان الزعيم الملهم قد تغير،وبالتالي تعالت الأصوات في وزارة الخارجية الأميركية وفي الكونجرس بأهمية تغيير عقلية راعي البقر في التعاطي مع القيادة الكوبية.

وقد ظهرت بوادر هذا الانفراج ،بعد أن أعلن راؤول من خلال خطاب ألقاه في عرض عسكري أن الخلاف بين أمريكا وكوبا يجب إن يحل على طاولة المفاوضات ...وكأن واشنطن كانت تنتظر هذه الإشارة حيث أسرع وفد من١٠من نواب الكونجرس من الديمقراطيين والجمهوريين بالسفر إلى كوبا في زيارة أكدوا خلالها على أن لواشنطن مصالح مهمة في كوبا رغم الاختلافات الكبيرة بين الدولتين... وأن إدارة بوش يجب أن تعدل سياستها تجاه الدولة الشيوعية بعد أن اثبتت العقوبات الأمريكية عدم الجدوى.

وأن الفرصة مهيأة بعد غياب كاسترو لعودة هذه العلاقات أو على الأقل توسيع التجارة الزراعية مع كوبا والتي سوف يستفيد منها المزارعون الأمريكيون.

في الوقت نفسه فقد بدأ الحديث داخل كوبا حول فترة ما بعد كاسترو... وبدأت التساؤلات تدور حول قدرة القيادات التي سوف تخلف كاسترو على ملء فراغ القائد التاريخي ويتفق المراقبون على صعوبة توفير قائد يتمتع بالجاذبية والطاقة التي يتمتع بها كاسترو، لكنهم في الوقت نفسه يأملون في خبرة راؤول وكبار جنرالات الجيش في تطبيق نفس منهج كاسترو ونظرياته الاستقلالية حتى وإن اختلفت الأساليب، ففي نهاية الأمر سوف يخلف كاسترو إنسان له ثقافته الخاصة حتى لو كان هذا الإنسان هو اقرب الناس إليه، أي راؤول.

وكان راؤول قد أبدى اهتماماً بتطبيق النموذج الصيني في كوبا ، والذي يهيئ الفرصة لتحرير الاقتصاد من أجل تحقيق التنمية في نفس الوقت الذي تقيد فيه السلطات السياسة في أيدي الحزب الشيوعي.. وعلى ذلك سوف تقرر كوبا عبر حوارات ديمقراطية انتشرت في الحزب وخارجه ما إذا كانت ستسير على الدرب، ورغم أن هناك توقعات قوية من داخل كوبا بقدرة النظام الكوبي على البقاء بعد رحيل كاسترو... إلا أن هذه التوقعات لا تستبعد حدوث تغييرات في سياسات كوبا الاقتصادية أو السياسة... خاصة أن واشنطن تضع كوبا في دائرة الاهتمام حالياً.

وكانت إدارة بوش قد جددت عرضها في يوليو ٢٠٠٦بعد مرض كاسترو مباشرة- حول رفع الحصار التجاري المفروض على البلاد مقابل التزام هافانا بالقيام بإصلاحات ديمقراطية.،وهو تعبير لم يعد له معنى أو جدوى بعد أن اكتشف العالم كله أن الإصلاحات التي تطلبها أميركا هي بوابة

الدخول إلى جهنم.

ورغم أن العرض الذي تقدمت به واشنطن لم يحمل جديداً عما قدمته منذ أربع سنوات...إلا أن توقيت عرضه جعله يحمل دلالات مهمة ,لأنه جاء بعد تخلى كاسترو عن السلطة لأول مرة مؤقتا لصالح شقيقه راؤول.

وقد تضمن العرض الأمريكي رفع الحصار المفروض على كوبا منذ ٤٤عاماً مقابل تطبيق عدد من الإصلاحات منها تكوين أحزاب سياسية وإجراء انتخابات وإطلاق سراح المسجونين السياسيين ومطالب أخرى.

تقدمت واشنطن بهذا العرض بعد أن أعلن راؤول أن كوبا مستعدة للبحث في تحسين العلاقات مع واشنطن إذا وافقت على عدم التدخل في الشؤون الداخلية لهافانا.. في نفس الوقت الذي حذر فيه من أن كوبا سوف تظل مستعدة لمواجهة أي غزو أمريكي محتمل للجزيرة، لكن كما اشرنا سابقا فإن آلية غزو كوبا مستبعدة تماما بعد النتائج الكارثية لغزو العراق.

لكن يظل احتمال أن تقوم الإدارات الأمريكية بتنشيط المعارضة الكوبية كآلية ضغط على النظام بعد كاسترو لابتزازه لتقديم تنازلات وهو المنهج الذي اعتمدته حكومات واشنطن المتعاقبة على امتداد نصف قرن حيث قدمت ملايين الدولارات لدعم المعارضة الكوبية وإسقاط نظام الحكم الكوبي ، إلا أنها فشلت في تحقيق أي تقدم في هذا الطريق.. ومع ذلك بدأت تتحرك في يوليو ٢٠٠٦في إحياء هذا الأسلوب مرة أخرى من خلال ما أطلقت عليه خطة "تعزيز الديمقراطية في كوبا" من خلال صندوق رأسماله ٨٠ مليون دولار لتمويل الجهود الرامية إلى استبدال النظام في هافانا ,بناء

على خطة أو مقترحات لجنة دراسة أمريكية برئاسة كوندراليزا رايس وزيرة الخارجية وكارلوس جونيريز وزير التجارة الأمريكي حملت عنوان " كوبا بعد كاسترو" في كوبا ، وتسربت أنباء عن سيناريو تحاول واشنطن تطبيقه هو عدم تحقيق انتقال هادئ للسلطة ،وقد عينت إدارة بوش شخصاً يدعى "كالب ماكري" منسقاً للانتقال في كوبا وهو خبير في إثارة الفوضى والتفجيرات في أميركا اللاتينية وعمل مستشارا لفرق الموت في كولومبيا مع نجروبونتي، وقدمت له ميزانية قدرها ٥٩ مليون دولار لتسريع عمليات انتقال السلطة في كوبا وضمان ألا يتولى السلطة هناك بعد رحيل كاسترو أي من الشخصيات الموجودة حالياً مثل راؤول أو كارلوس لاجي نائب الرئيس أو بيريز روكي وزير الخارجية.

في المقابل شرع راؤول فور تسلمه السلطة من أخيه في تطبيق خطة إستراتيجية ضد أي تدخل أجنبي تضمنت تعبئة القوات المسلحة ،وعشرات الآلاف من جنود الاحتياط وعشرات آلاف شباب الميليشيات المتطوعين خوفاً من أي غزو أمريكي محتمل لكوبا بعد مرض كاسترو أو رحيله وتم تدريب ١٥٠ألف شاب على العمليات الاستشهادية وتفجير العبوات الناسفة على الطرقات، وهي خبرات مكتسبة من المقاومة في العراق...ويبدو أن راؤول والحزب والجيش استعادوا شعارا عربيا يقول" نسالم من يسالمنا ونعادي من يعادينا".

الفصل الخامس عشر

الوثائق والشهادات والصور



جبهة عريضة من المثقفين تندد بالمناورة التي تحيكها الولايات المتحدة الأمريكية ضد كوبا

مئتان ونيف من الكتاب والفنانين والأكاديميين والمفكرين يمثلون٢٢ بلدا"، من أمريكا اللاتينية وأوروبا وآسيا وأمريكا الشمالية، عبروا عن شديد استنكارهم لمساعي حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الرامية من خلال الضغط والابتزاز إلى استصدار قرار مغاير لكوبا في إطار الاقتراع السنوي للجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة والمجتمعة في مدينة جنيف السويسرية.

جاء في بيان بعنوان ألا فلنوقف المناورة الجديدة ضد كوبا، تم نشره بصورة آنية يوم الإثنين الماضي في أهم وسائل الإعلام بكل من إسبانيا والمكسيك و الأرجنتين، كما تم عرضه في هافانا على يد الشاعر الكوبي روبرتو فرنانديز ريتامار، والكاتب الأرجنتيني ميغيل بوناسو،وذلك خلال ندوة صحفية دعت إليها المنظمة الثقافية دارة الأمريكتين.

ولقد أجمع موقعو البيان على التأكيد بأن الولايات المتحدة الأمريكية تفتقر الى السلطة المعنوية ولأي صلاحية تؤهلها لمحاكمة كوبا فيما يتعلق بحقوق الإنسان. وفي الوقت نفسه فهم يلفتون انتباه الحكومات الأعضاء في لجنة حقوق الإنسان داعينها الى الامتناع - من خلال التصويت - عن إضفاء الصبغة الشرعية على عدوانية إدارة بوش التي تستهدف كوبا .

نص النداء

ألا فلنوقف المناورة الجديدة ضد كوبا خلال الفترة من ١٤ آذار ولغاية ٢٢ نيسان ٢٠٠٥ تشهد مدينة جنيف انعقاد الدورة الحادية والستين لجلسات لجنة حقوق الإنسان التابعة لهيئة الأمم المتحدة حيث تقوم حكومة الولايات المتحدة مرة أخرى بممارسة الضغوط على الدول الأعضاء في محاولة منها لفرض قرار مناهض لكوبا.

إنها عملية مدبرة وانتقائية تتعلق بالموضوع وهدفها تبرير التصعيد لسياسة الحصار والاعتداءات المتعارضة والقانون الدولي والممارسة من قبل الدولة العظمى الأولى على وجه الأرض ضد بلد صغير.

على اللجنة أن تكون ممثلة لكل الشعوب المنتسبة إلى الأمم المتحدة وأن تحرص على احترام حقوق كل إنسان رجلا" كان أم امراة على وجه البسيطة. وهنا لا بد من التنويه بأمر له مغزاه وهو أن اللجنة لم تتمكن في دورتها السابقة من إجراء أي تقييم بل ولم تستطع مناقشة الانتهاكات الرهيبة لحقوق الإنسان التي تقع في سجني أبو غريب وغوانتانامو الأميركيين.

إن حكومة الولايات المتحدة لاتملك السلطة المعنوية كيما تنصب نفسها قاضيا" لحقوق الإنسان في كوبا البلد الذي لم يشهد أيا" من حالات الاختفاء أو التعذيب أو الإعدام خارج إطار القضاء والذي لم تمنعه ظروف الحصار من تسجيل مؤشرات معترف بها دوليا" في مجالات الصحة والتربية والثقافة .

إننا نهيب بحكومات البلدان الممثلة في اللجنة كي لا تسمح باستخدام

هذه الهيئة الدولية أداة لشرعنة عدوانية إدارة بوش ضد كوبا ، في هذه اللحظات حيث سياسة الحرب التي تعتنقها واشنطن توحي باحتمال وقوع تصعيد عواقبه بالغة الخطورة . وإننا أيضا" لندعو الصحفيين والكتاب والفنانين والمربين والأساتذة وسائر النشطاء الاجتماعيين للتوجه - مستعينين بكل الطرق الممكنة- الى الحكومات المذكورة تعبيرا" عن رغبتهم بإيقاف هذه المناورة الخطيرة والخطرة .

خطاب رئيس جمهورية كوبا فيدل كاسترو لرئيس جمهورية فنزويلا البوليفارية هوغو شافيز

الرئيس هوغو شافيز العزيز؛

أعزائي أعضاء الوفدين الفنزويلي والكوبي؛

أعزائي المشاركون في هذا الحفل العظيم؛

يا أبناء وطننا الأعزاء:

إن هذا اليوم هو يوم تاريخي وذو مغزى خاص، يوم تسليم الرئيس الفنزويلي الجائزة الدولية لمنظمة الأمم المتحدة، "خوسيه مارتيه".

ما الذي يتبادر إلى ذهني في هذه اللحظة المؤثرة؟ قبل سبع سنوات ويوم واحد من الآن، في الثاني من شباط/فبراير ١٩٩٩، تشرّفت بالمشاركة في مراسم تولّي الرئيس الفنزويلي الجديد، هوغو شافيز فرياس، لمنصبه (تصفيق). كنت قد تعرّفت إليه قبل خمس سنوات تقريباً من ذلك الموعد، فقد كان قد قام بزيارتنا بعد خروجه من السجن، وذلك في كانون الأول/ديسمبر ١٩٩٤ فتعرّفنا إلى بعضنا على نحو وثيق وتبادلنا وجهات النظر حول مواضيع كثيرة تتفق آراؤنا كثيراً بشأنها ونشعر بشغف كبير بها. تحدثنا عن المستقبل، ولكن كان يصعب علينا أن نتصوّر أنه خلال فترة تاريخية تبلغ كل ما تبلغه من القصر سيكون هوغو شافيز قد تولّى منصبه كرئيس لفنزويلا سيمون بوليفار المجيدة (تصفيق).

في تلك المناسبة، أكد بجرأة: "أقسم أمام هذا الدستور الذي يحتضر"، وهي عبارة صَنَعت تاريخاً.

من الفقرات التي قالها في ذلك اليوم حرفياً: "هناك أرقام تتعلق بالبطالة تشير إلى وجود عشرين بالمائة منها، وهناك نسبه من البطالة الموسميّة تصل إلى حوالي الخمسين بالمائة من قوة العمل النشيطة اقتصادياً، ويوجد نحو مليون طفل في حالة بحث عن لقمة العيش، أطفال مثل ابنتي روسينيس، البالغة من العمر سنة وأربعة أشهر، في حالة من البحث عن لقمة العيش. تبلغ نسبة الوفيات بين الأطفال في فنزويلا من ٢٧ إلى ٢٨ بين كل ألف مولود حي، من أكثرها ارتفاعاً في القارة. يصل تأثير سوء التغذية على وفيات الأطفال إلى ما نسبته ١٥ بالمائة من الأطفال الذين يموتون، وسبب الموت: سوء التغذية، لا يمكننا أن نتوقع تشكيل مجلس دستوري لهذا الغرض".

- إنه لأمر وحشي أن نعرف أن واحداً فقط من بين كل خمسة أطفال يدخلون إلى مرحلة الروضة من مراحل التعليم، واحد فقط من كل خمسة ينهي تعليمه الابتدائي، وهذا هو أمر همجي لأنه يتعلق بمستقبل البلاد.

-٤٥ بالمائة من الشبان ليسوا في المدارس المتوسطة، إنهم يبحثون عن لقمة العيش هنا وهناك، وكثيرون منهم يمارسون قطع الطرق في سبيل البقاء، لأن الإنسان ليس سيئاً بطبيعته، فنحن أبناء الله، ولسنا أبناء الشيطان (تصفيق). هذا الوضع أتلقاه أنا هنا، إنه هنا بين يديَّ، وهو عبارة عن تراكم كل تلك الأزمات التي نوّهت إليها قبل بضع دقائق من الآن".

كلماته في ذلك اليوم، الثاني من شباط/فبراير، كان لها أثر عميق جداً عندي. كان من واجبي أن أرتاد بعد ذلك بثمان وأربعين ساعة إلى جامعة فنزويلا المركزية، حيث كنت قد تكلمت إلى الطلاب قبل أربعين عاماً وعشرة أيام من ذلك الموعد، في الرابع والعشرين من كانون الثاني/يناير ١٩٥٩.

بعض المعلومات والمعطيات التي كان يعرفها هذا الزائر حملته إلى الاستنتاج بأن على الشعب الفنزويلي أن يواجه بشجاعة وذكاء صعوبات كبيرة، في هذا الشروق الجديد، يترتّب عليها الوضع الاقتصادي والاجتماعي الذي كان هذه الشعب البطل قد وقع فيه.

لقد ذكرت فقرات وأرقاما نسختها اليوم حرفياً من الخطاب الذي ألقيته في ذلك اليوم، الثالث من شباط/فبراير، قبل سبع سنوات من اليوم.

"الصادرات من السلع: استناداً إلى تقرير المصرف المركزي الفنزويلي:

في عام ١٩٩٧: ٢٣٤٠٠ مليون دولار، الصادرات.

في عام ١٩٩٨: ١٧٣٢٠ مليون. قيمة الصادرات انخفضت خلال سنة واحدة فقط ٦٠٨٠ مليون دولار.

النفط (قطاع التصدير الرئيسي). الأسعار: ١٩٩٦: ٢٠ دولار للبرميل؛ ١٩٩٧: ١٦,٥٠ دولار للبرميل؛ ١٩٩٨: ٩ دولارات. عشية توليه لمقاليد الرئاسة.

المعادن الرئيسية: الحديد، الألمنيوم، الذهب ومنتجات مشتقة منها مثل الفولاذ، انخفضت أسعارها جميعاً بشكل ملموس وبدرجات متفاوتة. يشكل كلا القطاعين ٧٧ بالمائة من الصادرات. أي النفط والمعادن.

الميزان التجاري:

١٩٩٦ - ١٣٦٠٠ مليون دولار.

١٩٩٨ - ٣٤٠٠ مليون. هذا هو ما كانوا تلقّوه خلال سنة واحدة وما تلقوه في السنة السابقة، حوالي الثلث.

الفارق: ١٠٢٠٠ مليون خلال سنتين فقط.

ميزان المدفوعات، فصل آخر:

١٩٩٦ - ٧٠٠٠ مليون لصالح فنزويلا.

١٩٩٨ - ٣٤١٨ عجز على البلاد.

الاحتياط الدولي المتوفّر:

١٩٩٧: ١٧٨١٨ مليون.

١٩٩٨: ١٤٣٨٥ مليون دولار". الاحتياط نحو الأسفل، وهو ما كان على وشك التكرار على نحو خطير بعد الانقلاب النفطي وفي موعد لاحق لانقلاب الحادي عشر من نيسان/أبريل ٢٠٠٣ نعم، لأن هذا الانخفاض الحاد أتى في العام التالي، عام ٢٠٠٣؛ أي أن انخفاض الاحتياط، وبسرعة مذهلة، أظن أنه قد دنا من الـ ١٣٠٠٠ مليون خلال الفصل الأول من تلك السنة، وبدون شك أنه بعد أشهر قليلة من ذلك كان يمكنه أن يصل إلى صفر. حتى تلك اللحظة كان بعضهم قد تمكن من إخراج ٣٠٠ ألف مليون دولار من فنزويلا، تصل قيمتها اليوم إلى حوالي بليوني دولار، وهو مبلغ أكثر من كافٍ لتحقيق نمو متسارع في كل القارة، وخاصة إذا كان هذا النمو عقلانياً وليس نواً استهلاكياً ومسرفاً.

الخسائر الصافية: ٣٥٠٠ مليون تقريباً خلال سنة واحدة.

الديون الخارجية:

قلنا آنذاك أن "نحو ٤٠ بالمائة من ميزانية البلاد تُنفَق على خدمة الديون الخارجية". وهذه الأرقام هي أرقام دولية.

الوضع الاجتماعي استناداً لمصادر مختلفة محلية ودوليّة.

البطالة: تتحدث أرقام رسمية عمّا نسبته ١١ و١٢ بالمائة. وهناك أرقام أخرى تتحدث عن عشرين بالمائة. وبعد الانقلاب الحكومي ومعه الانقلاب النفطي ارتفعت هذه الأرقام إلى أكثر من عشرين بالمائة، بينما كانت هذه المؤشرات على البطالة آخذة بالانخفاض إلى ما نسبته ١٠ أو ٩ بالمائة.

البطالة الموسمية تصل إلى حوالي ٥٠ بالمائة.

حوالي مليون طفل هم في حالة بحث عن لقمة العيش"، كما سبق وذكر الرئيس. وكان ذلك يثبُت في المعطيات الإحصائية لتلك الفترة.

"نسبة الوفيات بين الأطفال تبلغ حوالي ٢٨ بالمائة مقابل كل ألف مولود حي. يتمثل سبب وفاة ١٥ بالمائة منهم بسوء التغذية". الحقيقة أنها كانت تعود إلى سوء التغذية.

"واحد فقط من بين كل خمسة أطفال ينجزون مرحلة التعليم الابتدائية"، معلومة أخرى صحيحة، عبّر عنها يوم تولّيه للمنصب؛ "٤٥ بالمائة من الشبان غير مسجّلين في المدارس المتوسطة". وفي ذلك الموعد كنّا نحن قد بلغنا نسبة تزيد عن التسعين بالمائة. من كان سيحدّثنا عن هذه المشكلات؟ كيف كان بإمكاننا أن نتجاهلها بعدما كنّا قد قضينا سنوات كثيرة ونحن نحاول خفض تلك النسبة، منذ انتصار الثورة وحتى الوقت الراهن،

وهي عملياً نسبة المائة بالمائة، وهو ما أصبحت عليه عملياً الآن تقريباً، أو آخذة بأن تكون كذلك في فنزويلا.

وقلنا: "إن نسبة ٤٥ بالمائة من الغائبين عن المدرسة هي نسبة مدهشة في الحقيقة".

وأضفنا: "أكثر من مليون طفل يلتحقون بسوق العمل وأكثر من ٢,٣ مليون، مستثنيين من النظام المدرسي، لا يتمتعون بأي مهنة كانت.

خلال السنوات العشر الأخيرة" -قلنا، وهو ما كنّا قد قرأناه قبل توجهنا إلى فنزويلا-، "أكثر من مليون فنزويلي تتكون منهم الطبقة المتوسطة تصنيف 'ج'، انتقلوا إلى تصنيف الفقراء والمعوزين، الذي تصل نسبة أبنائه اليوم إلى ٧٧ بالمائة من المواطنين بسبب انخفاض المداخيل والبطالة وآثار التضخّم".

كان هذا يحدث في الوطن الأصلي لسيمون بوليفار، البلد الأغنى بالموارد الطبيعية في أمريكا اللاتينية، البالغة مساحته نحو نصف مليون كيلومتر مربّع ولا يزيد عدد سكانه عن ٢٢ مليون نسمة". لم تكن هي بالبرازيل من حيث المساحة وعدد السكان".

وقلت في النهاية، بحذر شديد، لكي لا تُفسَّر أقوالي على أنها تدخل بالشؤون الداخلية: "أجرى هذا الإمعان وأتحمل المسؤولية الكاملة والمطلقة عنه، على أمل أن يكون مفيداً".

كيف كان بوسعنا أن نستوعب فكرة تكرارنا يوماً ما، بعد ذلك بسبع سنوات، لما حدث هناك ولما حدث خلال هذه السنوات السبع في فنزويلا.

يمكن تماماً إدراك الاهتمام الهائل الذي منحته العملية البوليفارية للمدارس البوليفارية أولاً، وهي مدارس جيّدة التجهيز، بكل الموارد، والتي انتهت إلى استقبال كل أولئك الأطفال الذين كانوا مستثنَين من النظام المدرسي، وما زال جارياً بناء هذه المدارس والارتقاء بها على وجه السرعة. وهذه الحركة آخذة بالوصول أيضاً إلى ما نسميه في كوبا مرحلة التعليم المتوسط في المدارس البوليفارية، وهناك مشاريع إضافية هامة في هذا الميدان. لقد سمعت أرقاماً عن إقامة نحو ألف مدرسة ثانوية أيضاً، على درجة رائعة من التجهيز، وهو أمر يبعث الإعجاب في الواقع.

حسناً، كان هذا خلال الآونة الأولى، ولكنها جاءت بعد ذلك الأحداث التي لم تقع في أماكن أخرى، والتي أفسحت في المجال أمام منح جائزة "خوسيه مارتيه" هذه، المحقّة تماماً ولا تدع أي مجال للشك.

● في الثامن والعشرين من تشرين الأول/أكتوبر ٢٠٠٥، وبعد كفاح شديد المراس، تكللت حملة محو الأميّة وأُعلنت فنزويلا أرضاً خالية من الأمية. منذ أواسط عام ٢٠٠٣، بعد سنة وثلاثة أشهر من الانقلاب الحكومي في ١١ نيسان/أبريل، وثمانية أشهر من الانقلاب النفطي، كانت بدأت "حملة محو الأمية"؛ وفي تلك اللحظة بالكاد كان قد مر ثلاثة أشهر على وجود العملية البوليفارية في السلطة، منذ اليوم الذي أدّى فيه الرئيس القسم على ذلك الدستور المحتضِر.

●عدد الأشخاص الذين تم تعليمهم القراءة والكتابة حتى ذلك اليوم: مليون و٤٨٢ ألفاً و٥٣٣، كان ما يزال هناك آلاف قليلة بانتظار إنجاز دورتهم

التعليمية.

● يوم الجمعة الموافق ٢٧ كانون الثاني/يناير ٢٠٠٦ وصل إلى الصف السادس الأشخاص الـ ٤٣٢ الأوائل من الملتحقين بمهمة روبينسون-٢ لتحصيل الصف السادس.

● يلتحق بتلك المهمة -في بلدٍ لم يعد يوجد فيه أميّة، من خلال حملة جادّة منتظمة، وعبر إجراء امتحانات- مليون و٤٤٩ ألفاً و٢٩٢ طالباً؛ أتى ٦١٦ ألف و٨٣٣ منهم من مهمة روبينسون.

● سيتخرج من هذا المستوى التعليمي خلال العام الحالي ٢٠٠٦ مليون طالب -وهم طلاب كانوا أميّين أو شبه أميّين؛ أو على الأصح أشخاص لم يكونوا طلاباً وأصبحوا كذلك.

● من المتوقع انضمام ٥٠٠ ألف آخرون خلال عام ٢٠٠٧ إلى عدد خريجي هذا المستوى.

● من خلال "مهمة ريباس" لإنجاز مرحلة التعليم الثانوية، حقق ذلك حتى الآن ١٦٢ ألفا و٥٤٣ مواطنا بالغ سن الرشد. وجميعنا نعرف بأنه يتواجد هنا قيد التأهُّل أو يتلقى علوماً بالطب ما يزيد بقليل عن ٣٤٠٠ طالب فنزويلي قادمين من "مهمة ريباس". فليرفعوا الرايات (يرفع الطلاب الرايات ويهتفون: "كوبا وفنزويلا، بلد واحد، علم واحد!")

● يتلقى العلوم حالياً من خلال "مهمة ريباس"، حسب المعطيات المتوفّرة، ٦٠٢ ألف و٥٠٢ طالب، سينجز علوم المرحلة الثانوية منهم خلال هذه السنة نفسها نحو ٥٠٠ ألف طالب.

● التحق "بمهمة سوكري"، وهي مستوى تعليمي أعلى من مستوى "مهمة ريباس"، ٥١٣ ألف و٥٦٨ فنزويليا، أنجز "برنامج الشروع بالدراسة الجامعية" منهم ٤١٦ ألف و٧٦٩ طالبا.

● يلتحق ٣١٠ آلاف و١٩٢ منهم ببرامجهم الدراسية الجامعية.

● أن من بين الفنزويليين الذين يجتازون مرحلة التعليم العالي، هناك ١٥ ألفا و٣٩٢ يدرسون الطب التكاملي الاجتماعي في إطار "مهمة الحيّ الداخلي" (هتافات).

لقد ذكرت بأن ما يزيد بقليل عن ٣٤٠٠ طالب يتلقون علوم الطب في كوبا في إطار البرنامج الجديد (هتافات) وذلك بآفاق هائلة نظراً للمناهج والخبرة والأساتذة، وهو أمر جديد على الإطلاق، كما هو عليه حال تحوُّل "مهمة الحي الداخلي" إلى جامعة هائلة على مستوى فنزويلا كلها. وهذا هو أمر جديد على الإطلاق في تاريخ البشرية والسبيل الوحيد لتأهيل الأطباء الذين يحتاجهم العالم الثالث، المكوّن من آلاف الملايين من أبناء بشرية يصل تعداد سكانها إلى الرقم المدهش المتمثل بـ ٦٥٠٠ مليون، من أبناء جنسنا، الذي تراكمت وتضاعفت كوارثه ومشكلاته.

إذا كان وجود عالم أفضل أمراً غير ممكن، فلنقل وداعاً للأمل بأن يحافظ جنسنا البشري على بقائه.

● يبلغ ١٣٢ ألفا و١٤ عدد الفنزويليين الملتحقين اليوم ببرامج التعليم العالي، عبر الطرق المذكورة، ممن يشاركون في البرنامج الوطني لتأهيل المربّين في جميع البلديات الفنزويلية (تصفيق وهتافات).

● يلتحق ٧٤ ألفا و٦٧٧ بأربعة برامج على مستوى بلديات توفّرها "الجامعة البوليفارية الفنزويلية"، وذلك في ٣٠٨ بلديات في جميع الولايات، باختصاصات "التدبير الاجتماعي للتنمية المحلية" و"التدبير البيئي" و"الاتصال الاجتماعي" و"الدراسات القانونية".

● يتلقى ٨٤ ألفا و٨٩٢ علوم اختصاصات فنية وعلمية وإدارية على مستوى بلديّات.

● يتلقى ٣٢١٧ علوم الحقوق في الجامعة الوطنية التجريبية "رومولو غاجيغوس".

يكلّ المرء وهو يقرأ قائمة كل النشاطات التي حققتها فنزويلا في مجال التعليم -وفي مجالات أخرى، ولكننا نتحدث هنا عن التعليم- خلال نصف السنوات السبع هذه، وفي خضم مقارعتها لمؤامرات إمبريالية، انقلابات من كل نوع، هجمات فاسدة على الاقتصاد، في محاولة لسحق هذه العملية.

هل حدث يوماً مثل هذا التقدم في مكافحة الأمية الكلية والوظيفية في أي بلد آخر من بلدان العالم؟

ما هو عليه الشخص الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة، أو ما هو عليه الأميّ وظيفياً، الذي بالكاد يعرف القراءة والكتابة؟ أو ألا يكون قد وصل إلى الصف السادس في هذا العالم الذي يبلغ كل ما يبلغه من التعقيد ويزداد تعقيداً يوماً بعد يوم، والبالغ ما يبلغه من العولمة ويزداد عولمة يوماً بعد يوم، فبماذا يمكن أن تختلف الكائنات الحيّة غير المفكِّرة عن تلك الكائنات صاحبة الرأس المفكِّر أو القادرة على التفكير، ولم يتم تعليمها ولا حتى

القراءة والكتابة؛ ولم يتم تعليمها التفكير، على غرار ما كان ينادي به خوسيه لويس دي لا لوز إي كاباجيرو قبل نحو قرنين من اليوم، في مستعمرة كوبا الإسبانية.

ولكن، ما هو بنظر الإمبراطورية هذا الرجل كادح النشأة، والذي تمكّن بمفهومه البوليفاري والمارتيني من تحقيق هذا الفصل الجديد من تاريخ شعوب أمريكا اللاتينية؟

الإجابة هي التالية:

"رامسفيلد -وزير دفاع الولايات المتحدة، زعيم البنتاغون- يقارن شافيز بهتلر". أصغوا جيداً بهتلر!

"واشنطن (أ.ب) قارن وزير الدفاع دونالد هـ. رمسفيلد الرئيس الفنزويلي هوغو شافيز بأدولف هتلر.

وقد جاء هذا التشبيه أثناء محاضرة ألقاها يوم الخميس في 'النادي الوطني للصحافة'، حين سؤل عن التدهور العام للعلاقات بين واشنطن وبعض بلدان أمريكا اللاتينية.

"وقال: 'لقد شاهدنا دكتاتوريات هناك'، وأضاف: 'ورأينا بأن أغلبية تلك البلدان، باستثناء كوبا" -أمر منطقي-، "تتقدم باتجاه الديمقراطية". (يبدو أننا نتقدم نحن نحو الجحيم، نحو الجهل المطلق أو الشامل، حيث لا يمكن وجود أي ديمقراطية كانت).

"واعترف وزير الدفاع: 'لقد رأينا بعض القادة العامّيين" -يا لها من كلمة؛ أولئك الذين يعتنون بالشعب، الذين يهتمّون بشؤون الشعب، الذين يهتمّون

بالصحة، بالتعليم، بالعمالة، الذين يفكّرون بالشعب، هم "قادة عامّيين"- "يجذبون حشوداً من الجماهير في تلك البلدان". كما لو أن الناس كانوا أغبياء، في الوقت الذي يزدادون معرفة في الواقع، ويسمعون ويرون على نحو أفضل يوماً بعد يوم حقائق أصبحت جليّة في الواقع ولا يمكن إخفاؤها. "وتجري انتخابات كانتخابات إيفو موراليس في بوليفيا، وهي انتخابات تبعث قلقاً فعلياً" (هتافات).

كيف له ألا يبعث القلق عند قادة الإمبراطورية أن يتحول هندي أحمر كادح إلى رئيس لبوليفيا اليوم، وقد انتُخب من قبل الأغلبية الساحقة من أبناء شعبه، رغم أنه تم حرمان مليون بوليفي، الأغلبية الساحقة منهم من أنصار إيفو، من الحق بالتصويت. كان من شبه المستحيل تقريباً تصور انتصار لإيفو بأغلبية ساحقة، حين كنّا نعرف جميعاً أن مليون بوليفي لا يستطيعون التصويت في ذلك اليوم. ماذا سيكون عليه الحال حين يدعو إيفو إلى تشكيل مجلس برلماني من أبناء الشعب؟ لا بد وأنه سيتبارى مع مأثرة البوليفاويين.

نعم، إني أعطيهم الحق، فلديهم دوافع متينة الأسس للشعور بالقلق. هذا هو أمر جديد بالنسبة للذين كانوا يحلمون في الحقيقة، على غرار هتلر، بإمبراطورية تدوم ألف عام.

وتواصل البرقية نقلها:"لدينا شافيز في فنزويلا" -وهنا أيضاً لاستلام الجائزة. "إنه شخص تم انتخابه بطريقة قانونية" -عجباً، لحسن الحظ أنهم لا يشككون في ذلك- "كما تم انتخاب أدولف هتلر بطريقة قانونية" -

لو كانوا يعرفون شيئاً من التاريخ لعلموا لماذا تم انتخاب هتلر في أحد الأيام وماذا كانت محصّلة ذلك، ومن هم الذين ساندوه ولماذا-، "ومن ثم وطّد سلطته، وهو الآن يعمل، بوضوح، على مقربة من فيدل كاسترو" -هذا الشخص "الفاسد"- "ومع السيد موراليس". وماذا يمكنهم أن يقولوا عن موراليس!

رائع، إننا نشعر بالسعادة للعبنا دور درع فولاذيّ. لا تأخذنّ ذلك على محمل الغرور ولكن الأمر استحضرني ذلك. إنهم يتكلّمون عن فيدل كاسترو، ومنذ ٤٧ سنة وهم يحاولون تدمير هذه الثورة، ولا يعرف أحد كم من مرّة حاولوا فيها قتلي، والواقع الفعلي ليس قتلي أنا، وإنما قتل هذا الشعب، الذي يشغل هذه الساحة بجزء منه ، لأنها لا تتسع للمزيد (هتافات)، وقد حفّزهم على ذلك هذا الشروق البوليفاري والوحدوي للشعوب التي أسماها مارتيه "أمريكانا".

يمكن للأفراد أن يتمتعوا بامتياز، وقد تحدثنا عن ذلك حين سلّمت هذه الجائزة لشقيقنا العزيز هوغو شافيز فريّاس. شعرنا بالسعادة في تلك اللحظة لما تم بذله من جهد لصالح أبناء البشر. كان من واجبنا أن نفعل أكثر من ذلك بكثير، ولكن لم يكن عندنا من المعارف لفعل ذلك، ولا كان بإمكاننا إنضاج وعي الواجب بدرجة تبلغ كل هذا السموّ ولا الحاجة لفعل ذلك -وهذا ما أقوله أنا، فلا أتحدث باسمه، إنما باسمي، لأنني تمتعت بهذا الامتياز-، وكنّا نقول: لا فضائل لنا، فنحن أصحاب امتياز لكوننا ولدنا في هذه الحقبة الاستثنائية التي تضحى فيها التغيرات ليست ممكنة فقط،

وإنما ضرورية أيضاً، وهو شرط أساسي للبقاء.

هذا الحضور، حضور فنزويلا، حضور الملايين الذين صوّتوا في الاستفتاء، الذين صوتوا لإيفو، الذين يرفضون بأعداد متزايدة أولئك الخانعين للإمبراطورية التي تريد تدميرنا، التي تريد استغلالنا على نحو أكبر بعد، يشكل عيش ذلك امتيازاً حقيقياً.

كم عدد الذين سقطوا! كم هو عدد الذين ماتوا منذ زمن بوليفار وسوكري حتى يومنا هذا! بل ورفاق كثيرون لنا، كهذا الرفيق، الذي نرى رسمه هنا، إرنستو تشي غيفارا، الأرجنتيني، الكوبي، البوليفي، البوليفاري، شهيد أمريكا اللاتينية والعالم (تصفيق). المناضلون اليوم من أجل وطنهم، من أجل هذه القارة، هم مناضلون من أجل العالم؛ أو على غرار هذا المفكّر ما فوق العادي الموجود هناك على واجهة المكتبة الوطنية -وليس هناك من مكان أفضل لذلك-، خوسيه مارتيه. كم ناضل ذلك الرجل، وكم من أمثاله قضوا، بل وبدون امتياز رؤيتهم لما نراه نحن جميعاً هنا، شافيز، إيفو، وغيرهما كثيرون وأنا؛ ولكن، أكثر منّا نحن، أصحاب امتيازات هم أنتم، البالغون كل ما تبلغون من الشباب، والمليئون بكل ما تمتلئون به من آفاق آمال، يا من ستملأون هذه القارة بخريجي التعليم العالي؛ لأننا نقوم معاً اليوم، كوبا وفنزويلا، بتأهيل أطباء هذه القارة بدون أي نية على تجاهل أو استبعاد أحد الأطباء المستعدّين للذهاب إلى "الحي الداخلي"؛ الأطباء المستعدّين للذهاب إلى أماكن الكوارث من غير أن يرتجف لهم جفن؛ الأطباء الذين كُتب لهم أن يمارسوا واحدة من أنبل المهن، مهنة الطبيب، كمهنة

المعلّم وغيرها، بما فيه الخير للجنس البشري.

لا تراكنّ تدرسون هنا من أجل ممارسة الطب في القطاع الخاص. إنني على ثقة بأنه لا تراودكم مثل هذه الأفكار، وبأنكم ستدرسون لكي تخدموا شعوبكم، لتفعلوا كما يفعل هؤلاء الأطباء الفنزويليين الشباب خريجي المدرسة الأمريكية اللاتينية للطب، الذين أرسلهم شافيز إلى دلتا أماكورو، أرسلهم إلى الأمازون، ويتحدث عن إرسال العديد منهم إلى بوليفيا الآن في هذه اللحظة من الكارثة. سيأتي اليوم الذي يكون بوسعكم أن تسيروا فيه هكذا بالآلاف وحتى بعشرات الآلاف.

قبل مدة ليست بطويلة من الزمن كنا نتحدث عن تأهيل مائة ألف طبيب بين فنزويلا وكوبا. وأستطيع اليوم أن أحدّثكم هنا بأننا نناضل نحن وفنزويلا في سبيل تأهيل مائة وخمسين ألف طبيب خلال عشر سنوات (تصفيق)، وليس فقط من كوبا، وإنما من أمريكا اللاتينية. ويندرج في هذا العدد أيضاً الكوبيون المستعدّون للذهاب إلى أي مكان.

في ما يشكل شرفاً عظيماً لنا، يتواجد هنا نحو ٣٠٠ طالب أو أكثر من تيمور الشرقية لدراسة الطب (هتافات). أنظروا إليهم هناك، يا له من حماس، يا له من بلد بطل، كان مستعمرة على مدار ٥٠٠ سنة، خمسمائة سنة! ودفع بدمائه ثمناً باهظاً للاستقلال، نشعر بالفخر لوجودهم هنا. وفي هذه السنة سيجتمع في كوبا حوالي ألف طالب من تيمور الشرقية؛ وهناك أيضاً أصبح يوجد ١٨٠ طبيبا كوبيا يقدّمون خدماتهم، معظمهم في كليات للعلوم الطبية، والذين نتذكّرهم في مثل هذا اليوم. أبناء تيمور

الشرقية كانوا مستعمرة لبلد إيبيري، وكالعادة، أرسل الجبابرة جنوداً إلى تلك البلدان. لم يرسلوا أبداً أطباء ولا معلّمين، لم يمحوا أبداً أميّة أحد، ولم يعلموا أحدا.

اعذروني على خروجي عن النص. سأحرص على عدم فعل ذلك من جديد، لأننا ننتظر بفارغ صبر سماع الرئيس هوغو شافيز في يوم كهذا (هتافات).

والآن، هذا التصريح الصادر عن زعيم البنتاغون، يتبعه مباشرة تصريح خطير آخر صادر عن زعيم الوكالة الكبرى المكوّنة من ١٥ خدمة، والتي تشمل السي آي إيه والأف بي آي، جون نيغروبونتي، ذا الذكرى المؤسفة، الصديق الحميم لذلك الإرهابي الذي يريدون حمايته، ويحمل اسماً يبعث الكثير من الاشمئزاز بسبب ما يعنيه من رمز، بوسادا كاريليس، والذي كان يفترض أن يعيدوه لفنزويلا من أجل محاكمته.

ولاحظوا ما عليه من تذرّع بحجة التعذيب لكي يقولوا بأنهم لن يرسلوه إلى فنزويلا!، البلد الذي أوشكوا فيه على قتل الرئيس، حيث قاموا بانقلاب عسكري، وانقلاب نفطي، ويوجد فيه رئيس وصل به الأمر لأن يغفر، بسبب شهامته الكبيرة، عن أولئك الذين خانوا الوطن الفنزويلي.

كما غفرنا نحن في لحظة معينة، فأفرجنا، بعد مطالبة الإمبراطورية بتعويض، عن أكثر من ألف مرتزق في خدمة قوة عظمى أجنبية، ممن أتوا بالزّي العسكري وبطائرات أمريكية رُسمت عليها رموز كوبا وشنوا هجومهم على نحو مفاجئ وغادر؛ غزوا بلدنا وهم بحراسة الأسطول والقوات

الأمريكية، التي لم يتّسع لها الوقت للإنزال، لأنه لم يكن قد بقي هناك أحد تدعمه، وبالكاد كان قد مرّ ٤٨ ساعة على إنزالهم.

لم أكن أعقد العزم على ذكر شيء من هذا، ولكن المسألة هي أن بعض الأمور تؤدي للحديث عن أمور أخرى. حين يسمع المرء الحديث أو يتحدّث عن نيغروبونتي وهو يجلس في مكتب، ربما لا ينفعل كثيراً؛ ولكن بعد سماع البروفيسور بوناسّو، الذي ذكرنا جيداً بدوره المشين -وقد ذكرنا مرات عديدة هذا السيد، شريك بوسادا كارّيليس في الحرب القذرة على نيكاراغوا-، هذا هو الرجل الذي يقول اليوم ما يرد في البرقية الصحفية: "رئيس خدمات التجسس الأمريكية" -"الوكالة الكبرى"، كما تسمّيها البرقية-، "عبّر يوم الخميس عن مخاوفه من تسبب أي انتصار انتخابي للرئيس هوغو شافيز في شهر كانون الأول/ديسمبر في تعزيز ما أسماه سياسة خارجية تدخّليّة في الشؤون الداخلية لجيرانه وفي تقريبه على نحو أكبر من كوبا" -ولكن، لاحِظوا، لا ينتهي الأمر هنا- "وإيران وكوريا الشمالية"، بلدان يصفونهما هم بالإرهابيّين، وبالإضافة لذلك يهدّدون حتى باستخدام الأسلحة النووية التكتيكية ضدهما إذا ما طوّرا -على غرار ما يفعل عشرات البلدان في العالم- محروقات نووية لإنتاج الكهرباء، لكي لا يحرقا ما لديهما من غاز ومن نفط وإخفائهما من الوجود خلال سنوات قليلة من الزمن؛ الوصول إلى حد التهديد بالهجوم بأسلحة نووية هو أمر جنوني في الحقيقة. ولكن، أي عمل مجنون لا يمكن توقّعه من البعض؟ لا أريد الإهانة، ولا هيّ هذه غايتنا؛ ولكن من المستحيل الامتناع عن الإشارة إلى وجود التلفزيون، وجود

الخطابات، وجود الرسائل، وتبدو على ملامح بعضهم سمات الأشخاص الفاسدين بالفعل، لكي ينتهي الأمر بقول كل ما يجب قوله.

من الذي يتحكم بمصير العالم، أو من الذي يتحكّم بأمن شعوب المعمورة؟ لا يمكنهم هم أن يصنعوا أي شيء محمود من أجل الوصول إلى عالم أفضل، ولكنهم نعم مستعدّون لأن يضعوا هذا العالم على شفير الدمار، بل وأن يتسببوا بنشوء أوضاع لا يستطيعون التحكم بها لاحقاً؛ وأن يشنوا حروباً لا يقوى أحد أبداً على الحدّ من اتساع رقعتها ومن انتشارها.

هذه المخاطر تواجهها هذه البشرية اليوم، وهي مخاطر جديدة، تعود إلى السنوات المائة الأخيرة، فهي لا تعود ولا حتى إلى السنوات الستين الأخيرة، سواء كان خطر الإبادة الجسدية بفضل قدرة أسلحة الدمار الشامل، كالعدوان الواسع على الوسائل الطبيعية الضرورية بالنسبة لحياة أبناء البشر.

"جون نيغروبونتي، مدير التجسس القومي، قال بأن الرئيس شافيز مستعد لأن يواصل بشكل خاص خنقه للمعارضة ولتقليص حرية الصحافة".

هل علمتم، أيها الفتية الفنزويليون، بأن الرئيس شافيز مستعد لأن يواصل بشكل خاص خنقه للمعارضة ولتقليص حرية الصحافة؟ فها نحن ننشر هنا ما قاله المرموق نيغروبونتي بدون أي قيد، وليس عندي أدنى شك بأنه في ما يشكل عاراً له، هذا لو كان قد تبقّى الحدّ الأدنى من الوجل عند أصحاب هذه التأكيدات بالغة الفظاظة والكذب.

"ونيغروبونتي، في شهادته الأولى منذ تعيينه...". الشهادة الأولى، ليست موجهة ضد بوسادا كاريليس، ضد الإرهاب، ضد أعمال التعذيب، ضد أعمال القتل بدون محاكمة التي ترتكبها حكومة الولايات المتحدة، ولا ضد أعمال التجسس الواسعة في مجتمع كالمجتمع الأمريكي، الذي كثر حديثهم له عن الحقوق الثابتة لكل مواطن؛ لا، ضد الحرية، الأمن والحياة. في شهادته الأولى لا يتكلّم عن شيء من هذا، إنما يتكلّم عن فنزويلا ويتكلّم عن شافيز، سواء كان هو أم زعيم البنتاغون. علينا أن نرى إن كان هذا يتمتع بما يكفي من الجنود لمواصلة المغامرات. يوماً بعد يوم يقل عدد جنوده، يقل عدد الأشخاص المستعدّين للالتحاق بصفوف جيشه.

سمعنا النبأ للتو قبل ساعات قليلة من الآن، في نفس اليوم الذي وُجِّهت فيه الرسالة الشهيرة إلى الكونغرس، بأن السيدة شيهان قد تعرضت للاعتقال. في هذه اللحظة التي لا أعرف فيها بعد إذا كانت تلك الأم، العذبة في الواقع، وكانت كلماتها ولطفها ورزانتها مؤثرة هناك في منتدى فنزويلا؛ تلك الأم التي فقدت ابناً ولا يبدو على محيّاها أي علامة من الحقد، وإنما نعم قناعة عميقة بعدالة مطلبها، ندائها، مطالبتها، ما تزال مسجونة هناك، حيث قضى بوسادا كاريليس سبعين يوماً على الأقل، بحرية مطلقة، رغم أن حكومة الولايات المتحدة ووكالة للتجسس الكبرى كانتا تعلمان أين هو وماذا يفعل ومن أين دخل، من دون أن تعتقلاه لكونه متواطئاً ذا امتيازات في جرائم كبرى، متواطئاً في العمل الإرهابي الوحشي، المرتكب في باريادو بتشجيع من الخدمات التجسسية الأمريكية، والذي كلّف الكثير

من الأرواح، وأدى إلى مقتل فنزويليين -أكثر من واحد-، وعذّب فنزويليين وشارك في عملية "كوندور"، التي تم من خلالها ارتكاب جرائم تتجاوز الحدود وتتجاوز المحيط، في أوروبا؛ بل وفي الولايات المتحدة نفسها، حيث قاموا بتفجير قنبلة في سيّارة أورلاندو ليتيليير، وزير خارجية سلفادور أليندي، وقُتلت إلى جانبه مواطنة أمريكية.

إنه ليبعث الغيظ أن نفكّر أو نعلم بأنهم قد اعتقلوا السيدة شيهان -لأنه تمت دعوتها من قبل نائب للحضور في الكونغرس-، وأقسم لكم أنني لا أعرف إن كانت ما تزال معتقلة في هذه اللحظة أم لا.

هذا السيد نيغروبونتي "مثُل أمام لجنة التجسس المختارة التابعة لمجلس الشيوخ إلى جانب رئيس السي آي إيه، بورتير غوس؛ ومدير الأف بي آي، روبير مويلر؛ وغيرهما من قادة التجسس التابعين لكل من البنتاغون ووزارة الخارجية.

كان لدى هتلر "الكتيبة الضاربة" (SA)والجيستابو، ولكنه لم يكن لديه كل ذلك العدد من الوكالات والوكالات الكبرى وكل تلك الخدمات التجسسية، أبداً! كان كافياً بما يمتلك أن يرتكب أعمال إبادة كبرى ولم يكن هو أكثر خطورة من أولئك الذين يتمتعون بعشرات الآلاف من الأسلحة النووية التكتيكية والإستراتيجية.

"أشار إلى أنها آخذة بالنشوء بعض الرّموز العاميّة الراديكالية الجديدة في بلدان معينة، ترعى سياسات اقتصادية تحت سيطرة الدولة..." هل تراه قد سمع يوماً برنامج "ألو، حضرة الرئيس" وكل ما يجري الترويج له في

فنزويلا، وخاصة منه المهمّات، وهي تعبير عن مشاركة فعلية من جانب الأشخاص في كل ما له علاقة بنشاطات البلاد وبحياتهم نفسها؟ "... وتبدي القليل جداً من الاحترام" -القليل جداً من الاحترام، اسمعوا جيداً أيها الشباب- "للمؤسسات الديمقراطية.

وقال نيغروبونتي إن انتصار إيفو موراليس في بوليفيا يعكس فقدان الجمهور للثقة بالأحزاب السياسية والمؤسسات التقليدية".

طبعاً، كيف لهم أن يواصلوا الثقة بالكلام بالحماقات والأوساخ التي يحكونها لهم في كل يوم، ويريدون جعلهم يصدّقونها بالقوة من خلال تقنيات مدروسة، عبر تحويل أبناء البشر إلى أشخاص يتصرفون بموجب رد الفعل المنعكس، كالحيوانات التي تمثّل في عروض السيرك. هذا ما يفعلونه بالبليون دولار التي يتم إنفاقها سنوياً على الدعاية التجارية وليس على التعليم، على غرار ما بوسع بلدنا، على سبيل المثال، أن يفعل، وما يفعله اليوم: يوجد فيه يوماً بعد يوم مزيد من وسائل الاتصال، مزيد من أجهزة الاستقبال التلفزيوني، وأكثر من ٦٠ بالمائة من مدة البث التلفزيوني مكرس للتعليم وبدون دعايات تجارية. ولهذا هو أمر سيئ جداً بالنسبة للإمبراطورية .

الحديث مع كوبا، مع الكوبيين، حسناً، أعاود طلب المعذرة بسبب خروجي عن النص. لقد نكثت حتى بوعدي أن أكون وجيزاً.

هذه الجائزة الهامة التي نسلّمها اليوم لهوغو شافيز تأسست عام ١٩٩٤ من قبل المجلس التنفيذي لمنظمة اليونيسكو باقتراح من أمينها العام،

العالم والمثقف البارز فيديريكو مايور ثاراغوثا، كاستجابة لاقتراح من كوبا، في وقت لم يكن فيه أحد في بلدنا يعرف شافيز.

من أين كان لنا أن نتصوّر، كان علينا أن نكون منجّمين، أن نتمتّع بكرة بلّورية لنعرف بأن هذه الجائزة، وفي ما يشكل مجداً للذين اقترحوها وأيّدوها، سيتم منحها لهوغو شافيز (تصفيق).

هذا التقدير بالغ السمو يُمنح، حسب ما ينص القرار حرفياً، باسم "صاحب الفكر الثاقب والرجل الفاعل الذي شكّل أداة أساسية لتحرير كوبا والشخصية القمة في الأدب الأمريكي باللغة الإسبانية" -مارتيه-، "كطريقة لتشجيع ومكافأة أعمال على نحو خاص من الفضيلة يقوم بها أشخاص أو مؤسسات تساهم بشكل بارز، انسجاماً مع فكر وروح خوسيه مارتيه المجسّد في حب السيادة والنضال التحرري لأي بلد، في أي مكان من العالم، بوحدة وتكامل بلدان أمريكا اللاتينية والكاريبي وتقدمها الاجتماعي وفي صيانة هويتها وتقاليدها الثقافية وقيمها التاريخية".

طبعاً، لم يكن بالإمكان أبداً تسليم هذه الجائزة لشخص مثل بينوتشيه، لمن ارتكبوا مئات الآلاف من الجرائم وأعمال التعذيب بحق الشعوب في الأرجنتين، في غواتيمالا، في باراغواي؛ أو شنّوا حروباً قذرة كالحرب على نيكاراغوا، التي كلفت أرواح آلاف النيكاراغويين، أو في أماكن أخرى من هذه القارة، بمساعدة عملاء وجلادين تم تدريبهم في تلك المدارس التي روّجت لها الإمبريالية وحافظت عليها حكومات إكراه، بخبراء في التعذيب، ممن تعلّموا في الولايات المتحدة ممارسة الأعمال الوحشية المرتكبة بحق شعب

فيتنام، حيث زهقوا أرواح أربعة ملايين شخص في حرب ظالمة وتسببوا في تعوّق ملايين الأشخاص أيضاً.

لن يكون هناك جوائز أبداً لهؤلاء، للمجرمين، لباعة الأوطان، للذين يخونون الملايين، مئات الملايين من الأشخاص في هذا الجزء من القارة ممن ليس لديهم العدد الكافي من الأطباء، ولا ما يكفي من المدارس، ولا ما يكفي من فرص العمل، ولا ما يكفي من المعلّمين، وحيث يفقد ملايين الأشخاص، على سبيل المثال، حاسّة البصر؛ فهم يضحون شبه كفيفين، ثم يفقدون لهذه الحاسّة كلياً في وقت لاحق.

كيف لهم أن يدعموا برامج أشخاص مثل هوغو شافيز، أشخاص جعلوا من الرعاية الطبية لسبعة عشر مليون فنزويلي أمراً ممكناً، يا سيّد نيغروبونتي، ممن لم يكونوا يتلقون عناية طبية من أي نوع كانت، ولم يكن لديهم حتّى صيدلية، بينما يتلقى السبعة عشر مليون فنزويلي هؤلاء اليوم، ليس فقط العناية الطبية المجّانيّة، وإنما الأدوية أيضاً مجّانية تزوّدهم بها الحكومة البوليفاريّة.

إنها فضيلة عملية ثورية بحقّ روّجت للتحليل البصري ولتسليم العدسات مجاناً، وطب الأسنان، المجّاني أيضاً، وتطوّر اليوم على نحو متسارع البرنامج الاجتماعي الأكثر كمالاً تم القيام به أبداً، وهذا ليس فقط في مجال التعليم، وإنما في ميدان الصحة، الذي سيتمتّع في أواسط عام ٢٠٠٦ بستمائة مركز تشخيص تكاملي، ومجمّعات طبيّة من الدرجة الأولى من حيث الجودة، وستمائة مركز للعلاج الطبيعي والإنعاش، تجد مصدر

معدّاتها الكهروغناطيسية بين أفضل الشركات في العالم و٣٥ مركزا للتشخيص ذات تكنولوجيا متقدّمة، تم من بينها اقتناء أحدث المعدّات الموجودة. لا يتحدث قادة الإمبراطورية عن هذا، لأنه قليل عدد العيادات الخاصة في الولايات المتحدة الذي يتمتّع بمجموعة من أحدث المعدّات، كتلك التي تتمتع بها هذه المراكز.

ستمتد خدماتها لتشمل جميع قطاعات المجتمع الفنزويلي. هذا ما طلبه الرئيس الفنزويلي قبل أكثر من عام ونصف العام من الآن. ولهذا ارتفع العدد الإجمالي للمراكز المطلوبة من كوبا من ٨٢٤ إلى ١٢٣٥.

وأنا لا أبالغ في ذلك، فأنا أعرف تماماً بأن كل شيء في الولايات المتحدة يحكمه مبدأ الربح، وأن المعدّات المكلفة جداً لا تُستَخدَم إلا في معالجة عدد قليل من أصحاب الامتيازات. انطلاقاً من تجربتنا نفسها، أنا على ثقة بأن تلك المعدّات ستوفّر العناية في فنزويلا لثلاثين، أربعين، خمسين شخص يومياً.

لا يراودني أدنى شك بأن وطن بوليفار، على غرار كوبا وبسرعة أكبر بكثير من كوبا، سيتمتع بخدمات ممتازة ما زلنا نحن نكافح من أجل الوصول إليها، مع أننا نقترب كثيراً منها، لأن لدينا أكثر من سبعين ألف طبيب، من بينهم حوالي ستين ألف أخصائي يسيرون باتجاه اجتياز علوم الماجستير والدكتوراه بالعلوم، رأسمال بشري كالرأسمال الذي يريد شافيز تكوينه؛ أساتذة، أطباء، مهندسون، رجال متخرجون من مستوى التعليم العالي يصل بهم الأمر للتحول إلى حملة شهادات ماجستير ودكتوراه

بالعلوم، إنه خَلْق رأسمال بشري لا ينفد كما يمكن للنيكل أو الألمنيوم أو المحروقات أن تنفد، وإنما يتضاعف، لأن هؤلاء الشبان القادمين من فنزويلا ومن بوليفيا الذين يلتحقون اليوم وهم مليؤون بالحياة وبالأمل وبالإرادة بمراكز ستتمتع بجودة عالية، سيكونون على درجة أعلى بكثير من المعارف وسيكون عددهم قد تضاعف حين يستلمون شهاداتهم، وسيكون عددهم قد تضاعف من جديد بعدما يقومون بتنفيذ مهمة أو مهمتين أو المهمّات الأممية التي توكَل إليهم؛ سيكون عددهم قد تضاعف حين يحوزون على شهادة ماجستير أو دكتوراه، كما سيحصل عليها أطباؤنا بشكل واسع في مستقبل ليس ببعيد.

ليس هناك من شيء قابل للمقارنة برأسمال بشري، ويوماً ما ستعترف أجيال المستقبل للعملية البوليفارية بأمرين: الأول، وهو الأهم، تطويرها للرأسمال البشري الفنزويلي، مضاعفتها له، علماً منها بأنه لا ينفد أبداً؛ ودفاعها عن الموارد الطبيعية للبلاد، وإعلانها التكامل والتعاون في قارة أمريكية موحّدة، على نحو يمكن به ضمان وفرة الوقود لأكثر من ١٠٠ سنة، ٢٠٠ سنة إذا ما تم توفيرها، وإلى حين ذلك كل التكنولوجيا اللازمة لخلق بدائل عن المحروقات الحالية، البدائل عن الغاز، وهي بدائل ستظهر، ولكن إذا حكمنا على الأمور من خلال الوتيرة التي يسير بها العالم، ستكون هذه البدائل حكراً على أكثرهم ثراء وتقدما، وذلك من أجل الاستغلال الأكبر لشعوب العالم الثالث، هذا إذا أمكن منع تمرّدنا ومنع استعدادنا للتضحية بآخر نفس للحيلولة دون ذلك، من خلال نضالنا ليس فقط من أجل

رفاهية مادّية عادلة، وإنما نضالنا من أجل البقاء! أنا على ثقة بأن الأمر سيكون كذلك (تصفيق وهتافات)

هذه الجائزة الدولية "خوسيه مارتيه" تم منحها للرئيس هوغو شافيز فريّاس باقتراح من بلدان أمريكية لاتينية، وهي: بنما والبرازيل والأرجنتين وجمهورية الدومينيكان وكوبا. وتم التصويت على ذلك بالإجماع -أكرر، تم التصويت بالإجماع، أيها السادة رمسفيلد ونيغروبونتي- من قبل لجنة تحكيم مكوّنة من شخصيات عالمية لامعة، والذين اتفقوا في إبراز فضائله في النضال المخلِص لشعوب "أمريكانا".

أراد الرئيس شافيز استلام هذه الجائزة في هافانا، المدينة التي تولّد فيها خوسيه مارتيه في الثامن والعشين من كانون الثاني/يناير ١٨٥٣، قبل ١٥٣ سنة وستة أيام بالضبط من الآن. ما زال حديث العهد موعد الاحتفال بعيد مولده.

يشاركنا اليوم في هذا الحفل ما فوق العادي ٣٨ مثقفا بارزا من العالم أتوا لهذه الغاية خصيصاً، بينهم خمسة من الأعضاء السبعة لهيئة التحكيم المرموقة للجائزة الدولية "خوسيه مارتيه"، ولا يشعرون بالخجل لمنحهم هذه الجائزة لمن يستحقها بجدارة، كما هو حال الرئيس هوغو شافيز.

ويتواجد معنا أيضاً أكثر من مائة من الفنانين والكتاب والناشرين والمهنيين الهامين من عدة بلدان، ممن يشاركون في المعرض الدولي الخامس عشر للكتاب، المخصّص هذه السنة وعلى نحو محقّ لتكريم جمهورية فنزويلا البوليفارية، حيث يزدهر التعليم والصحة والثقافة (تصفيق

وهتافات).

من هم الذين يتواجدون في هذا الحفل بالذات؟

كرد ساحق ولا يُدحَض على مشيئة الذين يريدون عالماً مليئاً بالأميين والجاهلين والجياع والمرضى والفقراء، من أجل إخضاعهم لأسوأ عملية نهب، يتواجد في هذه الساحة المجيدة:

- ٣٤٢١ طالبا فنزويليا من برنامج "تأهيل أطباء أمريكيين لاتينيين" الجديد (تصفيق وهتافات).

ارفعوا الرايات عالياً لكي يروكم في الولايات المتحدة، لكي يروا ما يفعله شافيز لدعم الشبان.

- ٢٥٩٢ من بوليفيا. ارفعوا أيديكم (تصفيق وهتافات).
- ٤٧٧ من هندوراس. ارفعوا أيديكم (تصفيق وهتافات).
- ٣٣٤ من تيمور الشرقية (تصفيق وهتافات).
- ٢٠٠ من الإكوادور (تصفيق وهتافات).
- ٥٩ من باراغواي، من الدورة الجديدة (تصفيق وهتافات).
- ٥٠ من غواتيمالا، ولكن سرعان ما سيبلغ عددهم ألفين (تصفيق وهتافات).

ليصل عدد المجموع إلى ٧١٣٣ في كوبا.

ويتواجد في هذا الحفل أيضاً:

- ٢٢٠٦ طلاب من العلوم الأساسية لمقر المدرسة الأمريكية اللاتينية للطب في مدينة هافانا (تصفيق وهتافات).

● ٢٠٠ من المدرسة الدولية للتربية البدنية والرياضية (تصفيق وهتافات). لاحِظوا ما هم عليه من قوّة.

● ١١٠٠ من برنامج تأهيل أطباء وفنيين ومهندسين كهرو-طبيين كوبيين للمهمات الأممية (تصفيق وهتافات). إنهم بعيدون جداً.

● ١٢٢٤ طالبا من دورة تأهيل العمال الاجتماعيين الفنزويليين (تصفيق وهتافات)، لاحِظوا، إنها غابة من الرايات.

● ٤٨٠٦ عمال اجتماعيين كوبيين شباب، يمثلون العمال الاجتماعيين الثمانية وعشرين ألفاً الذين تتكون منهم هذه القوة اليوم.

● ٨٠٠٠ طالب كوبي من جامعة العلوم المعلوماتية (هتافات)

● ٦٠٠ مرشد فنون كوبي شباب أعضاء فرقة "خوسيه مارتيه" في مدينة هافانا.

● ٨٥٠ عضوا من الوفد الكوبي إلى المنتدى العالمي الرابع الذي تم إحياؤه في كركاس (هتافات).

● وفد يمثل عمال الإقامة الشفائية الذين يوفرون العناية بمرضى "عملية المعجزة".

● أكثر من ٤٣ ألف طالب كوبي من اتحاد طلبة التعليم المتوسط (هتافات) ومن اتحاد الطلبة الجامعيين (هتافات)، يمثلهم طلاب من مدارس مرشدي الفنون، والتعليم الفني والمهني، ومن المدرسة المهنية للعلوم الدقيقة "فلاديمير إيليتش لينين"، عمّال ناشئون لمرحلة التعليم الابتدائي، أساتذة عامون تكامليون للمرحلة المتوسطة، ممرضون ناشئون، تكنولوجيو

صحة، وطلاب من مختلف المراكز الجامعية في مدينة هافانا.

● وفد يمثل الطلبة الكوبيين من مراكز الدراسات العسكرية.

● ٤٢ ألف عامل من قطاعي البناء والسياحة، من مجموعتي شركات "سيميكس" (CIMEX)و"كوبالسي" (CUBALSE)ممن يتواجدون في أنحاء هذه الساحة.

● ممثلون عن مختلف المنظمات والمؤسسات ذات الصلة بدراسة أعمال خوسيه مارتيه (هتافات).

ممثلون عن هيئات ومؤسسات ومنظمات سياسية وجماهيرية.

١٢٥ ألفا من أبناء وطننا قادمون من بلديات سينترو هافانا، سيرّو، هافانا فييخا، بوجيروس، دييس دي أوكتوبري، بلاجا، بلازا دي لا ريفولوسيون.

قبل أيام قليلة، ضربت كارثة طبيعية قاسية الشعب البوليفي المعذّب، الذي حرره كل من بوليفار وسوكري. هرعت فنزويلا وكوبا لمساعدة هذا البلد الشقيق.

حالما وصل النبأ إلى وطننا، بعد نداء وجهه إيفو للأسرة الدولية، انطلقت طائرة كوبية من طراز إليوشن-٦٢ (IL-62) وعلى متنها ١٥,٧ أطنان من الأدوية، وبعد ذلك بساعات أقلعت طائرة أخرى من مطار رانشو بوجيروس وعلى متنها ١٤ أخصائيا في مكافحة العواقب البشرية الناجمة عن الكوارث الطبيعية (تصفيق وهتافات)؛ فصيلة كاملة من فرقة "هنري ريف". وسيغادر إلى هذا البلد الشقيق كل ما يطلبه إيفو (هتافات).

وتستعد فنزويلا وكوبا أيضاً للشروع بحملة لمحو الأمية في بوليفيا

حالما يوعز إيفو بذلك. وهي عملية محو أمية أوسع بكثير من كل الحملات السابقة، ذلك أنه سيتم محو الأمية بشكل متزامن باللغة الإسبانية وبلغة أيماراه أو كيتشو، حسب الحالة (هتافات). يتعلق الأمر بطريقة جديدة لمحو الأمية بشكل جماهيري واسع، إنه امتحان كبير، وأتصور أن بلداناً أخرى ستستفيد في المستقبل من كل هذه التجارب. وكلا البلدين، فنزويلا وكوبا، نتّحد في التعاون مع بوليفيا -كما في أمور كثيرة، ولكن ليس لإطلاق القنابل على أي بلد كان، ولا لاستخدام أساليب إرهابية، ولا لاستخدام القوة أو العنف؛ على العكس من ذلك تماماً، للقيام بتحرك أخوي وإنساني بشكل مطلق، كما عبّر الكاتب بوناسّو. لا نندم على ذلك، لا يندم شعبنا، إنما هو يشعر بالفخر؛ لن يندم أبداً الفنزويليون، وفي خضم العراقيل والصعاب والمخاطر التي لا نستخفّ بها، سيكون لدينا أملاً صادقاً بالسلام والسعادة بالنضال فعلاً من أجل عالم أفضل.

لا أود أن أطيل أكثر -هذا ما قالته نيتي، مع أنني بالغت بالإطالة، ولهذا أطلب المعذرة مرة أخرى. يكفي أن أضيف بأن أحداً أو شيئاً لن يتمكّن من منع شعوب أمريكا اللاتينية والكاريبي من الوصول إلى المستقبل المشرِق.

حتى النصر دائماً!

ألقى هذا الخطاب في حفل تسليم الجائزة الدولية "خوسيه مارتيه" التي تمنحها منظمة اليونيسكو وذلك في ساحة الثورة، في الثالث من شباط/فبراير ٢٠٠٦

رسالة من القائد العام
إلى شعب كوبا وإلى الأصدقاء في العالم

لا يمكنني أن أخترع شيئاً من عندي، لأن هذا ليس بالأمر الأخلاقي، وإذا ما كانت الأنباء سيئة، فإن الطرف الوحيد الذي سيستغلها ويستفيد منها هو العدو. وفي وضع كوبا بالتحديد، ونظراً لمخططات الإمبريالية تجاهها، يُضحي وضعي الصحي سراً من أسرار الدولة لا ينبغي إشاعته ونشره باستمرار؛ ومن واجب أبناء وطننا أن يدركوا ويتفهموا ذلك. لا يمكنني أن أقع في الحلقة المفرغة المتعلقة بالمعايير الصحية التي تتبدل باستمرار، على مدار اليوم.

أستطيع القول بأنه وضع مستقر، ولكن أي تحسن فعلي للوضع الصحي يحتاج لمرور الوقت، أكثر ما يمكنني قوله هو أن الوضع سيبقى مستقراً على مدار أيام عدة، قبل التمكن من إطلاق الحكم النهائي.

أشعر بعظيم الامتنان على كل الرسائل الواردة من أبناء وطننا ومن أشخاص كثيرين في العالم، ويؤسفني أن تسببت للأصدقاء في العالم بكل هذا القدر من القلق والإزعاج.

من الناحية المعنوية أشعر براحة كاملة، المهم هو أن يسير كل شيء في البلاد على ما يرام، وهكذا سيسير.

إن البلاد جاهزة للدفاع عن نفسها عبر القوات المسلَّحة الثورية والشعب.

وأبناء وطننا سيطّلعون على كل شيء في اللحظة المناسبة، كما حدث ...لا بد من النضال والعمل.

الأول من آب/أغسطس ٢٠٠٦





فيدل
كاسترو
صبيًا



كاسترو وجيفارا
وردتان ثالثتهما
ثورة



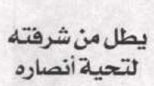
دخول العاصمة
هافانا بعد
الثورة



تواصل وتعاون استمر لسنوات بين محرر أميركا اللاتينية كاسترو ومحرر الزنوج في أميركا مالكوم إكس

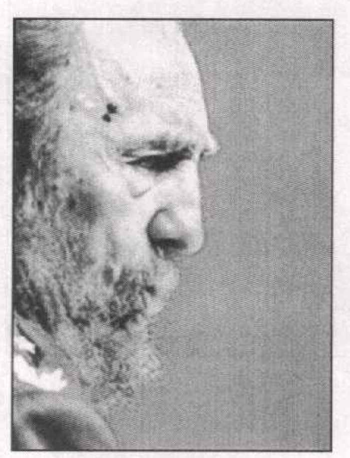


يطل من شرفته لتحية أنصاره





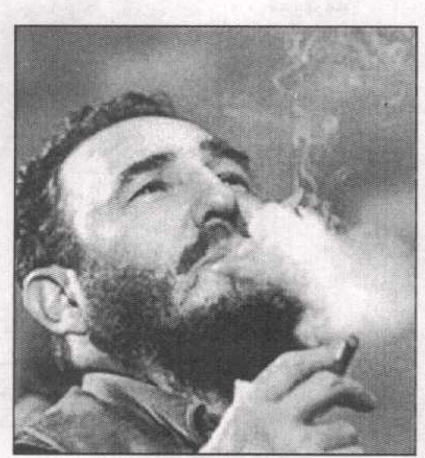
كاسترو مع رفاقه يتبادل وجهات النظر



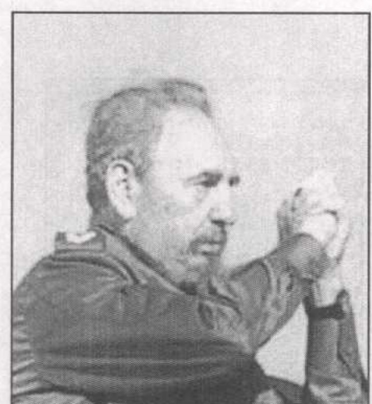
حماس لا يعرف الهدوء



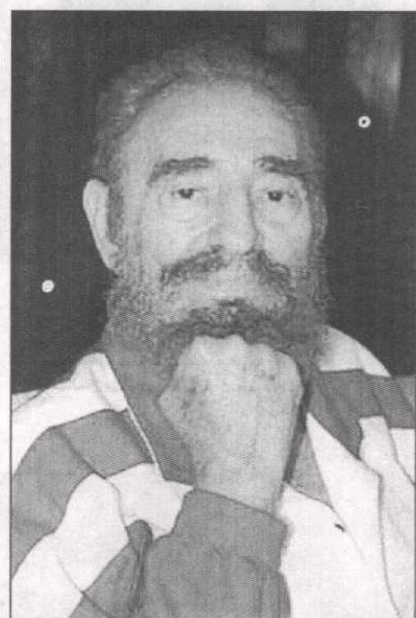
ثائر في لحظة تأمل



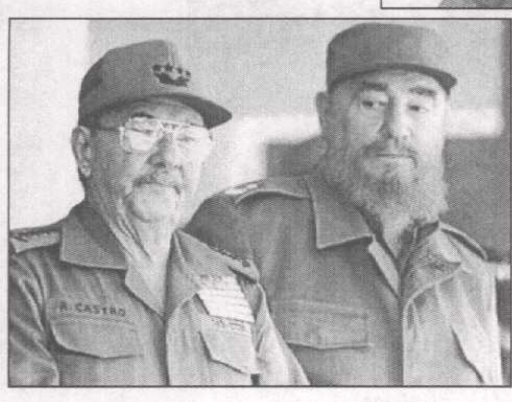
لهيب الثورة



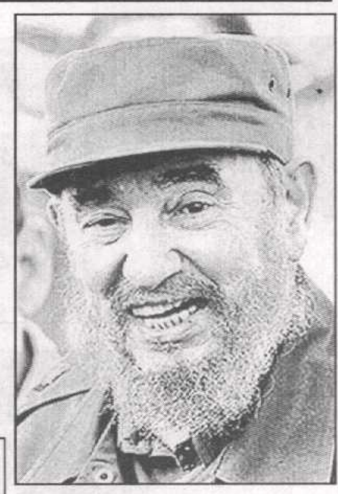
حماس
متواصل



حتى المرض
لم يهزمه



راؤول
كاسترو مع
أخيه ومثله
الأعلى



ابتسامة
ثقة



ترقب
المناضل



الرئيس
الفلسطيني
الراحل
ياسر عرفات
وعلاقة
نضال مع
كاسترو



فخر
الانتصار



رمز
في
قلوب
محبيه



كاسترو
ورفاق
الدرب فى
أزقة هافانا



الشعب الكوبي
ولحظة ترقب
لمصير قائدهم



انفعال من
أجل الحق



اسطورة الكرة
ماردونا ضيف
دائم لكاسترو



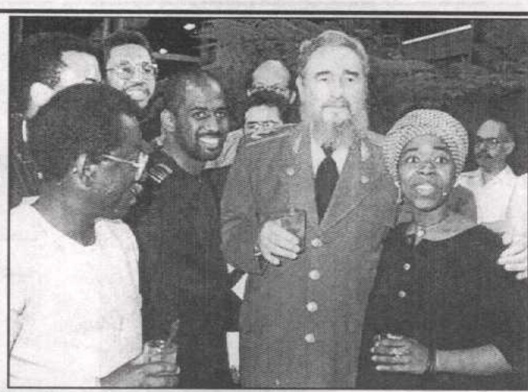
رفيقان على درب الثورة.. كاسترو والزعيم جمال عبدالناصر



الأميركيون السود يرحبون بالزعيم الذي أعلن حقهم فى الحرية



مع الكاتب الروائى الكولومبي جارسيا ماركيز الحائز علي نوبل



دائما ما يلقى
ترحيباً وتكريما
من الزنوج



موراليس..
كاسترو..
شافيز
ثلاثى
الثورة
اللاتينية



عناق الثورة
الشيوعية يجمع ما
بين كاسترو
والرئيس السوفيتي
خروتشوف



وريث كاسترو "شافيز" يلقى دائماً النصح من الزعيم



كاسترو.. خاتمي وعلاقة صداقة جمعت بين كوبا وايران



كاسترو في ضيافة مرشد الثورة الاسلامية فى ايران ،والرئيس الايرانى السابق

المصــادر

١- لطفي الخولي - عن الثورة في الثورة وبالثورة -حوار مع بومدين- دار القضايا -بيروت - ١٩٧٥.

٢- فوميل لبيب - كوبا للتماسيح دموع حقيقية - كتاب الهلال - القاهرة ١٩٨٨.

٣- يوسف عبده سعيد - كوبا في غمرة الكفاح الوطني - مكتبة المعارف - بيروت ١٩٦١.

٤- فيليب وندسور - السياسة بين السائل والمجيب - مركز الأهرام للترجمة والنشر - القاهرة ١٩٨٩ .

٥- مجدي نصيف - شيلي الثورة والثورة المضادة - دار الثقافة الجديدة - القاهرة ١٩٧٦ .

٦- فريدة النقاش - كوبا فقيرة ومحاصرة..لكن حرة - آفاق اشتراكية - كتاب غير دوري العدد الرابع - القاهرة - مايو ٢٠٠٥.

٧- حكم محمود الكفراوي - عبد الناصر والقضايا الدولية والقومية - منشورات الحزب الناصري - القاهرة ٢٠٠٤.

٨- عادل الجوجري - شافيز بطل فنزويلا ومرعب أميركا - دار الكتاب العربي - القاهرة ٢٠٠٧.

٩- اوخينو تشانج وورود ريجبت - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية -

ترجمة عبدالحميد غلاب وأحمد رشاد - المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة ٢٠٠٢.

١٠- أيوب بتروفيتش - تاريخ اكتشاف أمريكا اللاتينية - ترجمة د.حسنين أبو عرابي - الدار العربية - القاهرة.

صحف ومجلات

١- نيوزويك الاميركية ٢٨مارس ٢٠٠٦.

٢- المشاهد السياسي اللندنية - رقم ٥٥٥لعام ٢٠٠٦.

٣- الأخبار القاهرية ٢ يناير ٢٠٠٧.

٤- الدعوة السعودية ٧ سبتمبر ٢٠٠٦.

٥- الحياة اللندنية -١٤ ديسمبر ٢٠٠٦.

٦- لوموند دبلوماتك - ديسمبر ٢٠٠٦.

٧- الغد العربي القاهرة - يوليو ٢٠٠٦.

الفهرس